السنة الثانية (ذو القعدة سنة ١٣٥٤ — يناير سنة ١٩٣٦) الجزء الثالث

صحيفة دار العلوم

١٩٣٤

مجلة الأدب واللغة والتربية والاجتماع

تصدرها "جماعة دار العلوم"

كل ثلاثة أشهر

قررت وزارة المعارف ومجالس المديريات "صحيفة دار العلوم" في جميع مدارسها

المدير

ابو الفتح الفقي

رئيس التحرير

محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير
ترسل إلى مساعد التحرير

محمد مهدي علام
المفتش بوزارة المعارف

الاشتراكات والحوالات المالية
ترسل باسم أمين الصندوق

السباعي بيومي
المدرس بدار العلوم

الاشتراك السنوى

في القطر المصري	لغير الطلبة	٢٠ قرشا
	للطلبة ومدرسي المدارس الأولية	١٢ «
خارج القطر		٦ شلنات انجليزية
ثمن العدد		٥ قروش

المطبعة الرحمانية بمصر

إِنَّ بَاحِثًا مُدَقِّقًا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ أَيْنَ تَمُوتُ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَأَيْنَ تَحْيَا، لَوَجَدَهَا تَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ
وَتَحْيَا فِي دَارِ الْعُلُومِ»

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

من مكتب التحرير

فى كل عدد من أعداد الصحيفة، نقف حائرين إزاء حجمه؛ فكثرة المواد، والرغبة فى خدمة القراء إلى أقصى حد تميل بنا إلى تضخيمه، والاعتبارات المالية تدعونا إلى الاعتدال فى عدد صفحاته. ويظهر أن الاعتبار الأول هو الذى رجح دائما، وإنا بترجيحه لمغتبطون؛ لأن هذه «الصحيفة» لم تكن فى يوم من الأيام تجارية تبحث وراء المال. وما دمنا نشعر بأننا نؤدى لأمتنا الكريمة عامة، وللطبقة الممتازة من متعلميها خاصة، ما علينا من واجبات ثقافية فحسبنا هذا قناعة بل ربحاً عظيما.

✡ ✡ ✡

وإننا بهذا الصدد نسدى أجل الشكر لحضرات الكتاب الأجلاء الذين يوالون تزويد الصحيفة بكتاباتهم وبحوثهم، معتذرين عما يؤخر نشره منها، لأن نشر جميع مايصل إلينا دفعة واحدة أمر ليس فى إمكاننا.

✡ ✡ ✡

على أن ابتهاجنا بنجاح الصحيفة وتقدمها قد شابه فى هذا العدد حزننا العميق على فقد زميل كريم من زملائنا فى التحرير هو المرحوم الأستاذ طه احمد ابراهيم المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية، والمحرر بصحيفة دار العلوم.

لقد كان المرحوم طه شخصية من شخصيات الأدب العربى، فى مصر. وقد عرفه قراء الصحيفة من آثار قلمه، فإنه على الرغم من أن

المرض كان يصارعه فى خلال العامين الماضيين ، لم ينقطع عن عمله فى الجامعة أو فى الصحيفة إلا فى فترات لم يكن يقوى فيها على النهوض .

ولقد كان الفقيد الكريم رضى الخلق ، سمح اللقاء ، كثير التواضع ، فكان لابد لك أن تسمعه أو تقرأه حتى تقف على مبلغ علمه ، وقوة حجته .

عرفناه زميلا فى طلب العلم فى « دار العلوم » فكان مثال الطالب الذكى الحدب على درسه ، وطالما سمعنا موسيقاه الجميلة يعزفها شعرا خلابا . ثم عرفه تلاميذه فى المدارس على إثر تخرجه فكان لهم الأستاذ الضليع والأب الشفيق ، والصديق الناصح . وسمت به نفسه إلى الاستزادة من العلم فرحل إلى فرنسا وهناك أقام بضعة أعوام ، حصل فى نهايتها على شهادة فى العلوم السياسية . ثم عاد إلى مصر فاشتغل بالتدريس فى وزارة المعارف حقبة من الزمن ، ثم اختارته الجامعة المصرية مدرساً للأدب العربى فى كلية الآداب .

وهناك يحدثك تلاميذه عنه وعن أثره فى نفوسهم .

ففى ذمة الله هذا العالم الأديب ، وإن أسرة « الصحيفة » لتنعاه إلى قرائها وإلى عالم الأدب بقلوب مفجوعة ونفوس ملتاعة . وإننا لنقدم عزاءنا لشركائنا فى الفجيعة وهم أسرة الفقيد . ألهمهم الله وإيانا الصبر الجميل .

اتجاهات الأدب وأهم حواضره

فى العصر العباسى [1]

بقلم محمود البشبيشى

المدرس بدار العلوم

٣

اشتمل المقال الثانى على أهم الحواضر الأدبية فى القسم الشرقى من الدولة العباسية . ونريد الآن أن نعرض لأشهر الحواضر فى القسم الغربى منها ، وبذلك يتم موضوعنا ، فيتم به ما أردنا من تتبع الحركات الأدبية شرقا وغربا طوال العصر العباسى ، وعقد الصلات الوثيقة بين الظواهر السياسية والأدبية .

وبعد فإن أشهر الحواضر الأدبية فى غربىّ العراق ما يأتى : —

١ — مدينة (حلب) عاصمة الدولة الحمدانية التى قامت بحلب والموصل (من عام ٣١٧ هـ إلى عام ٣٩٤ هـ) وحسبك فى بيان مكانة هذه الحاضرة أن يكون من أمرائها (سيف الدولة بن حمدان التغلبى) . ذلك الأمير الذى لم تشغله أعباء الملك وأهوال الحروب عن أمر الأدب ورعاية العلماء ؛ فجمع حوله أفئدة العلماء والشعراء ، بما أسبغ عليهم من نعم ، وما تجمّل به من أدب ، وما عرف به من نقد الشعر ، والإجازة عليه ، حتى قيل إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من الشعراء ، ولا غرو فقد نشأ فى بيئة عربية خالصة ، وأخذ عن فحول العلماء كابن خالويه النحوى ، وطالت مخالطته لهم ، فازداد بالعلم والأدب بصراً ومعرفة .

---

(١) راجع المقالين الأول والثانى فى العددين الأول والثانى من السنة الثانية من « صحيفة دار العلوم »

من أجل ذلك كثرت جمهرة الأدباء والعلماء الحافّين من حوله؛ فتزاحموا على بابه، وتنافسوا، بل تحاسدوا فى القرب منه، والحظوة عنده، وما حصل بين المتنبى وابن خالويه ذائعٌ مستفيض.

كان (سيف الدولة) نفسه شاعراً حسن الشعر، فمن شعره هذه المقطوعة الجيدة فى وصف مجلس الشراب وقوس قزح: —

وساق صبيح للصبوح دعوته فقام وفى أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجمٍ فمن بين منقض علينا ومنفض
وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفاً على الجو دُكناً والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأصفرٍ على أخضرٍ فى أحمرٍ تحت مبيض
كأذيال خَوْدٍ أقبلت فى غلائلٍ مصبغة والبعض أقصر من بعض

ولقد أعجب (الثعالبى) فى اليتيمة بهذه الأبيات فوصفها بأنها «من التشبيهات الملوكية التى لا يكاد يحضر مثلُها السوقه» على أن من الإنصاف أن نقول إن بعض الرواة ينسبها إلى (ابن الرومى)

ومما يدل على اهتمامه بالنقد مارواه صاحب اليتيمة من أنه استنشد «أبا الطيب المتنبى» قصيدته التى أولها:

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

فلما بلغ (المتنبى) قوله: —

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلْمَى هزيمةً ووجهك وضاح وثغرك باسم

قال (سيف الدولة) قد انتقدنا عليك هذين البيتين كما انتقد على «امرىء القيس» بيتاه: —

كأنى لم أركب جوادا للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لخيلى: كُرى كرةً بعد إجفال

وبيتاك لا يلتئم شطراهما كما ليس يلتئم شطرا هذين البيتين وكان ينبغى لامرىء القيس أن يقول:

كأنى لم أركب جوادا ولم أقل لخيلىَ كرى كرة بعد إجفال
ولم أسبأ الزق الروى للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولك أن تقول : —

وقفت وما فى الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة كأنك فى جفن الردَى وهو نائم

فقال (أبو الطيب) : أيد الله مولانا ؛ وإن صح أن الذى استدرك على امرىء القيس هذا كان أعلم بالشعر منه فقد أخطأ « امرؤ القيس » وأخطأتُ أنا ، ومولانا يعلم أن الثوب لا يعرفه البزّاز معرفة الحائك ؛ لأن البزاز يعرفه جملة ، والحائك يعرف جملته وتفاريقه . . . وإنما قرن امرؤ القيس لذة الركوب للصيد بلذة النساء ، وقرن السماحة فى شراء الخمر للأضياف بالشجاعة فى منازلة الأعداء ، وأنا لما ذكرت الموت فى أول البيت أتبعته بذكر الردى وهو الموت ليجانسه ، ولما كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً ، وعينه من أن تكون باكية قلت (ووجهك وضاح وثغرك باسم) لأجمع بين الأضداد فى المعنى وإن لم يتسع اللفظ لجميعها ، فأعجب « سيف الدولة » بقوله ، ووصله بخمسين ديناراً من دنانير الصلات[١] .

ومهما تكن قيمة هذا النقد فإنه دليل على شدة عناية « سيف الدولة » بالأدب وأهله ، كما أن إجابة رد « أبى الطيب » دليل على نبالة قصده ، ورجاحة عقله ، وسعة حلمه ، وأنه أريحى النفس ، لا تصرفه عظمة الملك عن الحقيقة .

وعلى الجملة كانت (حلب) أيام سيف الدولة مهبط الأدباء ، وقبلة العلماء ، فكان ينزلها من الشعراء أبو الطيب المتنبى ، وأبو فراس الحمدانى ، وأبو الفرج الببغاء ، وكشاجم ، والخالديان : أبو بكر وأبو عثمان ، ومن العلماء أبو عبد الله الحسن بن خالويه النحوى ، وأبو الفتح عثمان بن جنى صاحب (الخصائص)

(١) كان لسيف الدولة دنانير أعدها للصلات ، فى كل منها عشرة مثاقيل وعليها اسمه وصورته (يتيمة الدهر الجزء الأول)

فى فقه اللغة . إلى غير أولئك من شعراء حلب والشام والموصل، وفى (يتيمة الدهر) مختارات من أجود الشعر لهؤلاء الشعراء وغيرهم من شعراء (سيف الدولة) ؛ فحسبنا من شأن (حلب) ما تقدم .

٢ — ومن تلك الحواضر مدينة (القاهرة) التى حَنَتْ على الأدب حنوا شديدا ، وأصبحت على عهد الفواطم كعبة العلماء ، ومقصد الأدباء ، تهوى إليها جموعهم من أطراف البلاد المصرية وغيرها ؛ وهم ما بين عالم وطالب علم فتوسع لهم القاهرة صدرها ، وتغدق عليهم برها ، وقد زاد فى مجدها وأعلى من ذكرها ، وجود (الجامع الأزهر الشريف) الذى أسس مع القاهرة لعهد الفواطم (عام ٣٥٩ هـ) فما لبث أن ضم بين جوانبه أفواجاً من أئمة الفقه والأدب ، على اختلاف أجناسهم وبلدانهم ، وغدا عاملا من أهم العوامل على نشر العلوم اللسانية والدينية ، وأصبح ملاذاً رحبا الآداب العربية ورجالها الذين نزحوا إلى مصر من الشرق والغرب . وساعد على نباهة شأن (القاهرة) ماوجد فيها من (مكتبات) علمية حافلة عامة كمكتبة (الحاكم بأمر الله الفاطمى) وما انبث فيها من مدارس كثيرة غنية بالعلماء ، موطأة الأكناف للطلاب .

ويطول بنا المقال إذا حاولنا استقصاء ما للقاهرة من آثار خوالد فى جنبات العلم والأدب ، ولكن لابد لنا أن نعرض دُرَرًا يسيرة من كلام شعرائها فى ذلك العهد ، أولئك الشعراء الذين نشئوا فى أرض مصر ، أو نزلوا بها وتكملوا فى معاهدها ، واتخذوها مستقرا ومقاما ، فجاء شعرهم على كثرته رائع اللفظ ، حسن الديباجة ، رقيق الحواشى ، وانطبعت فيه صورة مصر والنيل السعيد .

وإنا لنكتفى فى هذا المقام بالشعراء : تميم بن المعز المتوفى عام ٣٧٤ هـ ، وابن قلاقس اللخمى المصرى المتوفى عام ٥٦٥ هـ وابن النبيه المتوفى عام ٦١٩ هـ وابن مطروح المتوفى عام ٦٤٩ هـ والبهاء زهير المتوفى عام ٦٥٦ هـ وكلهم (ما عدا الأول) نشئوا قريبا من سقوط بغداد ، أى فى زمن اضمحلال الأدب بوجه عام ، ومع ذلك ترى فى شعرهم رقة وانسجاما ، وتعرف فيه الجزالة والقوة والبراعة ، وتلك صفات لا يكاد يخلو منها فى ذلك العهد شاعر مصرى

فمن قول تميم بن المعز يصف فوارة ، وفيه من دقة الوصف مافيه : —

وقاذفة بالمــــاء فى وسط بركة قدالتحفت ظلامن الأيكِ سجسجا
إذا انبعثت بالماء سلّته مُنْصُلا وعاد عليها ذلك النصل هودجا
تحاول إدراك النجوم بقذفهـا كأن لها قلبا على الجو مُحْرَجًا

ومن شعر (ابن قلاقس) الملقب بالقـاضى الأعز يصف غروب الشمس فوق نهر النيل : —

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة واعجب لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وأبدتْ شعاعا منه يخلفها كأنما احترقت بالماء فى الغرق !
وللهلال ؛ فهـــل وافى لينقذها فى إثرها زورقا قدصيغ من وَرِق؟

ومظهر الإبداع والروعة فى بيته الثانى ، أما تشبيه الهلال بزورق من فضة فقد سَبَق به (ابنُ المعتز) .

ومن كلام (ابن النَّبيه) فى الرثاء : —

لا تصلح الأرواح إلا إذا سرى إلى الأجساد هذا الفساد
أرغمت يا موت أنوف القنا ودست أعناق السيوف الحداد

وفى البيت الأول معنى فاسفى عجيب .

ومن قوله تلك القصيدة المشهورة التى يُتغنى بها الآن ومطلعها : —

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيّعا ملكَ الفؤادَ فما عسى أن أصنعا ؟

ومنه فى الوصف والغزل الرقيق : —

من سحر عينيك الأمانَ الأمان قتلت رب السيف والطيلسان
أسمر كالرمح له مقـــلة لو لم تكن كحلاء كانت سنـان
يزداد ، إن أشكُ له ، قسوة ولو شكوت الحب للصخر لان
ساقٍ سَهَا رضوان عن حفظه ففر من جمـــلة حور الجنـان
بدر ، وكأس الراح شمس الضحا لِلهِ ما أسـعدَ هذا القران

ومن كلام (ابن مطروح) فى الغزل :

وما أنس لا أنس المليحة إذ بدت دُجًى ، فأضاء الأفق من كل موضع
فحدثت نفسى أنها الشمس أشرقت وأنى قد أوتيت آية (يوشَع)

وأما شعر (البهاء زهير) فشائع مأثور ، على أننا نروى له المقطوعة الآتية، وقد قالها فى الحنين إلى مصر وهو بعيد عنها فى بلاد الشام :

سقى واديا بين العريش فبرقَةٍ من الغيث هطّال الشآبيب هتّانُ
وحيا النسيم الرطب عنى إذا سرى هنالك أوطانا إذا قيل : أوطان
بلاد متى ما جئتها جئت جنةً لعينك منها كلما شئت رضوانُ
تمثــل لى الأشواق أن تُرابَها وحصباءها مسك يفوح وعِقيان
فيا ساكنى مصرٍ تُراكم علمتمُ بأنى مالى عنكم الدهرَ سلوان ؟
وما فى فؤادى موضع لسواكم ومن أين فيه ؟ وهو بالشوق ملآن

وهذه المقطوعة وحدها كافية فى الدلالة على رقة طبع (البهاء) وسلامة ذوقه وجزالة لفظه ، ومتانة شعره .

(٣) ومن حواضر الأدب مدينة (قوص) فى صعيد مصر ؛ روى (ياقوت الحموى) فى معجم البلدان أنها كانت كثيرة الأسواق ، ومحط الرحال ، وملتقى الحجاج ؛ إذ كانوا يسافرون منها إلى (القصير) ثم إلى الحجاز ، وإليها يعودون من الحج ، وكانت أعظم مدن الصعيد وقتئذ ، تنزل بها القوافل الواردة من بحر الهند والحبشة واليمن والحجاز ، وفيها كثير من الفنادق ، وبها كثير من أرباب الصناعات والفنون والتجار والعلماء ، بدأت فى ذلك العمران فى نهاية القرن الرابع الهجرى ، وكان بها ست مدارس (كما كان بإسنا مدرستان وبالأقصر مدرسة) وصارت بما فيها من المدارس ومن نزل بها من العلماء منبع العلم ومستراد الأدباء ، وعرفت مدارسها على وجه خاص بدراسة الحديث الشريف ، وفيها تخرج كثير من الأدباء كالبهاء زهير وابن مطروح ، وقد دامت لها هذه المنزلة دهرا طويلا ، وكان من أجلاء شيوخها الإمام الكبير (تقى الدين محمد بن الشيخ

محب الدين القشيرى) الذى انتهت إليه رياسة العلم فى زمنه ، وأصبح مقدماً فى معرفة علل الحديث ، منفردا بهذا العلم ، بارعاً فى العلوم النقلية والعقلية ، وهو صاحب كتاب (الامام) فى الحديث ، وشرح كتاب (العمدة) لابن رشيق القيراونى ، وشرح (العنوان) فى أصول الفقه ، وله مع ذلك شعر حسن ، ولما مات (عام ٧٠٢ هـ) رثاه (الشريف محمد بن محمد بن عيسى القوصى) بقصيدة منها:

سيطول بعدك فى الطلول وقوفى أروى الثرى من دمعى المذروف

لو كان يقبل فيك حتفُك فديةً لفُديت من علمائنا بألوف

(٤) وأما بلاد الأندلس فقد تعددت حواضر الأدب فيها بتعدد ممالكها ، وكثرة أمرائها . الذين يسمون بملوك الطوائف ، أولئك الذين غلبوا على البلاد وأظهروا أمرهم فيها بعد ضعف الدولة المروانية الثانية ؛ وما أشبه تلك الدويلات بتلك الممالك التى انسلخت من الدولة العباسية فى الشرق والغرب ؛ بتدخل الأتراك فى شؤونها واستبدادهم بخلفائها ، منذ عهد المعتصم ، فقد كانت قرطبة من أجل مراكز الأدب ، ثم انضم إليها (بَطَلْيَوْس) فى عهد دولة (بنى الأفطس) و (طُلَيْطلة) فى عهد دولة (اسماعيل بن ذى النون) و (سَرَقُسْطه) فى عهد دولة (بنى هود) و (أشبيلية) فى عهد (آل عباد) . و (بلنسيه) فى عهد (المنصور المعافرى) .

وكما كان التنافس شديدا فى الشرق بين الممالك الناشئة ، كان على أشده بين أمراء ملوك الطوائف ، فلا عجب أن صارت بلاد الأندلس كلها وقتاً ما حاضرة ضخمة للعلم والأدب ، ولا غرو أن ينبغ فيها أولئك العلماء الأجلاء ، ذوو الأثر الخالد ، والصيت الذائع فى الشرق والغرب .

فمنهم الإمام (على بن احمد بن حزم الظاهرى) الفيلسوف المتوفى عام ٤٥٦ هـ وهو صاحب كتاب (الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل) وغيره من المؤلفات القيمة.

والإمام اللغوى البارع (أبو الحسن على بن اسماعيل) المعروف (بابن سيده) المتوفى (عام ٤٥٨ هـ) وحسبه أن يكون صاحب (المخصص) فى فقه اللغة ، وهو أمتع كتاب فى هذا الباب .

والامام الفيلسوف (القاضى أبو الوليد محمد بن احمد بن رشـد) القرطبى شيخ فلاسفة الأندلس، المتوفى عام (٥٩٥ هـ) وهو علم من أعلام الفلسفة: بل هو وارث (أرسطو) وشارح فلسفته. وله من المؤلفات كتاب (فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال)، وكتاب (تهافت التهافت) فى الرد على كتاب (تهافت الفلاسفة) للغزالى.

والامام النحوى الجليل (أبو عبد الله محمد جمال الدين الطائى الشافعى الجيانى) المتوفى بدمشق عام (٦٧٢هـ)، وقد نزح إلى المشرق بعد أن تلقى العلم (بجيان) على (أبى على الشلوبين وثابت ابن حيان) واستوطن دمشق، وكان إماما فى النحو والصرف والقراءات وعللها، وهو صاحب الألفية والكافية، والتسهيل ولامية الأفعال. وهى من المراجع الموثوق بها فى علمى النحو والصرف.

ولا بأس أن أورد هنا بعض ما قيل فيه من المراثى. تبيانا لمكانته فحسب؛ وسيرى القارىء فيه لونا من التكلف لا يخلو من طرافة. قال (شرف الدين الحصنى) فى رثائه:

يا شتات الأسماء والأفعال بعد موت بن مالك المفضال
وانحراف الحروف من بعد ضبط منه فى الانفصال والاتصال
مصدرا كان للعلوم بإذن الله (م) من غير شبهة ومحال
ألم قد عراه أسكن منه حركات كانت بغير اعتلال
صرفوه يا عُظْمَ ما فعلوه وهو عدل معرف بالجمال
يالسان الأعراب ياجامع الإعراب (م) يا مفهما لكل مقال
يا فريد الزمان فى النظم والنثر (م) وفى نقل مسندات العوالى
كم علوم بثثتها فى أناس علموا ما بثثت عند الزوال

وهذه الأبيات من قصيدة كلها على هذا النحو ومع ذلك يقول (الصلاح الصفدى) (١). ما رأيت مرثية فى نحوى أحسن من هذه!!

(١) راجع (بغية الوعاة) فى أخبار النحاة للسيوطى

وبعد فإن استقصاء أعلام الأدب فى الأندلس يحتاج إلى وقت طويل ، وبحث خاص ، وحسبنا الآن من شمسه المشرقة ذلك القبس المتألق ، وعلى الجملة كانت الأندلس تفيض بالعلم والعلماء ، وقد نزح كثير منهم بعد اضمحلال شأن العرب هنالك إلى القيروان ومصر والشام واتخذوها مستقرا ومقاما . فساعدوا على صون اللغة وضبطها .

ولقد كان للتنافس بين الشرق والغرب من جهة ، وبين ملوك الطوائف من جهة أخرى أكبر الأثر فى تلك النهضة العلمية ، التى انتجت هذه الثروة العلمية الأدبية الضخمة . ولقد كانت الأندلس سببا فى نشر الثقافة ببلاد أوربا ، فقد قصد أهل أوربا مدارس قرطبة وأشبيلية وطليطلة ، وتلقوا العلوم على علمائها ، ونقلوا إلى اللاتينية الفلسفة اليونانية ومؤلفات ابن سينا والرازى والمجسطى ، لبطليموس فى الرياضة السماوية وقد كثرت مكتبات الأندلس الحافلة ومدارسها المختلفة فى القرن الخامس . وقد حققوا أنه كان بالأندلس سبعون مكتبة عامة بها مواضع خاصة للنقل والمطالعة والترجمة ، ولقد أحرق أهل اسبانيا معظم هذه المكتبات ؛ والذى يرى فى مكتبة (الاسكوريال) الآن بالأندلس إنما هو صبابة من ذلك الخضم الهائل ، أبقى عليها الأسبانيون ونقلوها إلى مكتبتهم لما أفاقوا من غشيتهم ، وثابوا إلى رشدهم ، وهدأت فيهم سورة القمع ، وأشبعوا شهوة الانتقام .

وسيذكر المنصفون من علماء الغرب كيف أشرقت عليهم شموس المعارف من هاتيك البلاد . ويحسن فى هذا المقام أن أثبت عبارات نقلها الأساتذة الأجلاء مؤلفو (أدبيات اللغة العربية) عن مجلة المقتطف (المجلد الثالث رقم٧) ونصها :—

« ليقل لنا أهل أسبانيا أين الثمانون الف كتاب التى أمر كردينالهم (شميز) بحرقها فى ساحات (غرناطة) بُعَيد استظهارهم عليها فأحرقوها وهم لا يعلمون ما يعملون ، حتى أفنوا على ما قال مؤرخهم (رَبلس) ألف ألف وخمسة آلاف مجلد !! كلها خطتها أقلام العرب ! وليتهم يخبروننا كم من كتاب لعبت به نيرانهم بعد ذلك ؟ حتى لم يبقوا من معارف العرب ولم يذروا ؛ وما يقولون عن السفن الثلاث التى ظفروا بها مشحونة بالمجلدات العربية الضخمة وطالبة ديار سلطان

مراكش فسلبوها وألقوا كتبها فى قصر (الاسكوريال) سنة ١٦٧١ م (١٠٨٢هـ) حتى لعبت بها النيران فأكلت ثلاثة أرباعها ولم يستخلصوا منها إلا الربع الاخير حينما استفاقوا من غفلتهم ، وعلموا كبر جهالتهم ، ففوضوا إلى ميخائيل القصيرى الطرابلسى المارونى ترتيبها وكتابة أسمائها ، فكتب لهم ١٨٥١ كتابا منها ، فعلى ما فى هذه الكتب ـ وما بقى فى افريقية والمشرق ـ قصر أهل هذه الايام معارف العرب ، وحتى هذه لم يستوعبوا جميع ما فيها .

واليك ما نقله أولئك الأساتذة الأجلاء عن مجلة المقتطف (المجلد الثالث وجه ٩١ ، ٩٢) : —

« فى القرون الوسطى قصد أهل أوربا مدارس الأندلسيين ، وكانت على غاية الاتقان ، وقرءوا العلم فيها ثم تزودوه منها إلى بلادهم ؛ ففى سنة ٨٧٣ م أمر (هرتموت) رئيس دير (مارى غالن) جماعة من رهبانه بدرس اللغة العربية لتحصيل معارفها ، وكان الرهبان البندكتيون يطلبون العلوم العربية بشوق لامزيد عليه ، وأشهر من تعلم العلم من العرب البابا (سلفستر الثانى) . . . دبت قدمه فى أرض الأندلس فرتع فى مدارس أشبيلية وقرطبة وصرف الى العلوم رغبته ، فلما ساغها هنيئا عاد إلى دياره وما زال يسمو على أقرانه حتى تنصب (بابا) فشاد للعلم مدرستين الأولى فى إيطاليا والثانية فى (ريمز) ، وأدخل إلى أوربا معارف العرب والأرقام الهندية التى نقلها عنهم ، ثم ثارت الحمية فى أهل إيطاليا وفرنسا وجرمانيا وانجلترا ؛ فطلبوا الأندلس من كل فج عميق ، وتناولوا المعارف من أهلها قال (مونتكلا) فى تاريخ العلوم الرياضية (ولم يقم من الأفرنج عالم بالرياضيات إلا كان علمه من العرب مدة قرون عديدة) فمن جملة من نقل عنهم المعارف من أهل إيطاليا (دوكريمونا) ، قرأ علم الهيئة والطب والفلسفة (بطليطلة) ، وترجم عنهم (المجسطى) ، وكتب الرازى والشيخ الرئيس إلى اللاتينية ، و(ليوندر البيزى) نقل عنهم الحساب والجبر ، و (أرنولد الفيلانوفى) نقل عنهم الهيئة والطبيعيات والطب » .

ثم ينقل الأساتذة الأجلاء أصحاب (أدبيات اللغة العربية)عن جريدةمدرسة ادنبرج الكلية هذه العبارة :

« انا لمدينون للعرب كثيرا ، ولو قال غيرنا خلاف ذلك ؛ فأنهم الحلقة التى وصلت مدنية أوربا قديما بمدنيتها حديثا ، وبنجاحهم وسمو همتهم ، تحرك أهل أوربا إلى إحراز المعارف ، واستفاقوا من نومهم العميق فى العصور المظلمة ، ونحن لهم مدينون أيضا ، بترقية العلوم الطبيعية ، والفنون الصادقة النافعة ، وكثير من المصنوعات والمخترعات التى نفعت اوربا كثيرا علما ومدنية » .

☆ ☆ ☆

بقى أن ألم إلمامة سريعة بحاضرتين من حواضر الأدب العربى ، كان لهما من وفرة الأدباء شأن لا يستهان به ، أعنى بهما (القيروان) و (صقلية) :

أما القيروان فقد نبه ذكرها بكثير من الشعراء :

فمنهم (ابن شرف القيروانى)المتوفى سنة ٤٦٠ ﻫ بالمرية من بلاد الأندلس ، وهو الذى يقول (وكان مغرما بالمحسنات البديعة) :

إن ترمك الغربة فى معشر قد أجمع الناس على بغضهم
فـدارهم مادمت فى دارهم وأرضهم مادمت فى أرضهم

ويقول فى وصف (عود) :

سقى الله أرضا أنبتت عودك الذى زكت منه اغصان وطابت مغارس
تغنى عليه الطير والعود أخضر وغنت عليه الغيد والعود يابس

ومنهم(أبو إسحاق ابراهيم بن على الحصرى)المتوفى سنة ٤٥٣ ﻫ الذى كانت داره منتدى شباب القيروان ، ينشدهم شعره ويتلقون عنه أدبه . وهو صاحب (زهر الآداب) الذى يعد من أمتع كتب الأدب ؛ لحسن تبويبه وجمال تقسيمه ، وما أودَعه من جيد المنظوم والمنثور .

ومنهم (أبو الحسن الحصرى) المتوفى سنة ٤٨٨ ﻫ ، كان أديبا شاعراً عالماً بالقراءات ، وله تلك القصيدة الذائعة الصيت ، الرقيقة اللفظ والمعنى ، وهى

التى مطلعها : —

يا ليل الصب متى غده   أطلوع الساعة موعده
رقد السمار فأرقه   أسف للبين يردده
فبكاه النجم ورق له   مما يرعاه ويرصده

* * *

يامن جحدت عيناه دمى   وعلى خديه تورده
خداك قد اعترفا بدمى   فعلام جفونك تجحده ؟

ولروعتها ورقتها عُنى بها الشعراء معارضة واقتباساً ، فمن عارضها المرحوم اسماعيل صبرى باشا بقصيدة منها : —

أقريب من دنف غده   فالليل تمرد أسوده
والتفت تحت عجاجته   بيض فى الحى تؤيده

وأمير الشعراء المرحوم شوقى بك بقصيدة منها : —

مضناك جفاه مرقده   وبكاه ورحّم عوده
حيران القلب معذبه   مقروح الجفن مسهّده

ومنهم (الحسن بن رشيق القيروانى) وهو أديب فاضل ، وشاعر مجيد ، ومؤلف بارع ، حسبه أن يكون من مؤلفاته كتاب (العمدة) فى صناعة الشعر ونقده . نشأ بالقيروان ، وظل بها حتى خربت ، فارتحل إلى صقلية ، ومات بها سنة ٤٥٦ هـ ، ومن جيد شعره :

فى الناس من لا يرتجى نفعه   إلا إذا مس بأضرار
كالعود لا تطمع فى طيبه   إلا إذا أحرق بالنار

وقوله : —

ومن حسنات الدهر عندى ليلة   من العمر لم تترك لأيامها ذنبا
خلونا بها ننفى القذى عن عيوننا   بلؤلؤة مملوءة ذهبا سكبا
وملنا لتقبيل الثغور ولثمها   كمثل جنوح الطير يلتقط الحبا

وأما (صقلية) فقد كانت حاضرتها (سرقوسة) حافلة بالشعراء الذين امتازوا

بدقة الوصف وبديع الخيال، ساعدهم على ذلك ما امتازت به جزيرتهم من جمال الطبيعة، وما فيها من مناظر خلابة، ومشاهد رائعة جذابة، ومن شعرائها : —

الشاعر المبدع (عبد الجبار بن حمديس الصقلى) نشأ بصقلية وتثقف فيها، وظل بها، حتى سقطت فى يد النرمانديين سنة ٤٧١ هـ فهجرها إلى الأندلس، واتخذ أشبيلية دارا، أيام صاحبها المعتمد بن عباد، ثم رحل إلى إفريقية ومدح الأمير يحيي بن تميم بن المعز الفاطمى، ثم قصد جزيرة (مَيُرْقة) وعاش فيها حتى أدركه الموت، سنه ٥٢٧ هـ ومن كلامه :

وليلة حالكة الإزار مدّت جناحا كسواد القار
تحجب عنا غرّة النهار عقرت فيها الهم بالعُقار
بجسم نور فيه روح نار فى مجلس ضم بنى الفخار
كهالة تضحك عن أقمار تزاحمت بأنجم درارى

ومن شعره فى الحنين إلى صقيلة : —

ذكرت صقلية والأسى يجدد فى النفس تذكارها
فان كنت أخرجت من جنة فانى أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكاء حسبت دموعى أنهارها

ومنه فى تعزية آل (عباد) أصحاب أشبيلية عن ملكهم لما نكبهم ملك المغرب يوسف بن تاشفين، وكانوا غرة فى جبين الزمان :

أتيأس من يوم يناقض أمسه وشهب الدرارى فى البروج تدور؟
ولما رحلتم بالندى فى أكفكم وقلقِلَ رضوى منكم وثبير
رفعت لسانى بالقيامة : قد دنت فهذى الجبال الراسيات تسير

ومن كلامه :

قم هاتها من كف ذات الوشاح فقد نعى الليل بشير الصباح
من قبل أن ترشف شمسُ الضحى ريقَ الغوادِى من ثغور الأقاح

وكان بصقلية كثير من العلماء؛ منهم على بن جعفر السعدى المعروف بابن القطاع، ذو التصانيف الممتعة فى النحو، مثل كتاب (الأفعال) الذى يعد من أحسن الكتب وأنفسها، وكان شاعرا رقيق الشعر، منسجم العبارة ومن كلامه:

ارفق بصب أتى ذليلا قد مزج اليأس بالرجاء
أنهكه فى الهوى التجنى فصار فى رقة الهواء

ومن كلامه أيضا: —

فلا تنفدنّ العمر فى طلب الصبا ولا تشقين يوما بسعدى ولا نعم
ولا تندبن أطلال ميّة باللوى ولا تَسجِمَنْ ماء الشؤون على رسم
فان قصارى المرء إدراك حاجة وتبقى مذمات الأحاديث والاثم

ومن أدباء صقلية وعلمائها الأعلام حجة الدين (محمد بن ظفر الصقلى) صاحب كتاب الينبوع فى تفسير القرآن الكريم، وشارح مقامات الحريرى، ومؤلف كتاب (سلوان المطاع فى عدوان الاتباع) ألفه لبعض قادة الجيش بصقلية، وقد تقلبت به الأحوال حتى أقام بمدينة (حماة) بالشام، ومات بها سنة ٥٦٥ هـ، وله شعر رقيق منه: —

حملتك فى قلبى فهل أنت عالم بأنك محمول وأنت مقيم؟
ألا إن شخصا فى فؤادى محله وأشتاقه، شخص على كريم

محمود المشيشى

حول إعجاز القرآن (١)

٣

دقة الألفاظ وانسجامها

بقلم السباعى بيومى
الأستاذ بدار العلوم

أما وقد كشفنا فى مقالنا الفائت عن ناحية من نواحى إعجاز القرآن الكريم هى «وضوح المعانى وائتلافها» فلنكشف فى هذا المقال عن ناحية أخرى؛ هى «دقة الألفاظ وانسجامها»، قاصدين بالدقة إحكام الاستعمال، وبالانسجام قصداً عاما يشمل مابين اللفظ واللفظ كما يشمل مابين اللفظ والمعنى؛ فللفظ فى تركيبه تماشق وانسجام إلى الالفاظ، كما له هذا إلى المعانى الجزئية له والعامة للتركيب. فأما الدقة فقد وضحت فى المفردات من حروف وأسماء وأفعال كما وضحت فى التراكيب. وأما الانسجام فقد كثرت له فى النوعين الأمثال. وهذا بعض ما يمكن فى ذلك أن يقال.

أولا — الدقة

(١) فى الحروف

من دقة القرآن فى استعمال الحروف مخالفته بين (فى) و(على) مخالفة يستدعيها السياق؛ من ذلك قوله تعالى «وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين» مختارا (على) للهدى؛ لأن صاحب الحق قوى ذو استعلاء، ومختارا (فى) للضلال؛ لأن صاحبه فاشل ضعيف، لايزال منغمسا فى حيرته. مترديا فى هوته؛ ولذلك قال سبحانه فى آية أخرى «تالله إنك لفى ضلالك القديم».

(١) راجع المقالين الأول والثانى فى العددين الأول والثانى من السنة الثانية من «صحيفة دار العلوم»

ومن أدق ما يلاحظ فى استعمال (على) أن العلو فيها قد يكون فى حال الضلال كما رأيته فى حال الهداية، ولكن على شرط أن يكون مضعفا لا مقويا، كما فى قوله تعالى «أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم؟»، فان من ركب وجهه يزداد ضلالا كمن ركب رأسه؛ ذاك لا يبصر وهذا لا يعقل. ولذا أتى فى الآية بكلمة «مكب» لتزيد الإضعاف قوة.

ولم تعدم (فى) أن يكون لها استعمال مناظر لهذا الاستعمال فى (على)؛ فتأتى معاكسة للأصل الذى كررناه، وذلك كما فى قوله تعالى «ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر» فالظاهر كان أن يقال: على البر والبحر، ولكن لما كانت الآية للمنة، وكان فى الحمل مظنة هلاك كانت (فى) أدل على ذلك من (على)؛ لأنها أكثر أشعارا بإحاطة الخوف منها.

ومن تلك الدقة فى الاستعمال أيضا مخالفته بين فى واللام فى المدخول عليه من مستحقى الزكاة الثمانية فى قوله تعالى «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله» فقد أدخل على الأربعة الأولى اللام، وخالف فخص الأربعة الثانية بفى، كى يشعر بتلك المخالفة أن الاستحقاق فى الأخيرين أقوى، وأنهم بالزكاة أولى، إذ هى معهم لنفع عام؛ فى حين هى مع الأولين لا تعدو النفع الخاص. وهنا دقيقة زائدة تلك أنه كرر (فى) تكريراً قرن بين الرقاب والغارمين، كما قرن بين سبيل الله وابن السبيل زيادة فى التوصية بهذين، وجمعا بين النظائر.

ومنها أيضا استخدام (عن) بدلا من (فى) حيث يقول: «الذين هم عن صلاتهم ساهون» رحمة بعباده؛ وتسهيلا، إذ لا يخلو (مصل من سهو فى صلاته) ولو عكس لما بقى لمصل صلاه، ولحق عليه الويل المهدد به قبل الآية هؤلاء؛ فالحيدة عن (فى) إلى (عن) فصرت هذا العذاب على تاركى الصلاة دون الساهين فيها، ومن هنا نفهم الحكمة فى قول ابن عباس رضى الله عنهما «الحمد لله الذى قال: «عن صلاتهم ساهون» ولم يقل: فى صلاتهم.

ومنها وهى كثيرة قوله تعالى «فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فليأتكم

برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا » فقد حول العطف من الفاء إلى الواو . حيث انقطع الترتيب الذى من أجله جاءت الفاء .

(٢) فى الأسماء

ومن دقته فى استعمال الأسماء ، العدول عن الصيغ العادية إلى صيغ المبالغة حيث يتطلب المعنى هذا العدول ، كقوله تعالى : « الحى القيوم » وقوله : «علام الغيوب » وقوله : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » وهو كثير جداً وليس فى حاجة إلى بيان وجه العدول ، ولا الى زيادة فى الاستشهاد

ومنها التفرقة بين المترادفين وتخصيص كل واحد منهما بموضع دون نظيره ، كاستعمال السبيل للخير ، والطريق للشر ، لاضافة الأول دون الثانى إلى الله ، مثال الأول قوله تعالى : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة » ومثال الثانى قوله تعالى : « إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً » ولذلك كان إذا استعمل الطريق فى الخير قرنه بما يفهم ذلك ، كقوله تعالى : « يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم » وإذا استعمل فى الشر لم يك هذا إلا على سبيل التناظر ، كقوله تعالى : « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » وهنا لطيفة ـ وإن لم تك من مبحثنا بل من مبحث الإفراد والتثنية والجمع وهو ذو مكانة فى القرآن ـ هى إفراد السبيل مضافا اليه سبحانه ، وجمعه قبل ذلك إشعاراً بأن الحق واحد والباطل متعدد . ومن هذا النوع أيضا استخدام السنة للشدة والجدب ، والعام للرخاء والخصب ، قال تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون » وقال : « ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » وذلك لما جرت عليه العرب فى استخدام السنة دون العام فى الجدب ، وإن كانت استخدمتها فى غير الجدب أيضاً

(٣) فى الأفعال

ومن دقته فى استعمال الأفعال ، التفرقة بين الماضى والمضارع فى بناء الجمل ؛ فمع أن الجملة الفعلية للتجدد والحدوث ، فانه يريد من ذلك فى الماضى مطلق الحدوث ، وفى المضارع تجدد الحصول ؛ انظر قوله تعالى على لسان ابراهيم : « الذى خلقنى فهو يهدين ،

والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، كيف أتى فى الخلق بالماضى لأنه مفروغ منه ، ثم أتى فيما بعده من الهداية والاطعام والسقى والشفاء بالمضارع لأنه متكرر . وفى هذه الآية من نواحى البلاغة غير هذا ، استخدام ضمير الفصل مع الأفعال المسندة إلى الله اذا كانت مظنة اشتراك ؛ كما فى يهدينى ويطعمنى ويشفينى ، وتركه إذا لم تك كذلك ، كما فى (خلقنى) ، وقد يقال : ولم أذن تركه مع (يشفينى) وهو مظنة اشتراك ؟ فنقول : إنه تركه معه اكتفاء به مع يطعمنى ، لأن كليهما بمثابة فعل واحد هو يغذينى ؛ وفيها غير هذين قيد الشفاء بحال المرض ، وترك مامعه من الأفعال لأنه لا يطلب إلا فى تلك الحال وهى عادية تطلب فى كل حال .

ومنها كما فى الأسماء التفرقة بين المترادفين ، كالخشية والخوف : فقد خص الأول بالخوف ينشأ من عظمة المخوف ، وجعل الثانى له يأتى من ضعف الخائف ؛ ولذلك يعبر عن الخوف من الله بالخشية ؛ قال سبحانه وهو شاهد للاثنين : « يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » وإذا استعمل الخوف مع الله مكان الخشية فلا بد أن تجد فى التركيب ما يكمل هذا النقص كقوله : (من فوقهم) فى الآية : «يخافون ربهم من فوقهم» . وكالمجىء والاتيان ، حيث يكون الأول للذوات والثانى للأحداث قال تعالى : « ولمن جاء به حمل بعير » وقال : « أتى أمر الله » . وكالمد فى المكروه والإمداد فى المحبوب ، قال : « ونمد له من العذاب مداً » ، وقال : « وأمددناهم بفاكهة » . وكالسقى لما لا كلفة فيه ، والاسقاء لما فيه كلفة ، قال تعالى : « وسقاهم ربهم شرابا طهورا » وقال : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً » ، وكالعمل لما فيه امتداد ، والفعل لما فيه عجلة ، قال تعالى : « يعملون له ما يشاء » ، وقال : « كيف فعل ربك بعاد » وكالتمام لازالة نقص فى الجوهر ، والكمال لازالته فى العرض ، وقد اجتمعا فى قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى » ، وكالإعطاء فى المندوب ، والإيتاء فى الواجب ؛ ولذا كان الأول مع الصدقة ، كما فى قوله : « فأما من أعطى واتقى » وكان الثانى مع الزكاة ، كما فى قوله : « وآتوا الزكاة » ، وهكذا

(٤) فى التراكيب

لعل من أظهر ما يذكر عن الدقة فى التراكيب بالقرآن الكريم ، مفاضلته بين الجمل من حيث الاسمية الموضوعة للثبوت والاستمرار ، والفعلية الموضوعة للتجدد والحدوث ، فى الاستعمال ، فقد بلغ فى ذلك أسمى بيان . قال تعالى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » فأتى فى إسناد هؤلاء الناس وهم المنافقون للايمان إلى أنفسهم بالفعلية ، وفى سلبه (سبحانه) له عنهم بالاسمية لأنهم كاذبون فى قولهم ؛ وما كان ليجعلهم يعبرون عن إيمانهم بالاسمية إلا مكابرة ومجاراة اذا قرعوا بالسؤال ، كما فى قوله : « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون » ولذلك رد عليهم سبحانه هذا الزعم بجملة اسمية مؤكداتها أقوى من مؤكدات جملتهم حيث يقول : « ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » . وعن هؤلاء المنافقين يقول جل شأنه : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون؛ الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » فيجعل قولهم للمؤمنين بالفعلية ؛ لأنه عن غير عقيدة ، ويجعله لشياطينهم بالاسمية المؤكدة ؛ لأنه يقينهم واعتقادهم ، وكذلك يجعله فى استهزائهم بالمؤمنين لأنه كذلك ، ثم لا يترك الآية حتى يستهزىء بهم بالاسمية كما استهزءوا ، ولكنه يأتى بها خلوا من التأكيد ، لأن كلامه (سبحانه) ليس محل شك وارتياب . وقال فى هذا المعرض أيضا : « وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به » فجعل إسنادهم الايمان الى أنفسهم بالفعلية وكذلك نسبة الكفر اليهم وهم داخلون ، لأن الأول عن غير حقيقة ، والثانى غير مشكوك فيه من المخاطبين أما خروجهم بالكفر فقد جعله بالاسمية ؛ إذ يجوز على المخاطبين أن يتوقعوا خروجهم مؤمنين . وقال عن إخوة يوسف : « قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ؟ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون » فأتى بالاسمية فيما هو محل اتهام لهم من أبيهم ، وبالفعلية فيما عداه

على هذا جرى القرآن ؛ ولذلك كان اذا أراد الاختصاص حول الكلام إلى الاسمية ، كما فى قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا ، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة إذا تمنى » وها هو ذا قد فعل فى استخدام

ضمير الفصل ماألمعنا اليه آنفا، من ذكره مع الفعل حين مظنة الاشتراك، وتركه إذا زالت تلك المظنة؛ على أنه قد يقال: وهل فى الإماتة والإحياء مظنة اشتراك حتى يترك الضمير؟ فنقول: إن تلك المظنة تتحقق فيهما على سبيل المجاز، بالقتل والعفو عن مستحقيه، بخلافها فى الخلق والإيجاد.

وكان القرآن اذا استدعى المقام بلوغ الغاية ليست بعدها فى قوة الجملة غاية، يأتى بها اسمية غير فعلية المسند، ولكن مع اشتماله على الحدث عن طريق الصفات: انظر قوله تعالى: « أفرأيتم ما تمنون. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون! » كيف أتى باسناد الخلق اليهم فعلا، واليه سبحانه اسما فى معنى الفعل؛ وكذلك فعل فى الآيات بعد، سائقا من المحاجة على سبيل الموازنات، ومعقبا كل موازنة منها بوجوه التفضيل مايدحض الخصم ويفحم اللدود؛ ولذلك ختمها بقوله: « فسبح باسم ربك العظيم » إشارة إلى أنه سبحانه لا يستحق التسبيحَ سواه.

ولفضل الجملة الاسمية على الفعلية قالوا فى قوله تعالى: « هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين، اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما، قال سلام قوم منكرون »: إن سلام الخليل أوكد من سلام الملائكة؛ لأنه مرفوع على الابتداء، وسلامهم منصوب على تقدير الفعل. وليس معنى قولهم أننا لو رفعنا السلامين يكون الكلام أبلغ، كلا، فان لكل سلام بحاله موطنا من البلاغة، إذ أن ابراهيم لما كان حيث هبط عليه الملائكة وجلا خائفا يقول (قوم منكرون)، ناسب أن يستشعر الحدث فى لحظة الخوف مطرّحا الدوام جانبا، وهذا يستدعى الاتيان بالسلام منصوبا بالفعل، لأنه أدل على الحدث من الاسم، أمّا هم فلما لم يتصور ابراهيم أنهم خائفون، أتى بسلامه مرفوعا على الابتداء، للدلالة على أن السلام ثابت لهم، وأنهم ليسوا فى حاجة منه إلى تجديد؛ هذا وفى الآية شيء زائد يحسن الالمام به، وهو أنها لما كان فيها تحية وردُّها، وكانت التحية مندوبة وردها واجبا، استنبط أن المصادر المرفوعة فى القرآن للوجوب، والمنصوبة للندب؛ فمن الأول قوله تعالى: « الطلاق مرتان: فامساك بمعروف أو تسريح باحسان »، ومن الثانى قوله « فاذا لقيتم الذين كفروا فضَرْبَ الرقاب »، ولهذا اختلف فى الوصية للزوجات، أواجبة هى أو مندوبة؟ لأن قوله تعالى: « وصية لأزواجهم » قرىء بالرفع والنصب

ثانيا – الانسجام

(١) انسجام اللفظ مع المعنى

كل ما تقدم فى دقة الاستعمال، صالح أن يكون أمثلة لانسجام اللفظ مع المعنى الخاص به؛ ولكننا هنا نقصد انسجامه مع المعنى الكلى للسياق، فترى التركيب كله يكون جزلا حيث يكون المعنى فخما، وتراه رقيقا حيث يكون المعنى عذباً، ولكلٍّ مواطن؛ فمن مواطن الأول مقامات الأوامر والنواهى، والتذكير بالميعاد، وضرب المثلات بمن خالف وعصى للعظات؛ ومن مواطن الثانى مقامات الترغيب والتبشير والملاطفة والاستعطاف؛ وأمثلة النوعين كثيرة فى القرآن

قال تعالى فى موطن الجزالة: «ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله، ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون؛ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون، ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون» وقال: «ويوم نُسيِّر الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا، وعرضوا على ربك صفا: لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة. بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا. ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها! ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا»

وقال فى موطن الرقة «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون؛ نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم» وقال «ذكر رحمة ربك عبده زكريا، اذ نادى ربه نداء خفيا، قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا، ولم أكن بدعائك رب شقيا، وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا، يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً» ومن السور التى تهول جزالة وفخامة سورتا العاديات والقارعة كما أن من السور التى تذوب رقة وعذوبة سورتا الضحى والشرح -

(٢) انسجام اللفظ مع اللفظ

لم يقف الانسجام من القرآن عند حد ائتلاف الألفاظ بالمعانى ، بل تعداه الى ائتلاف اللفظ باللفظ ؛ فكان يقرن الغريب بالغريب ، والمتداول بالمتداول؛ رعاية للمناسبة وحسن الجوار : فمن أمثلة الأول قوله تعالى : « قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين » لأنه وقد أتى بالتاء القريبة فى القسم بالنظر إلى الباء والواو ، أتى بالفعل (تفتأ) وهو أغرب من (تزال) ، وأتى بكلمة (الحرض) وهى أغرب من العاجز ؛ ليتم الائتلاف اللفظى . ومن الثانى قوله تعالى : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » فانه لما كان الركون إلى الظالم فيه ميل دون مشاركة ، أتى بالمس الذى هو دون الاحراق ، وكلاهما من المتداول . ومعظم القرآن من هذا السهل المتداول الذى ما كان يخرج عليه جملة إلا اذا استدعى المعنى الكلى هذا الخروج ، كما كان لا يخرج عليه ببعض الألفاظ إلا إذا كان غرضه الاتيان بلفظة بارزة تنزل من كلمات التركيب منزلة الواسطة من حبات العقد ، إبرازا لمعناها فى تلك الصورة بعينها ، مثال ذلك : (حصحص) فى قوله تعالى : « الآن حصحص الحق » ، و (كبكب) فى قوله : « فكبكبوا فيها هم والغاوون » و (ضيزى) فى قوله : « تلك اذن قسمة ضيزى »

ومن انسجام اللفظ مع اللفظ فى القرآن ، أن يأتى بالجمل متلاصقة ذات تساو فى الزنة ، وصلة فى المعانى ، مع الصلاحية للانفصال ، كقوله تعالى : « يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، ويخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى » وكقوله : « الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » وكذلك كان يأتى بالمفردات ، كقوله تعالى : « مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا » وكقوله : « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله » .

(٣) موسيقية اللفظ

ولقد جاء القرآن الكريم لهذا الانسجام البالغ موسيقى الألفاظ ، حتى لنرى الحروف فى الكلمات ، والكلمات فى الجمل ، والجمل فى الآيات ، يتحدر بعضها وراء

بعض حين النطق تحدر الماء المنهمر من الحزون الى السهول؛ ومن ثم سهل حفظه وترداده على الأحداث؛ وإن من أنصع الأدلة على موسيقيته، مجىء كثير من آياته على موازين الشعر مع أن الشعر غير مقصود فيه؛ إنما جاء كذلك من قوة انسجامه وشدة تعاشعه، كألحان الموسيقى لا تزال يوازن بعضها بعضا حتى تكون كلا منسجم الوقع حسن الرنين؛ وبهذا تسنى لكثير من رجال العروض أن يودعوا ضوابط البحور أبياتا من الشعر.في كل بيت شطر من آى القرآن الكريم على تفاعيل البحر الذى من أجله سيق، مختلفين فى اختيار الآيات لكثرتها فى القرآن.

فللطويل «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»، وللمديد «تلك آيات الكتاب الحكيم».

وللبسيط «فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم»، وللوافر «إذا مروا بهم يتغامزونَ» وللكامل «إن الذين يبايعونك إنما»، وللهزج «وقالوا حسبنا اللهُ» وللرجز «اذهب إلى فرعون إنه طغى»، وللرمل «ولقد راودتُه عن نفسهِ» وللسريع «يأيها الناس اتقوا ربكم»، وللمنسرح «هو الذى أنزل السكينة فى» وللخفيف «ربنا اصرف عنا عذاب جهنم»، وللمضارع «ألم يأتكم نذيرُ» وللمقتضب «كلما أضاء لهم»، وللمجتث «وهو العلى العظيم» وللمتقارب «وإن يستغيثوا يغاثوا بماء»، وللمتدارك «إنا أعطيناك الكوثر» ولمخلع البسيط «وقودها الناس والحجارة»

ولم يك اقتصار هؤلاء على الأشطار ناشئا عن عدم وجود البيت كاملا فى القرآن، بل لأن حاجتهم فى الضبط تقضى بمجىء العجز وحده، لأنهم يودعون الصدر تفاعيل البيت، ولو أرادوا لفعلوا، فمن الآيات الموازنة لأوزان البحور قوله تعالى على وزن الوافر: «ويخزهمُ وينصركم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنينَ» وقوله على وزن الرمل «وجفان كالجواب وقدور راسيات» وهكذا

وجماع القول أنه قد اجتمع لآى القرآن الكريم من المزايا فى المعانى والألفاظ ما علا به سائر الكلام علوًّا استأثر فيه بمعجزة الاعجاز؟

السباعى بيومى

أثر الجوارى فى الأدب (١)

بقلم عبد اللطيف المغربى

المدرس بمعهد التربية للبنات

٢

ترامى بنا القول فى مقالنا الذاهب، إلى الغاية السامية التى بلغتها الجوارى بالنهضة الغنائية فى أزهى عصور الاسلام. ونريد اليوم أن نطلع على قراء هذه الصحيفة الكرام من مطلع آخر، وضاء الأنوار، مختلف الثمار، بهيج الألوان، عذب المنهل، عبق الأريج، رقراق الأنداء، متجاوب الأصداء؛ ذلك هو أثر الجوارى فى الأدب العربى.

ولم يكن بدعا أن يكون لهن حميد الأثر فى الأدب، كما كان لهن حميده فى الغناء؛ فالأدب والغناء غصنا دوحة فتية، وكلاهما متمم للآخر مقوم له.

ومتى رأيت نهضة غنائية، فالتمس أن يكون من أمتن دعائمها وأغزر مواردها وأصدق طيوفها وأقوى أرواحها (الأدب). سنن متبع، وعرف مألوف، وثمرة طبعية. ومن حاول فصل الغناء عن الأدب فهو كمن يحاول أن يحول بين الزهرة وشذاها، أو النفس ومناها. فالمغنى فى إيقاعه ونظم ألحانه، شاعر فى أفق الأدب العالى، حر القافية والروى، ينظم ما أراد من شجون النفس وأهوائها وخلجاتها وأمانيها، فى نسق من الألحان كأسلوب البيان، بعيد التأثير، شديد الأسر، روحى المدخل، سحرى المأخذ، يفوق أسلوب الشعر المقفى الموزون روعة وانسجاماً، ويفرعه حسناً وسحراً. ولهذا قالوا إن الموسيقى ضرب من التأثير لم تقو الطبيعة على استخراجه بالبيان، فاستخرجته بالألحان.

---

(١) راجع المقال الأول فى العدد الثانى من السنة الثانية لصحيفة دار العلوم

فالموسيقى أروع من الشعر ، والمغنى فى لحنه أشجى من الشاعر فى شعره

وحسبك بياناً لهذا أن الشعر يظل خامداً حائراً لا يجد سبيله إلى الآذان والقلوب ، حتى ترفعه الموسيقى على أجنحتها الرقيقة ، وترقصه بإيقاعها الحسن المطرب ؛ فإذا هو إلى كل أذن مقرب ، وإلى كل قلب محبب

وقد يكون المغنى شاعراً بالمعنى الاصطلاحى ، يقرض الشعر ، لما بين الفنين من نسب وارتباط ؛ ولهذا صار كثير من المغنين والقيان شعراء وشواعر ، ولا غرو أن يُحكم رجل الفن البارع به كلَّ الصلات التى تلائمه وتغذيه وتسمو به فى عالم الابداع والاجادة . وأحقها بالتقدمة (الشعر) قرضاً ورواية . ونحن إذا عمدنا لأثر الجوارى فى الأدب لم نكن نعنى به قرضهن الشعر فحسب كأول بادرة تعلق بالذهن من هذا العنوان، بل نرمى إلى نواح عدة كانت النفس جياشة بالرغبة فى كل منها بمقال خاص . ولكنا آثرنا أن نضرب حولها نطاقاً من الاختصار . ونسوقها قريبة المنال سهلة الايراد ، لتكون بالفائدة أعجل ، وإلى النفس أحب .

كان من أثر الجوارى فى الأدب ، قرضهن الشعر فى أغراضه المختلفة ، من مدح ، وهجاء ، ورثاء ، وغزل ، وعتاب ، ووصف . لأن إعدادهن لتلك الحياة العربية الرائعة الفخمة ، نبه فى كثير منهن ملكة قرض الشعر ، لحسن استعدادهن الفطرى ، وكثرة ما روين من الأشعار الكثيرة فى الأغراض المختلفة .

فظهرت منهن شواعر نوابغ نذكر لك شيئاً من ثمار قرائحهن .

هذه فضل الشاعرة لما دخلت على المتوكل قال لها : أشاعرة أنت ؟ قالت : كذا زعم الذى باعنى واشترانى . فضحك . وقال : أنشدينا شيئاً من شعرك . فقالت :

استقبل الملكَ إمامُ الهدى عامَ ثلاثٍ وثلاثينا
خلافة أفضت إلى جعفر وهو ابن سبع بعد عشرينا
إنا لنرجو يا إمام الهدى أن تملك الناس ثمانينا

لا قدس الله أمرأً لم يقل عند دعائى لك : آمينا

وهو شعر فاتر لم يبلغ حد الجودة ، ويشبه فى بعض نواحيه شعر المتون . واستحسان المتوكل له لم يكن ثمرة جودة ، بل لأنه قيل فى مدحه وأراد تشجيعها .

وهذه محبوبة جارية المتوكل الأمينة الوفية ، تصدف عن زهرة الدنيا بعد قتله وتقيم على الحداد، وفاء لسيدها وزهدا فى الدنيا بعده . وتنشد فى رثائه حين أكرهت على الغناء فى مجلس أعدائه قولها :

أى عيش يطيب لى لا أرى فيه جعفرا
كل من كان ذا هيا (م) م وحزن فقد برا
غير محبوبه التى لو ترى الموت يشترى
لاشترته بملكها كل هذا لتقبرا
إن موت الكئيب أصـ (م) لح من أن يعمرا

وترى فى هذا الشعر لوناً صادقاً من العاطفة والنبل يرفعه عن سابقه بعض الشىء . ونكتفى بهذا القدر من أنواع الشعر العامة ، فان فى استيفائها حرجاً .

ومن تأثيرهن فى الأدب ،ذلك النوع الحسن من المحاورات والاجازات الشعرية ، مما تدفع إليه الحاجة الطارئة ، والضرورة الحافزة . وفى الحق أن هذا باب جليل من أبواب الأدب، برزت فيه الجوارى وفقن فيه أحيانا كثيرا من صناديد الشعر ورجالاته .

وإنا لمسمعوك شيئا من هذا القبيل يثير إعجابك وطربك .

كان محمد بن عيسى الجعفرى يهوى جارية ، فقال لصديق له : لقد شغلتنى هذه عن صنعتى وكل أمرى ، وقد وجدت مسَّ السلوان على كبدى ، فاذهب بنا حتى أكاشفها بذلك فأستريح . فلما جاءاها قال لها محمد بن عيسى : أتغنين ؟

وكنت أحبكمْ فسلوت عنكمْ عليكمْ فى ديارِكمُ السلامُ

فقالت : لا ، ولكنى أغنى :

تحمل أهلها عنها فبانوا على آثار من ذهب العَفَاء

فاستحيا وأطرق ساعة ثم قال : أتغنين ؟

وأخضع بالعتبى إذا كنتُ مذنبا وإن أذنبتْ كنتُ الذى أتنصلُ

قالت : نعم ، وأغنى أحسن منه :

فإن تُـقبلوا بالود نُـقبلْ بمثله ونُـنزلـكم منا بأقرب منزل

فتقاطعا فى بيتين ، وتواصلا فى بيتين . وهى محاورة بديعة إلى أبعد غاية ، تريك حسن التمثل بالشعر ووضعه فى مناسباته الطريفة ، على حين أنها وليدة الفجاءة والبديهة ، وتشير من ناحية أخرى إلى ما كان عليه هؤلاء الجوارى من مقدرة فائقة . وبعد هذه نتلو عليك صورة من صور الإجازات الشعرية وهى كثيرة .

قال بكر بن حماد الباهلىّ : لما انتهى إلىّ خبر « عنان » جارية الناطِفىّ ، وأنها ذكرت لهرون الرشيد ، وأنها أشعر الناس ؛ خرجت معترضا لها . فما راعنى إلا الناطِفىّ مولاها . فقال لى . هل لك فيما سنح من طعام وشراب ، ومجالسة عنان ؟ فقلت ما بعد عنان مطلب . ومضينا حتى أتينا منزله . ثم دخل فقال : هذا بكر شاعر باهلة يريد مجالستك اليوم . فقالت لا ، والله إنى لكسلانة . فحمل عليها بالسوط وقال لى ادخل . ودمعها يتحدر كالجمان . فقلت أجيزى

هذى عنان أسبلت دمعها كالدُّرّ إذ ينسل من خيطهِ

فقالت :

فليت من يضربها ظالما تجفُّ كفّاه على سوطه

ثم أنشدتها :

فمازال يشكو الحبّ حتى حَسبْته تنفس فى أحشائه فتكلما

فقالت :

ويبكى فأبكى رحمة لبكائهِ إذا ما بكى دمعا بكيتُ له دما

فقلت لها : فما عندك فى إجازة هذا البيت ؟

بديعُ حُسْن بديعُ صَدّ جعلتُ خدّى له مَلاذا

فأطرقت ساعة ثم قالت :

فعاتبوهُ فعنفوهُ فأوعدوه فكان ماذا ؟

وأنت إذا قدّرت الزمن الذى قيلت فيه هذه الإجازة ، أصبحت فى غنى عن التعليق عليها والاعجاب بقدرة (عنان) والثناء عليها فى موقف كهذا قد يعجز أنبغ الشعراء .

ومن تأثير الجوارى فى الأدب أيضا أنهن أصبحن منبعا خصبا للروايات الموضوعة التى تموج بها كتب الأدب ، وتشعرك لأول وهلة بكذبها وانتحالها ؛ ونسوق إليك صورة من هذه الروايات توضح ما نقول :

قالوا إن الهادى كان له جارية تسمى « غادر » ، وقعت من نفسه موقعا حسنا وكان يخشى أن تصير إلى أخيه هرون من بعده . فأخذ عليها أغلظ الأيمان ألاّ تكون له ، فلما مات الهادى صارت إلى هرون ، ونالت عنده مكانة حسنة . وفى بعض الليالى رأت وهى نائمة الهادى . فقامت مذعورة وجلة ؛ فقال لها هرون : ما بالك ؟ قالت رأيت الهادى الآن ينشدنى :

أخلفتِ عهدى بعدما جاورتُ سكان المقابر
وصحبتِ غادرةً أخى صدق الذى سماك غادر
لا يهنكِ الإلفُ الجديـ ـد ولا تَدر عنكِ الدوائر
ولحقتِنى قبل الصبا ح وصرتِ حيث غدوت صائر

ثم وَلى عنى . فقال لها هرون : هذه أحلام الشيطان . قالت : كلاّ والله يا أمير المؤمنين . ثم اضطربت بين يديه وماتت لساعتها ! ونحن بلا ريب نحكم بزيف هذه الرواية وانتحالها ؛ إذ ليس من المعقول أن يورد الميت عتابه فى صورة شعرية وهو فى عالم آخر بعيد عن الزخرف والصناعة ، وأن يحفظ الحىّ النائم هذا الشعر وهو أكثر مما ذكرت ، ويؤديه على هذه الصورة لا يخرم منه حرفا ؛ على حين أننا نرى فى المنام صورة معنوية ، وإذا استيقظنا لا يمكننا فى كثير من الأحايين ربط أجزائها ولا الالمام بكنهها . وقد أرادوا بعد ذلك أن يتموا القصة ويربطوا نتيجتها بما تضمنه الشعر ؛ فذكروا أنها اضطربت وقضت لساعتها بين

يدى هرون ! والوضع فى الرواية حول الجوارى أفاد الأدب بلا مراء ثروة ضخمة .

ولكن أغيظ ما يؤلمنا من هذه الروايات ، تلك الصور الملحة فى الإسفاف والتى طوقوا بها سير كثير من خلفاء الاسلام ، فصوروهم فى مواقف يغضب لها الأنف العيوف إذا نسبت إلى رجل من أوساط الناس ؛ فكيف بها إذا نسبت إلى خلفاء الاسلام ؟ وإن من يقرأ ما يرويه كتاب الأغانى من هذه الروايات الذميمة المنسوبة إلى هرون الرشيد ، ذلك الامام الذى كان أحفظ الناس لتراث آبائه وأجداده . من الشمم والاباء وبعد الهمة والترفع عن الدنايا ليدهش ؛ فجزى الله أمثال هؤلاء الوضاعين بما صنعوا ما يستحقون من جزاء .

ومن تأثيرهن فى الأدب أيضا إثارة ميول الشعراء نحوهن ، حتى أقبلوا عليهن بأشعارهم المختلفة ، من غزل وعتاب واستعطاف وغيرها . ومن الشعراء الذين لهم صيت ذائع فى هذا الباب ، الأحوص فى العصر الاسلامى ، وأبو العتاهية ، وأبو نواس ، والعباس بن الأحنف فى العصر العباسى ، وغير هؤلاء كثير يضيق المقام عن سرد أسمائهم . ولا ريب أن هؤلاء الشعراء أهدوا إلى الأدب العربى بتأثير عاطفة الميل إلى الجوارى كثيرا من الثمار الأدبية التى يزهى بها الأدب ويفخر ؛ ونجد صورا صادقة لمواقف هؤلاء الشعراء فى كتاب الأغانى وبعض كتب الأدب ، فلا داعى إلى إيراد شىء منها

ومن ألوان تأثيرهن فى الأدب نشر الفكاهة والمجون فى الجو العربى ، وأخذهن بطرق خاصة فى الملابس والعادات ، وكتابتهن على الأقمصة والأكمام والقلانس والعصائب ومشاد الطرر والذوائب والمناديل ـ ما يؤثر من الأشعار العذبة الرقيقة المثيرة للاحساس والشعور .

ونذكر لك شيئا من عفيف ما كان يكتب :

كتبت جارية على رداء لها

أراهم يأمرون بقطع وصلى   مُريهم فى أحبتهم بذاكِ
فأن هم طاوعوك فطاوعيهم   وإن عاصوك فاعصى من عصاك

وكتبت نشوان جارية زلزل على عصابتها

عين مسهدة فى مائها غرقت ياليتها ذهبت لولم تكن خلقت
لم تذهب النفس إلا عند لحظتها ولا بكت بدم إلا لما أرقت

وكتبت جارية على منديل

أنا مبعوث إليكِ أُنْسُ مولاتى لديك
صَنَعَتْنى بيـــديها فامسحى بى شفتيك

إلى آخر ذلك مما يطول بنا استقراؤه ، ويثير الشعور والوجدان ، وينمى الذوق ، ويصور كثيرا من الملح والفكاهات المستعذبة .

وبعد أن أوردنا ما سبق نرجو أن نكون قد وفقنا إلى جمع شتات هذا الموضوع ، وقدمناه باقة حسناء منتظمة الأزاهير إلى قراء هذه الصحيفة الكرام بعد طول الجهد والعناء فى ضم الأشباه إلى الأشباه ، والنظائر إلى النظائر : فجاء هـذا البحث ذا وحدة مؤتلفة الأجزاء ؛ وقد كانت عناصره من قبل منثورة فى كتب الأدب على غير نظام ، ولعلنا بذلك أيضا نكون قد رفعنا ستار النسيان عن جهة مهملة من جهات الأدب القوى الخصب ، لم تعتورها أقلام الكتاب باستيفاء واستقصاء ؛ فأخرجناها للناس باسمة وضاءة ؟

عبد اللطيف المغربى

الأدب ... ما هو ؟

بقلم أحمد الشايب

المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

١

قد يكون من الغريب ، بعد هذا التاريخ الأدبى الطويل ، وفى هذه النهضة الأدبية الحديثة ، أن نعرض للتعريف بالأدب أو نحتاج إلى تحديده من جديد بعد ما قال فيه السابقون ما قالوا ، وتناقش حوله المعاصرون منذ عهد قريب . حقا قد يبدو ذلك غريبا أول الأمر ، ويحمل الناس على التبرم بالباحثين ، فيسألون أنفسهم : ما ذا يعنينا من هذه التعاريف ما دمنا نقرأ النظم والنثر ، ونظفر منهما بهذه اللذة العقلية والشعورية ؟ أليست هذه الحدود أنواعا من عبث العلماء أولا ، ومن تعقبهم الأدباء ثانياً تعقبا يدل على فراغ وفضول ؟

أجل ، لست أنكر أن الأدب هو الشعر والنثر ، ولست أنكر أن أكثر الناس يكتفون بهذا القدر من تعريف الأدب وتصوره ، ولكن هذا نفسه هو الذى يدعونى إلى القول فى تحديد الأدب وبيان طبيعته وما يفرقه من العلم ويصله بالفن ، وبالفن الرفيع خاصة ، فلقد انقضت فيما أعلم هذه الفترة التى كان الناس يكتفون فيها بالثقافة العامة ، ويقنعون بتصور الأشياء تصورا إجماليا ، وولدت عندهم الحاجة إلى الرقى ميلا إلى التعمق فى فهم الأمور وبحثها ليصلوا إلى تعرف طبيعتها وخواصها ، وما عسى أن يصلها بالحياة الاجتماعية مؤثرة أو متأثرة .

هذا شىء ، وشىء آخر يحملنى على هذا التحديد الأدبى أو محاولته ، ذلك أن كلا من الأدباء المنشئين والنقاد ، كثيرا ما يختلفون حول نص من النصوص :

أهو أدب حقا؟ وفى أى نوع من الأنواع أو درجة من درجات الأدب يمكننا أن نضعه؟ وأخيرا ماالمقاييس النقدية التى تتحكم فى نقد هذا النص وبيان قيمته؟... وأمر ثالث يحملنا على تقريب هـذه الصورة الأدبية إلى الأذهان، فلو سألت شخصا عن تعريف الأدب، وأجابك بأنه مأثور الشعر والنثر، ثم سألته: لم أُثِرَ هذا الشعر وذاك النثر.. اضطرب، وأتى بكلام عام، غير محدود، وغير خاضع لنظام على مفهوم،... وعلى أية حال فانى أشعر بحاجة هؤلاء الناشئين من الأدباء والنقاد إلى إيضاح طبيعية الأدب وعناصره، وسأحاول فى هذا البحث أن أقرب إلى الأذهان ماذا يراد بكلمة (أدب)، معتمدا فى ذلك على أهم ما قاله السابقون والمحدثون، ثم على تحليل النص الأدبى وتفهم روحه وخواصه، غير أنى أرجو من القراء أن يصبروا على قليلا إذا شعروا بالاطالة، فلعل الموضوع نفسه يستحق منهم صبرا طويلا.

— ١ —

ما الأدب؟

(١) سأترك الكلام فى اشتقاق الكلمة وأصلها الأول، وأتناولُها من قريب؛ فقد كانت تدل فى القرن الهجرى الأول على معنيين اثنين: أحدهما خلقى، والثانى تعليمى. ويستدل المؤرخون على هـذا المعنى الخلقى بالأثر المشهور: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» إذ المراد أنه نشّأهُ نشأة فاضلة تقوم على الصدق، والحلم، والصبر وغيرها من الفضائل الخلقية؛ ومن ذلك ما سَمى ابن المقفع كتابيه «الأدب الصغير» و «الأدب الكبير»، لاشتمالها على هذه الأصول والنظريات التى يصبح من تمسك بها أديبا، أى فاضلا ذا خلق كريم.

ولكن هذا المعنى الخلقى لايلائم تماما المعنى الذى نريد من كلمة أدب، حين نطلقها فى باب الفن أو النقد، بل ربما كان يناقضه، فليس من شك بين المتأدبين أن أهاجى جرير والفرزدق أدب، وأن خمريات وغزليات أبى نواس أدب، وأن ذلك النوع المكشوف من الآثار الغزلية أدب.. ولكنه مع ذلك مرفوض

فى باب الأخلاق الفاضلة لا ينطوى تحت المعنى الخلقى الذى أشرنا إليه ، فلنترك ذلك ، إذا ، ولنبحث فى غيره .

(٢) وأما المعنى الثانى فقد مرت عليه أطوار شتى فى تاريخ الأدب العربى انتهت به إلى هـذا التعريف الذى ذكره العلامة ابن خلدون فى مقدمته ، حيث قال فى فصل تحت عنوان علم (الأدب) مانصه : « ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا : الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل فن بطرف . »

ومن الواضح أن هـذا ليس تعريفا للأدب بمعنى هـذه النصوص التى ندرسها وننشئها شعرا ونثرا ، وإنمـا هو فى الواقع تعريف لمـا يسمى التأدب أو تحصيل الثقافة العامة اللازمة لإنشاء الأدب ، ولفهمه ، ونقده ، وأما الأدب بمعناه المراد هنا فليس تعريف ابن خلدون منه فى شىء ، وإن كان يتشبث به بعض المحدثين .

(٣) ويقول امرس Emerson الكاتب الأمريكى المعروف : « الأدب سجل لخير الأفكار » وهذا التعريف أو الوصف جامع غـير مانع كما يقول المناطقة ، فإنه يتناول الأدب وغيره ، أليست المسائل العلمية ، من هندسة وكيمياء ، معدودة من خير الأفكار ؟ ومع ذلك فلم يقل أحد إن الهندسة أو الـكيمياء أدب ، على أن هذا التعريف لم يشر إلى هذا العنصر اللفظى ، وكيف يجب أن يكون . . . فلنترك ذلك أيضا .

(٤) ويقول بروك Brooke : « الأدب هو أفكار الأذكياء وعواطفهم مدونة بأسلوب يلذ القارىء » وهذا التعريف خـير من سابقه ، لأنه أشار إلى جمال الأسلوب الأدبى ، ولـكنه لا يزال مبهما ؛ فهل يقبل الأدب جميع الأفكار والعواطف ، حتى الأفكار الهندسية والطبعية ، وحتى العواطف الشخصية ، والألمية ، والوضيعة ؟ أما الأفكار العلمية فلن تتراءى فى الأدب وتحتل مكانا ما وإن كانت تمسه من بعيد . وأما العواطف التى أشرنا إليها فهى موضع كلام كثير ، على أنها ليست من موضوع الأدب الرفيع على كل حال .

(٥) وهناك إجابة للأستاذ Sainte - Btave الـكاتب والناقد الفرنسى المشهور عن سؤال يتصل بسؤالنا اتصالا مباشرا : « ما الأديب ؟ » قال : « الأديب

هو الكاتب الذى يغنى العقل الانسانى، ويزيد ثروته، ويعينه على التقدم، وهو الذى يستكشف الحقائق الأدبية، ويزيل ما حولها من الشك والغموض، وينفذ إلى أعماق قلب الانسان فيستخرج منه العواطف الخالدة فى حين يظن الناس أن ليس هناك ما يكشف فى هذه المنطقة. وهو الذى يبرز أفكاره وحقائقه فى صورة دقيقة صحيحة جميلة معقولة، وهو الذى يخاطب الناس بأسلوب هو أسلوبه الخاص ولكنه أسلوب جميع القراء، أسلوب قديم وحديث معا، صالح لكل زمان ومكان».

وإن نحن أردنا استخلاص تعريف للأدب من كلام الأستاذ سانت بيف هذا، كان التعريف: «الأدب هو الأسلوب الصحيح الجميل الذى يصور الحقائق الأدبية، والعواطف الانسانية». وعندى أن هذا التعريف يعد مناسبا وإن كان أقرب إلى تمثيل الأدب فى أسمى درجاته حتى ليعده بعض النقاد مانعا غير جامع. وهناك كلام كثير لعلماء العرب ونقاد الغرب فى هذا الموضوع. لا يعدو أن يكون وصفا للأدب لا يمكن الاعتماد عليه فى بحثنا كثيرا. إلا أننا نشعر أن ما أوردناه مقتبسا من آثار الكتاب يكفى لاثبات حقيقة علمية هى صعوبة تعريف الأشياء فى دقة وكمال، لاختلاف الناس فى تصورها. وفيما يطلبون منها تحقيقه، متصلا بأعمالهم ومذاهبهم العلمية والفنية. على أننا مع ذلك رأينا تعريفين للأدب يقف عندهما المحدثون من النقاد: أحدهما أن الأدب مأثور الشعر والنثر، والثانى هو ما استخلصناه من كلام الأستاذ سانت بيف السابق الذكر.

— ٢ —

ولكنى لن أقف بالقارىء عند هذه الحدود التى انتهى إليها السابقون والمعاصرون من أبحاثهم الخاصة، وصارت بذلك ملكا لهم، وهم أقدر على فهمها وتصورها إذ كانت بذلك نتيجة تجاربهم ودراساتهم؛ بل لا يعنينى فى الواقع ذكر هذه الرموز اللفظية التى تكون ما يسمى بالتعاريف، بقدر ما يعنينى فهم طبيعة الأدب، وأسلوب تكوينه، وصلته بالنفس الانسانية... فمتى يسمى النص أدبا؟ لا يمكننا أن نعد المحادثة ولا الأخبار العادية أو الصحافية أدبا؛

وسبب ذلك أننا نقرؤها ثم ننصرف عنها ولا نعود إليها ثانيا ، إذ أن النص الأدبى يمتاز بتردد الناس على قراءته واعتباره متعة نفسية يحرص القارىء على الرجوع إليها كثيرا ليغذى فكره وشعوره ، ومعنى ذلك أن الأدب يمتاز بصفة الخلود . ولكن المسألة لا تزال فى حاجة إلى الإيضاح ، أليست كتب الهندسة والجبر والفلسفة تحتوى حقائق خالدة لا تبليها الأيام ؟ أليس يجد الانسان فيها دائما مادة يستعين بها فى شئونه الحيوية كلما أراد ؟ هذا حق لا شك فيه . . . ومع ذلك فلم يقل أحد إن كتب الهندسة والجبر من الأدب فى شىء . . . فكيف الخلاص ؟

حقا إن هذه الكتب تحوى حقائق خالدة ، ولكن الكتب نفسها ليست خالدة بهذا المعنى السابق الذى وصفنا به الأدب ، فمن الممكن أن تؤخذ هذه النظريات والمسائل العلمية الخالصة وتدون فى صور أخرى وأساليب عدة ينصرف إليها الناس مستغنين بها عن الكتب الأولى التى كثيرا ما تبلى وتنسى ، وهنا نرى أن الحقائق فى ذاتها خالدة ولكن الكتب تموت ، فَمَنْ منا اليوم يقرأ (إقليدس) فى الهندسة مثلا ليمتع نفسه أو حتى ليدرس النظريات الهندسية دراسة علمية ؟ ولكنْ كمْ مِنَّا اليوم من لا يزال ، وسيبقى دائما ، يقرأ امرأ القيس ، وزهيرا ، وجريرا وأبا نواس ، والمتنبى والمعرى ؟ ! والمتعلمون عامة يظفرون بكتب فى الجغرافيا والتاريخ والهندسة والطبيعة تنسخ ما قبلها من الكتب وتقضى عليها ما دامت الموضوعات واحدة والحقائق هى بعينها . وإذا ، فليس من الكتب الأدبية ذلك النوع المعرض للنسيان والنسخ بعد حين . والذى نفهمه من ذلك أن هناك ميزة أخرى تكسب ديوان الشعر ، أو القصيدة ، أو الرسالة أو الكتاب صفة الخلود التى نتشبث بها . . . تلك أن يكون الكتاب نفسه ذا قيمة خالدة ، فهناك فرق بين الحقيقة الخالدة التى هى موضوع الكتاب العلمى ، وبين القيمة الخالدة التى هى خاصة الكتب الأدبية .

ما هذه القيمة الخالدة التى تتصل بالكتاب الأدبى وتمنحه ميزة الخلود ؟ يقولون إنها شخصية الأديب ، فالنص الأدبى يمتاز بأنه يصور ذوق الشاعر

أو الكاتب ، ومزاجه ، وفكره ، وروحه ، وخلقه ، وخواصه المعنوية التى تفرقه من سواه ، ولا يمكن أن تجتمع فى شخص آخر بهذه النسب والقوى ؛ وبذلك نرى لكل أديب طابعا تمتاز به آثاره ولا يمكن الاستغناء بشعر شاعر عن شعر زميله حتى فى الموضوع الواحد رثاء أو وصفا أو عتابا فكل له ذوقه ، وأسلوبه ، وطعمه الذى يبعث فى نفس القارىء آثارا ممتازة لا غنى له عنها بسواها .

هذه الشخصية إذا . (Personality) هى التى تفرق الأدب من العلم وتكسبه صفة الخلود ، ولكننا نعود فنقول : ألسنا نظفر فى الآثار العلمية بشخصيات متباينة ، حين نقرأ كتب الفلسفة والقانون والطبيعة والكيمياء ، تمايز بطريقة التفكير ، والتعبير ، وأسلوب البرهنة والاثبات ؟ لا ننكر ذلك ولكننا نجد الشخصية الأدبية تمتاز بأمرين لا يتوافران فى هذه الشخصية العلمية ، أما أحدهما فهو جمال التعبير الأدبى ولذته ، وأما الثانى فهو أن الشخصية الأدبية تكون قوية واضحة ، وتكون عامة تصور نواحى النفس التى أشرنا إلى بعضها قبلا . فى حين أن الشخصية العلمية تقف عند الفكر ، ودقته . وأسلوبه المنطقى فى أغلب الأحيان . ونتيجة ذلك أن الأدب أدل على شخصية كاتبه من العلم . . .

كيف تكون القصيدة من الشعر أدل على الشاعر من المقالة العلمية على العالم ؟ إذا استطعنا الاجابة عن هذا السؤال ظفرنا بهذا العنصر الذى يكسب الأدب ميزته الخالدة ويميزه من سواه . . وذلك سهل يسير ؛ فاذا وازنا بين هذه المقالة العلمية التى لا نحسبها أدبا ، وبين القصيدة من الشعر ذات القيمة الخالدة ، وجدنا فى القصيدة شيئا لا نجده فى المقالة العلمية ، هو العاطفة Emotion ، فالقصيدة تقوم على العاطفة والمقالة تقوم على العقل ، وهنا نظفر بهذا السر الذى نبحث عنه منذ حين ، فهو الخاصة التى تنشأ عن العاطفة وتكسب الكلام ميزته الأدبية ، وقدرته على الخلود ، وتضعه فى مكان بعيد عن العلم ، وإذا بنا نرى كتبا علمية تغذى العقل وتسترعيه وكتبا أدبية تثير العواطف وتربى الذوق الجميل . ولكن المسألة لم تنته عند هذه النقطة ؛ فلا زلنا فى حاجة إلى أن نسأل : لماذا كانت هذه العاطفة سبب خلود الأدب ؟ وهنا نجدنا أمام إجابة من نوع التناقض الوهمى ، فمن الغريب أن

العاطفة تخلد الأدب لأنها هى ذاتها ليست خالدة ، وإنما تزول بسرعة ولا تبقى طويلا ، فأنا أقرأ البحث العلمى فى الهندسة والمنطق وأعيه بعقلى وأترك مصادره وقلما أعود إليه بعد ما أُضِيفَ إلى معارفى السابقة واتحد معها وصار جزءا من فكرى لا يكاد يزول ، ولكنى أقرأ — مثلا — مرثية المعرى المشهورة : —

غير مجدٍ فى مِلّتى واعتقادى نوح باكٍ ولا ترنُّم شــادِ

فتثير فى نفسى عاطفة الأسى والحزن على هذا الكون تحطمه الأقدار وتذهب بكائناته إلى غير عودة . وهذه العاطفة تشتد وتقوى حين قراءة القصيدة وعقبها ، ثم تأخذ فى الفتور فالذهاب حتى تزول بعد مدة ما ، ثم تدعونى الدواعى الفنية أو الحوادث الاجتماعية إلى إثارة هذه العاطفة فى نفسى لوفاة صديق فأعود إلى مرثية المعرى ذاتها فأقرؤها لأظفر بهذه اللذة النفسية عينها ، ثم تخبو العاطفة فأعود إلى مبعثها عند أبى العلاء فى نفس هذه القصيدة ، وهكذا دواليك . . . وهذا هو معنى أن زوال العاطفة سبب فى خلود الأدب وتردُّدِ الانسان على قراءته مرة بعد أخرى . ويجب أن يلاحظ أنى لا أستغنى عن مرثية المعرى بمرثية البحترى أو المتنبى أو أبى تمام أو ابن الرومى فكل له طعمه الخاص ، ومذهبه الأدبى ، وذوقه ، أو بعبارة مختصرة : كل له شخصيته الأدبية التى لا أجدها عند الآخر ، وفوق ذلك فقد لا أستغنى عن المعرى بالمعرى نفسه إذا ما كانت له فى كل مرثية خواص فنية وأسلوب ممتاز ، وذلك كثير الحدوث .

أفيكون من الغريب بعد ذلك أن نعد العاطفة أهم العناصر الأدبية ما دامت تميز الأدب من العلم أولا ، وتبعث فيه روح الخلد ثانيا . وتدل على شخصية الأديب ثالثا ؟ .

أو يكون من الغريب أن نعرف الأدب بأنه الكلام الجميل الذى يدل على شخصية صاحبه ، أو الكلام الجميل القائم على تصوير العاطفة ، أو الكلام الذى يمتاز بهذه القيمة الخالدة ؟

— ٣ —

وبعد فليس من سداد الرأى فى شىء أن نبالغ فى قيمة العاطفة ونهمل الحقيقة (Fact) وقيمتها الأدبية ، فالمفروض أن العاطفة هى العنصر أو الركن الأدبى الأول ، ولكنها لا تستطيع الحياة دون أن ترتكز على حقيقة من الحقائق الفلسفية أو الاجتماعية التى تعد الهيكل العظمى للأدب وسنده المتين ، وإلا فما الذى يحملنا على السخط حين نقرأ للمعرى قوله :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً   وحقّ لسكان البسيطة أن يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننا   زجاج ولكن لا يعاد له سبك

غير هذه الحقيقة الواقعة وهى أننا ألاعيب فى يد الأيام تعبث بنا ما شاءت وتفقدنا الحياة فلا نعود إليها ثانيا . ؟

فعاطفة السخط أو الحسرة على الخلق ، إنما قويت وحيّت لما ساعدتها حقيقة حيوية لا شك فيها ، فكانت الأصل الذى كسته العاطفة ثوبا ساخطا متبرما بدا لنا فى أسلوب موسيقى جميل ، فأثار فى نفوسنا سخطا يشبه ما فى نفس أبى العلاء ؛ وهكذا تتعاون الحقائق على خدمة الأدب والفن حتى لا يكون أحدهما فارغا سخيفا .

وهنا نجد فارقا بين الأدب وبين فن آخر يتصل به اتصالا قويا هو الموسيقى ، فالموسيقى الخالصة تتجه إلى العواطف مباشرة بهذه الألحان والأنغام فتثيرها ، ولكن الأدب يتجه إلى عواطفنا عن طريق العقل ؛ فيشبه النقش والتصوير والرسم من حيث أنها تجمع بين المعانى فى الحقيقة ، والخواص الفنية المؤثرة الجميلة ؛ وسأترك ذلك على أن أعود إليه فى بحث خاص حين أدرس الأدب وصلته بسائر الفنون الرفيعة ، وإنما أشرت هنا إلى ذلك ، لأصل منه إلى عنصر أدبى ثالث غير العاطفة والحقيقة ، وهو الخيال Imagination فإن الأدب يمتاز بقدرته على عرض الأشياء بأشكالها وألوانها كما يفعل الرسم والتصوير ، وهو بهذه الميزة يستطيع أن يثير العاطفة ، ويلهبها فى نفوس القراء . وأشير عليك أن تدرس قصيدة البحترى فى رثاء المتوكل :

مَحَلٌّ على (القاطول) أخلقَ دائرهُ وعادتْ صروفُ الدهرِ جيشا تغاورهْ

التى يقول فيها :

ولم أنسَ وحشَ القصرِ إذ ريع سربُه وإذ ذُعرت أطلاؤه وجآذرُهْ
وإذ صيحَ فيهِ بالرحيل فهُتِّكتْ على عجلٍ أستارُهُ وستائره

فانك تجد هذا الشاعر يسلك فى رثائه مسلكا بديعا فلا يأمرنا بالحزن أمرا . ولا يزعم هـذه المزاعم التهويلية بتعظيم الخطب والجاجلة الفارغة ، وإنمـا يأخذ بيدنا أو بعبارة أدق يأخذ بأبصارنا فيعرض علينا صورا حسية أليمـة من خراب القصر ، وتشتت ذويه ، ومن مهانة الخلافة ، وغدر الابن بأبيه ، إلى غير ذلك مما نراه ، فنغضب نحن لهذه المشاهد كما غضب لمـا رآها ، وهذا هو ما نسميه الخيال ، وهو عنصر يعد لغـة العاطفة وأصدق وسيلة لتصويرها بالنسبة للأديب ولإثارتها فى نفوس القراء .

كذلك المعرى عرض علينا مهزلة الحياة وجد الممات فى داليته المشهورة بصور متتابعة من عمل الخيال هى أصوات ، وأجسام ، وقبور ، ونجوم ، وغيرها حتى أبـكى الناس جميعا .

وأخيرا ، كيف أنقل صورة نفسى إلى غـيرى ؟ فى نفسى الحقيقة ، تسيطر عليها عاطفة ، يصورها خيال . . . فأنا للآن أديب صامت لا يعرفنى الناس ولا أؤثر فيمن حولى ، فلا بد إذا من وسيلة تصل بينى وبين غـيرى بنقل هذه العناصر النفسية وإذاعتها . . تلك هى العبارة Diction أو (نظم الكلام) كما يقول عبد القادر الجرجانى . والعبارة كما ترى وسيلة لا غاية ، ولـكنها لا تقل فى قيمتها عن سائر العناصر الأدبيـة ، لأن القدرة على إثارة العواطف — هـذه القدرة التى هى وظيفة الأدب — تتوقف إلى درجة بعيدة على جمال العبارة ، وتأليفها تأليفا يجعلها مرآة صافية أمينة لمـا فى نفس الأديب ، فـكثيرا ما تعق العبارة كاتبا مليئا بالأفكار ، جياشا بالعواطف ، وكثيرا ما تـكتسب المعانى العادية روعة أسلوبية تجعلها فى درجة رفيعة من درجات الأدب السامى . ولعلك لم تنس ما أوردته فى العـدد السابق من خلاف حول اللفظ والمعنى ، وكيف أن أبياتا

رائعة الأسلوب، عادية الأفكار، قد فازت بنصيب كبير من التقدير والإعجاب، وإن لم ينفرد اللفظ بالجمال الفنى كما أثبتنا ذلك فى موضعه.

وخلاصة هذا أننا نستطيع أن نحلل النص الأدبى إلى هذه العناصر الأربعة:

(١) العاطفة، وهى أهم العناصر وخصوصا فى أدب القوة الذى يمثله الشعر الغنائى تمثيلا واضحا، وقد تكون العاطعة فى درجة الحقائق فى مثل الخطابة والأبحاث النقدية والقصصية.

(٢) الخيال، وهو فى أكثر الأحيان يكون اللغةَ اللازمة لاثارة العاطفة كما رأيت فى مرثية البحترى، وكما هو الشأن فى فن الوصف.

(٣) الفكرة أو الحقيقة، وهى تعد عماد العاطفة وعونها على الخلود والسمو، وقد أصبح الأدب اللفظى الذى يخلو من الحقائق سخفا وعبثا لا يليق بالعقلاء غير أن الحقائق لا تذكرهنا جافة وإلا كانت الكتابة علما، بل تتوارى فى العاطفة وتقف خلفها شيئا ثانويا.

(٤) العبارة، وهى وسيلة لا تقل فى درجتها عن الغايات، بل يعدها بعض النقاد أهم الجميع إذ هى المعرض الأخير لسائر العناصر الأدبية.

— ٤ —

للأدب معنى عام بجانب هذا المعنى الخاص الذى ذكرنا فى هذه الصفحات، وبه يتناول جميع المعارف والعلوم التى تغذى النفس الانسانية وتقوى فيها مظاهر العقل، والوجدان، والارادة، وما أشبه هذا المعنى بما ذكره العلامة ابن خلدون فى تعريف الأدب وقد ذكرناه فى صدر هذا البحث. فحين يقول الناس: العلوم الأدبية أو الدراسة الأدبية العامة. إنما يقصدون بذلك كل ما من شأنه التثقيف النفسى المتصل بخدمة الحياة من ناحيتها الروحية. فالفلسفة أدب بهذا المعنى العام، والتاريخ أدب كذلك، ومثلهما الجغرافيا، والقانون، والدين، والفنون الرفيعة، وعلى هذا الأساس كان القسم الأدبى بالمدارس الثانوية والعالية منذ عهد قريب، وعليه قامت كلية الآداب بالجامعة المصرية وجمعت فى تكوينها بين هذه الأقسام المتشابهة فى دراساتها، التى تنتهى إلى غاية واحدة من

تنظيم التفكير الانسانى للوصول إلى الحقائق عن طريق الفلسفة ، ومن دراسة المظاهر العقلية والعاطفية فى التعبير فهى الأدب بمعناه الخاص ، ومن آثار العقل والشعور فى الحياة الاجتماعية فهى التاريخ ، ومن الصلة بين الانسان والطبيعة عن طريق الجغرافيا ، وهكذا نجد الدراسة القانونية تنظيما لحياة الانسان الاجتماعية ولصلاته مع بنى جنسه ، والدين ينظم الصلة بين الخالق والمخلوق . ويقابلها كلية العلوم التى تعنى بالدراسة الخاصة بجسم الحياة الانسانية وما يقومها تلحق بها كلية الطب والزراعة والاقتصاد فهى متعاونة على حفظ كيان الانسان من حيث تنمية جسمه وحفظه من الآفات وتوفير أسباب الراحة والرفاهية ، وبذلك تنتهى الحياة إلى هاتين الشعبتين الآداب والعلوم ، ومن الآداب ما نسميه الفنون الجميلة ، وكان العرب يسمونها الآداب الرفيعة ، فهذا هو المعنى العام لكلمة الأدب ، ونجد فى دائرة المعارف الاسلامية كلاما تاريخيا بهذا المعنى .

ألست قد خدعتك أيها القارىء الكريم حين زعمت لك أنى قادم بك على تعريف الأدب وتحديده ، فاذا بى ذاهب إلى التعريف بالأدب وذكر طبيعته وعناصره ؟ وأين هذا من ذاك ؟ ولكنى سائلك هذه المرة : أكنت تستطيع الاطمئنان إلى هذه الحدود الكثيرة التى تسمعها أو كنت تقدر على وضع حد للأدب من ابتكارك دون أن تسلك هذه السبيل التى قطعتها أنت الآن فى شىء من الحيطة كثير ؟!

على أنى معترف أننا جميعا قد وصلنا إلى نتائج إلا تكن يقينية يحسن السكوت عليها ، فهى على الأقل نتائج تحملنا على الكلام والبحث فى بعض النقط والجوانب الأخرى التى تتم ما أشرنا إليه هنا ، وإذ قد طال المطاف فأرجو أن يكون ذلك فى العدد التالى ؟

أحمد الشايب

المتنبي عند سيف الدولة

بقلم على النجوى ناصف

مفتش المعارف بالاوى

اتصل المتنبى بسيف الدولة سنة ٣٣٧ ، ورحل عنه مغاضبا له سنة ٣٤٦ ، فهو قد أقام عنده نحو عشر سنين . وتعد هذه المدة على رغم ما شابها من الحسد والكيد ـ أهنأ أيام الشاعر ، وأحفلها بالخير والاقبال ، وأغناها بأكرم شعره وأبقاه على الأيام .

فى هذه المدة فارقته الحاجة والبؤس إلى غير رجعة ، واختصه بالعطف وحسن الرعاية أمير كريم . فانقطع إليه ، واستغنى بمدحه عن مدح غيره ، حتى أضيف كلاهما إلى صاحبه إضافة الاختصاص والاستئثار ، فقيل : سيف الدولة ممدوح المتنبى ، والمتنبى شاعر سيف الدولة . (١)

وكان للشاعر من سخاء الأمير وشجاعته وكثرة حروبه وسائر مزاياه حافز إلى قول الشعر ، وعون أيما عون على الاجادة والابداع ، فبعد صيته ، وأقبلت الدنيا عليه ، فأصاب من النعمة والثراء حظا غير قليل . أما الحسد والكيد فقد تعقباه هنا وهناك ، حتى كانت مصيبته منهما قسمة بين أهم مراحل حياته . وإنما يقع التفاضل بين حالاته بحسب ما وراء الحسد والكيد من أسباب السعادة والشقاء .

ولا شك أن المتنبى مدين فى هذه الخطوة المباركة لأبى العشائر بن حمدان . فهو قد اغتنم قدوم سيف الدولة على أنطاكية ، فقدم إليه المتنبى ، وأثنى عليه ، وعرفه منزلته من الشعر (٢) . نعم لقد كان متوقعا أن يتصل المتنبى بسيف

(١) أبو الطيب المتنبى الكوفى : ٩٣

(٢) الصبح المنبى : ١ : ٤٦

الدولة ؛ وكان كذلك ممكنا أن يتبوأ عنده المنزلة الممتازة التى كانت له ، بغير وساطة أبى العشائر ، فالمتنبى كان شاعرا عبقريا ، وأديبا جليلا ، بدأ نجمه يومئذ فى الصعود ، وأخذ صيته يسير فى البلاد ، وسيف الدولة كان نجعة الشعراء والأدباء ، بل مقصد كل ذى إحسان فى علم أوفن ، لكن أبا العشائر على الأقل اختصر له الوقت ، وأمسك عليه الجهد ، وأخذ بيده اجتذابا إلى الموضع الذى يرشحه له نبوغه وفضله .

وعرف المتنبى لأبى العشائر هذا الصنيع ، وقدره حق قدره ، فكان يحبه ، ويحفظ له أخلص الود وأصدقه ، حتى فى أهول المواقف ، وأشدها إثارة للسخط والغضب ، وأدعاها إلى القطيعة وفصم أوثق الروابط .

روى العكبرى أن جماعة ترصدوا المتنبى ذات ليلة وهموا بقتله على باب سيف الدولة ، بعد قصيدته العتابية ، التى مطلعها :

واحر قلباه ممن قلبه شبم   ومن بجسمى وحالى عنده سقم

ولما أعياهم أمره ، واستيئسوا من الفتك به ، انتسبوا إلى أبى العشائر وقالوا : نحن غلمانه . فقال أبو الطيب :

ومنتسب عندى إلى من أحبه   وللنبل حولى من يديه حفيف
فهيج من شوقى ، وما من مذلة   حننت ، ولكن الكريم ألوف
وكل وداد لا يدوم على الأذى   دوام ودادى للحسين ، ضعيف
فان يكن الفعل الذى ساء واحدا   فأفعاله اللائى سررن ألوف
ونفسى له ، نفسى الفداء لنفسه   ولكن بعض المالكين عنيف (١)

ويظهر أن المتنبى خشى أن يكون مثله فى نظر سيف الدولة كمثل سائر الشعراء الذين يتراكضون إليه ، ويتدافعون على بابه فى غير تصون ولا احتشام ، على حين أن ليس فيهم من يجاريه فى ميدانه ، أو ينازعه السبق إلى غاية الاحسان

(١) شرح التبيان : ١ : ٤٢٠ بتصرف

لذلك تقدم إليه قبل مدحه يشترط ألا ينشده قائما، وألا يكلف تقبيل الأرض بين يديه (١)

ورأى سيف الدولة أنه تجاه اشتراط غريب، تمليه شخصية غريبة، لا نعلم أن له عهدا بمثلها. أو قريب منها بين الشعراء، شخصية واثقة معتدة. بل طامحة مدلة، تبغى الكرامة فى أسلوب يرفع صاحبها من بعض الوجوه إلى مراتب الأنداد والنظراء. ثم نظر من ناحية أخرى، فاذا هذه الشخصية لاتبغى الاعتداء على حق مشروع، ولا مجاوزة حد معقول، وإذا الذى يقدم صاحبها، ويثنى عليه أبو العشائر، وهو ابن عمه، ونائبه فى بعض ملكه، وأديب يعالج الشعر. ويستطيع المفاضلة بين الشعراء عن علم وتجربة. إذا فلا عليه أن يقبل الشرطين بل لامفر له من قبولها، ولوريثما يستجلى حقيقة هذا الشاعر، ويهيء له فرصة يحاول فيها ان يثبت جدارته بما يشترط، واستحقاقه للتقدم والامتياز.

قبل سيف الدولة شرطى المتنبى، ونزل على أحكامهما، ولكن فى ترقب وانتظار. ولذا قالوا: إنه حين سمع شعره حكم له بالفضل، وعدّ ماطلبه استحقاقا(٢).

وخلا المتنبى إلى نفسه ينظم أولى قصائده فى سيف الدولة، وقد شغل الناس به، واتجهت أنظارهم إليه، يرتقبون مايطلع به عليهم فى شوق واهتمام. ولم يكن خافيا على أحد أن خطوته الموعودة كانت إذ ذاك رهنا بباكورة شعره فى الأمير، فإما نجاح يبلغه مأمله، ويرفع رأسه، ويكبت خصمه، وإما عثار يذهب بالرغائب ويشمت الحساد، ويسلم إلى مذمة المنافسين. مقام صعب ولا شك، سعى إليه

---

(١) زاد فى خزانة الأدب للبغدادى: ٢: ٣٠٦ « وأن يمدحه على الوحدة » وقد أغفلنا إثباته بموضعه، لأن الروايات مستفيضة بأن المتنبى كان ينشده فى غير الوحدة. راجع طبقات الأدباء: ٣٧٢، ٣٧٣ والتبيان: ٢: ٢٣٠، وأبو الطيب المتنبى وأخباره ١٣، والصبح المنبى: ١: ٦٦ — ٧٢

(٢) خزانة الأدب: ٢: ٣٠٦

المتنبي طوعا واختيارا ، تحدوه نفس طموح . وتؤازره مواهب صادقة ، فمضى فى ثقة واطمئنان وثبات .

وأحسب أن لو أخذته رهبة الموقف ، وبدت فى هذه القصيدة دلائل التهيب والحذر لكان جديرا أن ينفسح له مجال العذر . لكنك تقرأ القصيدة ، ثم تقرؤها فلا تلمح فيها سمة تدل عليها . ولا ترى لها لونا من تلك الصبغة تخالف به سائر قصائده فى سيف الدولة . ودونك مطلعها ، فاستمع له ، ثم حدثنى عما ينم عليه :

وفاؤكما كالربع ، أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشجاه ساجمه

ألا تراه معى قد جرى فى البيت على طبعه ، وأرسلة غير متعمل ولا محتفل . خرج كما تهيأ له : شطراه متداخلان ، ومعناه غامض ، ولو شاء لكان له معدى عنه ، وفى سواه بدل منه ، ثم انظر إليه فى هذه القصيدة كيف أبى إلا أن يناجز شعراء سيف الدولة . ويرميهم بالقصور عن وصفه والعى فى مدحه حيث يقول:

فأبصرت بدرا لم ير البدر مثله وخاطبت بحرا لا يرى العبر عائمه

غضبت له لما رأيت صفاته بلا واصف ، والشعر تهذى طماطمه

واستمع له بعد هذا وذاك يرد على ابن خالويه ، وقد راجعه كلمة فى مطلع هذه القصيدة . فقد روى العكبرى أن ابن خالويه كان حاضرا إنشادها ، فقال حين سمع المطلع : يا أبا الطيب ، تقول : أشجاه . وهو شجاه ، يظنه فعلا ، فقال له : اسكت ؛ ليس هذا من علمك ، إنما هو اسم لا فعل (١)

أرأيت إلى أى حد كان المتنبي قويا صارما ، بل غليظا جافيا فى خطاب رجل له خطر جليل ، ومنزلة سامية عند سيف الدولة ؟

وبعد ، فقد كانت صلة الشاعر بأميره وثيقة محكمة ، تقوم على أسس من الصداقة ، وحسن التقدير ، واطراح الكلفة ، فكان سيف الدولة يؤثره على شعرائه ، (٢) ويسير بمن يحفظ شعره (٣) وكانت هباته وعطاياه تتوالى عليه أنواعا

(١) شرح التبيان : ٢ : ١٣٠ بتصرف

(٢) الصبح المنبي : ١ : ٥٨

(٣) التبيان : ٢ : ٢٩

منوعة : بين ثياب وأموال ، وإماء وعبيد ، وجياد وأسلحة ، وزاد ؛ فأقطعه قرية من قرى حلب تسمى سَبْعُين(١) ، وضيعة بالمعرة تسمى صفا(٢)

روى الثعالبي : أن المتنبي لما أنشد سيف الدولة قصيدته التي أولها :

أجاب دمعى ، وما الداعى سوى طلل   دعا ، فلباه قبـــل الركب والابل

ناوله نسختها وخرج ، فنظر فيها سيف الدولة ، فلما انتهى إلى قوله :

يأيها المحسن المشكور من جهتى   والشكر من قبـــل الاحسان لا قبلى

أقل، أنل، إقطع،احمل ، علِّ، سلِّ، أعد   زد،هشَّ،بشَّ،تفضل،أدْنِ ، سرِّ،صِلِ

وقع تحت (أقل) : قد أقلناك ، وتحت (أنل) : يحمل إليه من الدراهم كذا ، وتحت (اقطع) : قد أقطعناك الضيعة الفلانية ، ضيعة ببان حلب ، وتحت (احمل) : يقاد إليه الفرس الفلانى ، وتحت (عل) : قد فعلنا ، وتحت (سل) : قد فعلنا فاسل ، وتحت (أعد) قد أعدناك إلى حالك من حسن رأينا ، وتحت (زد) : يزاد كذا . وتحت (تفضل) : قد فعلنا ، وتحت (أدن) : قد أدنيناك ، وتحت (سر) : قد سررناك . قال ابن جنى : فبلغنى عن المتنبى أنه قال : إنما أردت سر من التسرية ؛ فأمر له بجارية ، وتحت (صل) : قد فعلنا . وكان بحضرة سيف الدولة شيخ ظريف . يقال له المعقلى ، حسد المتنبى على ما أعطاه سيف الدولة ، فقال : يامولاى ، هلا قلت له لما قال : هش بش : هه هه هه (يحكى الضحك) فضحك سيف الدولة وقال له : ولك أيضاً ماتحب . وأمر له بصلة (٣)

وأهدى إليه سيف الدولة ثياب ديباج ، ورمحا ، وفرسا . ومهراً . فقال له :

ثياب كريم مايصون حسانها   إذا نشرت كان الهبات صوانها
ترينا صناع الروم فينا ملوكها   وتجلو علينا نقشها وقيانها
ولم يكفها تصويرها الخيل وحدها   فصورت الأشياء إلا زمانها
وما ادخرتها قدرة فى مصور   سوى أنها ما أنطقت حيوانها

---

(١) القاموس : مادة سبع
(٢) معجم البلدان
(٣) أبو الطيب المتنبى وأخباره : ١٣ ، والتبيان : ٢ : ٧٢ .

وسمراء يستغوى الفوارس قدها ... ويُذكرها كراتها وطعانها
ردينية تمت ، فكاد نباتها ... يركب فيها زجها وسنانها
وأمُّ عتيق خالُه دون عمه ... رأى خلقها من أعجبته ، فعانها
إذا سايرته باينته وبانها ... وشانته فى عين البصير وزانها

وقال يمدحه و يودعه إلى إقطاعه :

أيا راميا يصمى فؤاد مرامه ... تربّى عداه ريشها اسهامه
أسير إلى إقطاعه ، فى ثيابه ، ... على طرفه ، من داره ، بحسامه
وما مطر تنيه من البيض والقنا ... وروم العبدّى هاطلاتُ غمامه
فتى يهب الاقاليم بالمال والقرى ... ومن فيه من فرسانه وكرامه
ويجعل ماخوِّلتُه من نواله ... جزاءً لما خوِّلتُه من كلامه

وقال يصف منزلته وحظوته عنده :

بلغت بسيف الدولة النور رتبةً ... أثَرْتُ بها ما بين غرب ومشرق
إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق ... أراه غبارى ، ثم قال له الحق
وما كمد الحساد شيئاً قصدته ... ولكنه من يزحم البحر يغرق

فلذلك لان عيشه ، وكثر ذكر النعمة والثراء فى شعره . كقوله :

أنا منك بين فضائل ومكارم ... ومن ارتياحك فى غمام دائم
ومن احتقارك كل ماتحبو به ... فيما ألاحظه ، بعينَى حالم

وقوله :

ناديت مجدك فى شعرى وقد صدرا ... ياغير منتحَل فى غير منتحَل
بالشرق والغرب أقوام نحبهم ... فطالعاهم ، وكونا أبلغ الرسل
وعرفاهم بأنى فى مكارمه ... أقلب الطرف بين الخيل والخول

وقوله :

تركت السرى خلفى لمن قل ماله ... وأنعلت أفراسى بنعماك عسجدا
وقيدت نفسى فى هواك محبة ... ومن وجد الاحسان قيداً تقيدا

ذلك كان شأن الأمير ، أما الشاعر ففى غير موطن من شعره تصريح بحبه إياه وإخلاصه له ، كقوله ، وقد أراد الانصراف من عنده ليلا :

يقاتلنى عليك الليل جـدا ومنصرفى له أمضى السلاح
لأنى ـ كلما فارقت طرْفى ـ بعيدٌ بين جفنى والصباح

وقوله :

أحبك يا شمس الزمان وبدره وإن لامنى فيك السها والفراقد
وذاك لأن الفضل عنـدك باهر وليس لأن العيش عندك بارد
فان قليل الحب بالعقل صالح وإن كثير الحب بالجهل فاسد

وقوله :

إذا كان مدح ، فالنسيب المقدم أكُلُّ فصيح قال شعراً متيم ؟
لحب ابن عبدالله أولى ؛ فإنه به يبدأ الذكرُ الجميل ويختم .

وقد تفوق المتنبى فى مدح سيف الدولة ماشاء ، وشاء له الحب الصادق والطبع الكريم ، فخرج شعره فيه أبلغ أشعاره ، وأكثرها تداولا ، وأحفلها بأسباب الخلود .

ومن دلائل التسهل بينهما ، واطراح الكلفة والتزمت فى صداقتهما ــ هذه الدعابة البادية فى قوله :

تعجبت المدام وقد حساها فلم يسكر ، وجاد فما أفاقا
أقام الشعر ينتظر العطايا فلما فاقت الأمطارَ فاقا
وزنا قيمة الدهماء منه ووفينا القيان به الصداقا
وحاشا لارتياحك أن يبارى وللكرم الذى لك أن يباقى
ولكنا نداعب منك قرْما تراجعت القروم له حقاقا

وتلك الفكاهة المتمثلة فى قوله على لسان سيف الدولة ، يخاطب رجلا أنفذ إليه أبياتا يشكو فيها الفقر ، ويزعم أنه رآها فى النوم :

قد سمعنا ماقلت فى الأحلام وأنلناك بدرة فى المنام
وانتبهنا كما انتبهت بلا شئ ، وكان النوال قدر الكلام

كنت فيما كتبته نائم العيشِ ، فهل كنتَ نائم الأقلام ؟
أيها المشتكى إذا رقد الإعدامَ لا رقدة مع الاعدام

وكان سيف الدولة ينقد شعره ، فيتقبل المتنبى نقده ، أو يتلطف فى الرد عليه مع فرط ثقته بنفسه ، وشدة إبائه واستكباره ، وسيف الدولة فى الحالين راض عنه ، ومعجب به ، وربما كان سروره فى الأخيرة أعظم وإعجابه أشد . حدث العكبرى أن المتنبى قال : مارد علىّ أحد شيئاً فقبلته ، إلا سيف الدولة ، فانى أنشدته: « ومن جيف القتلى » فقال لى : مه ، قل : « من جثث القتلى » فقبلت ، وقلت كما قال لى (١) .

وروى أيضا أن المتنبى لما أنشد البيتين :

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى ، وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح ، وثغرك باسم

أنكر عليه سيف الدولة تطبيق عجزى البيتين على صدريهما ، وقال له : ينبغى أن تطبق عجز الأول على الثانى ، وعجز الثانى على الأول ، ثم قال له : وأنت فى هذا مثل امرىء القيس فى قوله :

كأنى لم أركب جواداً للذة ولم أتبطّن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى، ولم أقل لخيلى : كرّى كرة بعد إجفال

قال : ووجه الكلام فى البيتين على ماقال أهل العلم بالشعر ، أن يكون عجز الأول على الثانى والثانى على الأول ، ليستقيم الكلام ، فيكون ركوب الخيل مع الأمر بالخيل للكر ، وسبء الخمر مع تبطن الكاعب . فقال أبو الطيب : أدام الله عز مولانا . إن صح أن الذى استدرك هذا على امرىء القيس أعلم منه بالشعر ، فقد أخطأ امرؤ القيس ، وأخطأت أنا ، ومولاى يعرف أن البزاز لا يعرف الثوب معرفة الحائك ، لأن البزار يعرف جملته ، والحائك يعرف جملته وتفصيله ، لأنه

(١) التبيان : ٢ : ٢٦٧ والبيت الذى يتحدث عنه المتنبى هو :
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جثث القتلى عليها تمائم

أخرجه من الغزلية إلى الثوبية . وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد ، وقرن السماحة فى شراء الخمر للأضياف بالشجاعة فى منازلة الأعداء ؛ وأنا لما ذكرت الموت فى أول البيت ، أتبعته بذكر الردى ليجانسه . ولما كان وجه المنهزم لايخلو من أن يكون عبوساً ، وعينه من أن تكون باكية — قلت ووجهك وضاح ، لأجمع بين الأضداد فى المعنى ، فأعجب سيف الدولة ، ووصله بخمسمائة دينار (١)

وكان سيف الدولة يرى فيه شاعر المجد والخلود ، لذلك كان لايطيق غيابه أيام الحفل ، وفى مواقف البطولة والظفر . روى أنه جلس يوما لرسول ملك الروم ، ولم يستطع المتنبى أن يصل إليه لشدة الزحام ، فعاتبه سيف الدولة على تأخره ، فقال :

ظلم لذا اليوم وصف قبل رؤيته ... لا يصدق الوصف حتى يصدق النظر
تزاحم الجيش حتى لم أجد سببا ... إلى بساطك . لى سمع ، ولا بصر
فكنت أشهدَ مختصٍّ وأغيبه ... معاينا ، وعيانى كله خبر
اليوم يرفع ملك الروم ناظره ... لأن عفوك عنه عنده ظفر (٢)

ولذلك أيضاً سلمه سيف الدولة إلى الروّاض فعلموه الفروسية (٣) ، والطراد (٤) ، والمثاقفة (٥) ، ليشهد وقائعه . ويرى بعينيه مبلغ شجاعته وحسن بلائه فى الحروب ، فيصفه من هذه الناحية عن رؤية وعلم ، لا عن سماع وتخيل . ولعل المتنبى قد أدرك معنى سيف الدولة من ذلك ، وأراد تذكيره به والإشارة إلى أنه حققه حين يقول فى عتابه :

قد زرته وسيوف الهند مغمدة ... وقد نظرت إليه ، والسيوف دمُ
فكان أحسن خلق الله كلهم ... وكان أحسنَ مافى الأحسن الشيم

(١) التبيان : ٢ : ٢٧٠
(٢) التبيان : ١ : ٢٩٨
(٣) حذق أمر الخيل
(٤) حمل الأقران بعضهم على بعض
(٥) الملاعبة بالسلاح

ويظهر أن تسليم المتنبي إلى الرواض والمثقفين قد أطربه ، وصادف هوى في نفسه : لذلك كان يلذ له بعض الأحيان أن يخرج في زى الفارس الكمى ، يتأهب للنزال والطعن .

حكى ابن جنى ، قال : حدثنى أبو على الحسين بن أحمد الصنوبرى ، قال : خرجت من حلب أريد سيف الدولة ، فلما برزت من السور إذا أنا بفارس متلثم ، قد هوى نحوى برمح طويل ، وسدده إلى صدرى ، فكدت أطرح نفسى عن الدابة فرقا . فلما قرب منى ثنى السنان ، وحسر لثامه ، فاذا المتنبي ، وأنشدنى :

نثرنا رءوسا بالأحيدب منهم كما نثرت فوق العروس الدراهم (١)

ثم قال لى : كيف ترى هذا القول ؟ أحسن هو ؟ فقلت له : ويحك ، قد قتلتنى يا رجل . قال ابن جنى : فحكيت أنا هذه الحكاية بمدينة السلام لأبى الطيب ، فعرفها وضحك لها (٢) .

وقد ذكر المتنبي في شعره أن سيف الدولة علمه استعمال السيف ، واستصحبه في بعض الحروب ، فساهم في أعمالها ، وصبر معه على شدائدها . قال :

وقد طرقت فتاة الحى مرتديا بصاحب غير عزهاة (٣) ولا غزل
فبات بين تراقينا ندفعه وليس يعلم بالشكوى ولا القبل
ثم اغتدى وبه من ردعها (٤) أثر على ذؤابته والجفن والخلل (٥)
لا أكسب الذكر إلا من مضاربه أو من سنان أصم الكعب معتدل
جاد الأمير به لى في مواهبه فزانها ، وكسانى الدرع في الحلل
ومن على بن عبد الله معرفتى بحمله . من كعبد الله ، أو كعلى ؟

---

(١) البيت للمتنبي من قصيدة في سيف الدولة ، مطلعها : على قدر أهل العزم تأتى العزائم . . . وتأتى على قدر الكرام المكارم

(٢) أبو الطيب المتنبي وأخباره : ١٤

(٣) لا يطرب للهو .

(٤) أثر طيبها

(٥) الجلود المنقوشة بالذهب وغيرها تغشى بها أغماد السيوف

وقال :

ورعن بنا قلب الفرات كأنما يخر عليه بالرجال سيول
يطارد فيه موجه كل سابح سواء عليه غمرة ومسيل
تراه كأن الماء مر بجسمه وأقبل رأس وحده وتليل [1]
وفى بطن هنزيط وسمنين للظبا وصم القنا ممن أبدن بديل
طلعن عليها طلعة يعرفونها لها غرر ما تنقضى وحجول
تمل الحصون الشم طول نزالنا فتلقى إلينا أهلها وتزول

وقال :

وما حمدتك فى هول ثبتّ له حتى بلوتك، والأبطال تمتصع [2]

وما كان لمثل هذه الصداقة القوية أن تعمر طويلا بين الأمير وشاعره ، دون أن تؤتى نتائجها الحتمية فى نفوس من يتأثرون بها ، ويرون من الخير ألا يصبروا على بقائها ، فتفشى الحسد والغيظ شعراء سيف الدولة ومن إليهم ، وساءت ظنون الشاعر بهم ، حتى كان فيما يقال لا يطمئن لغير أبى الفرج الببغاء من بينهم [3] . وكان القوم يجهرون بالحسد ، ويجأرون بالشكوى إلى سيف الدولة ، أن أنزلهم من منازلهم ، ورفع المتنبى عليهم ، ولكن ذلك لم يغن عنهم من الخيبة والحرمان شيئا .

روى البديعى أن سيف الدولة كان يميل إلى أبى العباس النامى الشاعر ميلا شديدا ، إلى أن جاءه المتنبى ، فمال عنه إليه ، فغاظ ذلك أبا العباس . فلما كان ذات يوم خلا به وعاتبه ، وقال : الأمير لِمَ يفضل على ابنَ عيدان السقاء ؟ فأمسك سيف الدولة عن جوابه ، فلج وألح وطالبه بالجواب ، فقال : لأنك لا تحسن أن تقول كقوله :

يعود من كل فتح غير مفتخر وقد أغذ إليه غير محتفل

(١) عنق
(٢) الامتصاع شدة القراع بالسيوف
(٣) الصبح المنبى : ١ : ٧٣ . بتصرف

فنهض من بين يديه مغضبا (١) ، وروى أيضاً أن السرى الرفاء حين قصد سيف الدولة أنشده بديها :

إنى رأيتك جالسا فى مجلس قعد الملوك به لديك وقاموا
فكأنك الدهر المحيط لديهم وكأنهم من حولك الأيام

ثم أنشده بعد ذلك ما كان قال فيه من الشعر . وبعد ثلاثة أيام أنشده المتنبي قصيدة قافية ، فأمر له بفرس وجارية ، وأول القصيدة :

أيدرى الربع أى دم أراقا ؟ وأىّ قلوب هذا الركب شاقا ؟

ولما وصل إلى قوله :

وخصر تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدق نطاقا

قال السرى : هذا والله معنى ما قدر عليه المتقدمون ، ثم إنه حم فى الحال ، وتحامل إلى منزله ومات بعد ثلاثة أيام (٢) .

وموعدنا العدد القادم لاتمام الحديث إن شاء الله تعالى .

على الجندى ناصف

---

(١) المصدر نفسه : ١ : ٥٨

(٢) المصدر نفسه : ١ : ٥٦ - ٩٧ باختصار .

من وحى الألم

تحت رُواق اللَّيْل !

لشاعر الريف محمود حسن اسماعيل
الطالب بدار العلوم

فَزِعَتْ للظلام روحى كما يَفْـــزَعُ أعشَى لومضةٍ من ضِياءِ
فحبَسْتُ الخيــالَ حتى إذا ما ضجَّ فى خاطرى من البُرَحاءِ
هربَتْ أدمعى إلى ساحة الليْـــلِ تهاوَى فى الدُّجيَة الظلماءِ
ما لهـا فى السَّنا مَلاذٌ ولا فى فَجَّة النُّور خفقة من رجاءِ
ساقها فى الظلام حادٍ من الهَمِّ — بلا ريْثةٍ ولا إبْطـاءِ
مُسْتَحَثُّ الخطى، حدوبٌ على القلـــب يُزجِّيه فى رحاب الفضاءِ
فى عُباب الدجى يَهِيمُ بمَسْرا هُ فتطويه غيبةُ المِينـاءِ
ليْتَ مَلاَّحىَ الضَّلولَ هدَتْهُ بارقات الهدى لشطِّ الفنـاءِ
طال فى الليل سَبْحُهُ وهو حيْرا نُ شجَتْهُ مضاضةُ الإعيـاءِ
وطحَتْ بالشراع هبّات ريحٍ عاصفاتٍ من زَعْزَعٍ نكباءِ
إيهِ يا ليل قُدَّ لى من حواشيــكَ حجابا وناجنى فى خفاءِ
لا تذِعْ شجْوىَ الكئيبَ ولا تكْـ شِفْ دموعى لأعيُن الرُّقَبـاءِ
ودع النَّسْمةَ العليـــلة تحسو من فم الزهـر بلسماً للشفاءِ
ودع الكونَ هاجعاً، ودعْ النا سَ نشاوَى فى غَمْرة النَّعماءِ
خلِّنى للدموع وحدى أُناجيـــها وحيـدا فى العُزلة السوْداءِ
أنا من كأسها شربتُ صَبيًّا خمرةً سُلْسِلَتْ من البأساءِ
عُصِرَتْ من مطارف الألم الدَّا وِى بقلبى وعُتِّقتْ فى دمائى

تَخِذَتْ جامَها المحاجرَ والسّا قى هَمًّا يؤجُّ فى أحشائى
هى أشهى إلى عيونى من النُّو ر ، وأبهى من لمحة الأنداءِ
هات يا ليل قطرَها فهى حَيْرَى كتَّمَتْ بَرْحَها من الكبرياءِ
سَبَقَتْ مطلعَ الندى لكَ .. دَعْها تتهاوَى للسُّخْرَة الفيحاءِ
ربّما أطلعَتْ بظلِّكَ فَجْراً شعشعتْ منه هالة فى السّماءِ
ربّما روّتْ الأزاهرَ فى المرْ ج فماستْ فى الربوة الغَنّاءِ
ربّما فجّرتْ بقلبك نَبْعاً وِردُهُ مُنْيَةُ القلوب الظّماءِ
هَمْسُها فى الجفون أصداء ناى بلغَتْ شدْوَهُ رياح المساءِ
مِزْهَرَ للعيون أوتارُه الهُدْ بُ وأنغامه رنين البكاءِ
صامت فى الظلام ألهم قلبى من معانيه عبقرىّ الغناءِ
لا َمنى فى هواه خالٍ من الهمِّ — بليد الفؤاد جمُّ الغبَاءِ
رُد عنى يا ليل دعواه إنِّى كدْتُ من لَوْمه أحطِّم نائى
لُغَةُ الدمع فى سماءٍ من العِصْمة عزّتْ حصافةَ الأغبياءِ
حَبَسَتْ وحْيَها عن العقل إلاّ حين تسمو ملاحن الشعراءِ !

٭٭٭

هات يا ليل من أغانيكَ وامْلأْ نغَمى بالخواطر الهوْجاءِ
أنا فى غارِكَ المغَلَّفِ بالظُّلْمَةِ أسيانُ مُثقلٌ بالشّقاءِ
حكمة فى دجاكَ أنكرها العقلُ فلاذَتْ بالصّمت والإنزواءِ
سمِعَتْ أرْغُنَ الليالى فهامت من صداه بنَغْمةٍ خرساءِ
هوّمَتْ فى الفؤاد تُزْجيه للحَيْرَةِ والسحر والأسى والعَناءِ
واسِ يا ليل جُرْحَهَ فلقد طا ل أساه برِبْقَةِ الأدواءِ
أنتَ بحر الحياة يا ليل كم فيك أهاويل من صروف القضاءِ !
كم غريق بيَمِّك الأسود الصا خب آدَتْهُ صرْعة الأنواءِ

صفعَتْهُ عنيفةٌ من كفوف الدّ — هر فانحطّ في مهاوي البلاءِ !
وسَبوح على متونكَ مجدُو د تخطّتْه هَبْجةُ الدّأماءِ
قد ضممتَ الأكوان تحت جناحيـ ـكَ سواءٌ في جُنح هذا العَماءِ
هوَ ذا الكوخ رازح تحت أثقا لِكَ وهنانُ كالضّرير المساء
حاكَ من سِدْلِكَ الكحيل غطاءً وارتمى جاثياً ببطن العَراءِ
عابر في حِماكَ شقّتْ مطاويـ ـه شجونُ السُّرَى وبَرْحُ الحَفاءِ
لم يجدْ راحماً يواسيه في البَلْـ ـوَى ويُنْسيه مَضّةَ الإنضاءِ
فتغافَى من الضّنَى ينشُدُ الر حمةَ والصفوَ في الخيال النّائي
رجفَتْ شمعة بجنبيْه تهفو في دُجاه كالمُقلة العَمْشاءِ
خنقَ الليلُ نورَها خنْقَةَ البُؤْ سِ لأرواح أهْلها التعَساءِ
فرنَتْ للقصور غَيْرَى شجاها أخْيَلٌ من لواحظ الكهرباءِ
سادرٌ في البرُوج كادَ من الفتْـ ـنةِ يرقى إلى بروج السّماءِ
لقِيَ الليلُ حتفه حين وافا ه طريداً مُعرّساً في الخلاءِ
فثوَى في التخوم كالهمِّ ألقى رَحْلَهُ صوْبَ هالةٍ من صفاءِ
ودنا الفجر في غلائله البيـ ـض شفيفَ الإهاب نضْرَ الرُّواءِ
يسكب النور في العيون... ولكنْ أين للروح ومضةٌ من سناءِ ؟!
أين فجرُ الجنان يا فجر؟ هدْهِدْ نغَماتي، ولا تضيّعْ ندائي .

محمود حسن اسماعيل

صفحات مطوية

عبد الرحمن زغلول

« تحت هذا العنوان ننشر تعريفا بأستاذ من أكبر الأساتذة الذين خرجتهم دار العلوم ، وكان له فى الثقافة العربية الحاضرة أثر عرفه تلاميذه فى دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى ومدرسة اللغات الشرقية ببرلين . وقد اعتمدنا فى الحصول على هذه المعلومات على أوثق المصادر وخاصة أفراد أسرة الأستاذ المترجم له وقد تولى جمع هذه المعلومات زميلنا الفاضل محمد رشيد بركات المدرس بمدرسة بنبا قادن الابتدائية . وسنتبع ذلك ، فى الأعداد الآتية ، بنشر بعض الآثار الأدبية للأستاذ عبد الرحمن زغلول »

نسبه :

هو عبد الرحمن بن الشناوى افندى زغلول ابن الشيخ ابراهيم زغلول ؛ وأمه السيدة عائشة بنت عبد الله افندى بركات وينتهى نسبه الى أبى بكر الصديق فالأستاذ — كما يتبين من نسبه — قد نسل من أكرم أسرتين فى الدلتا الشمالية ، وحسبك أن سعدا الزعيم الخالد عمّه . وأن فتح الله بركات باشا . وعاطف بركات باشا ابنا خاله ، لتعلم أنه من الحسب فى الذروة والسنام .

وأبوه الشناوى افندى زغلول كان رئيسا لمجلس القضاء فى مركز دسوق ، ثم فى مركز زفتى ؛ وخاله عبد الله افندى بركات كان ناظرا لقسم دسوق ، فى وقت كان فيه حكام القطر من الأتراك ، إلاّ نفرا كانوا يصطفون من بين أبناء البيوتات المصرية العريقة .

وجده الشيخ ابراهيم زغلول ، كان وجيها فى قومه أثيرا لديهم ، واسع الثراء ؛ وكان إلى ما عرف من سخائه وجوده — حتى انه كثيرا ما كان يؤدى

عن أتباعه وأهل بلده أموال الحكومة — شديدَ المحافظة على كرامته، يبادر إلى دفع طيف المهانة عن نفسه، بأشد أنواع العنف والقسوة، حتى مع أولئك الأتراك الذين كانوا يحكمون فلا مرد لحكمهم، لا يبالى بعد ذلك أن يكون ما يكون

ولما كان الولد سر أبيه، كانت هاتان الخلتان — الجود، وإباء الضيم — أبرز صفات المرحوم عبد الرحمن زغلول.

* * *

مولده، ودراسته:

ولد عبد الرحمن زغلول سنة ١٨٦٦ فى إبيانه من أعمال مركز فوة بمديرية الغربية؛ ولما بلغ أشده التحق بمدرسة دار العلوم (ولعله كان قد انتسب إلى الأزهر ليعد نفسه لدخول تلك المدرسة)، بيد أنه لم يلبث أن تخلى عن الدراسة، وعاد إلى ابيانه فعين عمدة لها. ولكنه كان مشغوفا بالعلم؛ فلام نفسه على مافرط، ثم عاد وانتسب إلى دار العلوم مرة أخرى، ووافق ذلك التحاق الطالب عاطف بركات بها، فسارا معا جنبا إلى جنب فى طليعة الصفوف، حتى تخرجا فيها فى عام ١٨٩٥.

ولقد شغل الأستاذ عبد الرحمن — عقب تخرجه — مهنة التدريس فى شتى المدارس فى مصر وفى الخارج: فكان مدرسا بمدرسة الصنائع بالمنصورة: ثم مدرسا بمدرسة المعلمين التوفيقية؛ ثم أستاذا للغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية فى برلين (وقد انتهز هذه الفرصة لحذق لغة البلاد، وتثقف ثقافة ألمانية)، ثم عين مفتشا للكتاتيب فى وزارة المعارف (وله تقريرات عاب فيها على هذه الكتاتيب إهمالها تربية الناشىء تربية جسمية وخلقية، ودعا إلى الأخذ بعدة وسائل يراها أقوم السبل إلى إصلاح الاخطاء الشائعة فى ذلك النوع من التعليم)

وعين فى سنة ١٩٠٥ أستاذا للاخلاق والإنشاء فى مدرسة المعلمين الناصرية (دار العلوم)، وعهد اليه بطلبة الفرقة التحضيرية الذين كانوا يفدون من الأزهر. فكان يتولاهم بما حباه به الله من مضاء فى العزم. وحزم فى المعاملة، وقدرة على تملك زمام طلبته، وتوجيههم إلى حيث يريد. فلا ينقضى عامهم هذا إلا وقد صقلوا صقلا مدرسيا دقيقا.

ونقل فى سنة ١٩١٠ مدرسا فى مدرسة القضاء الشرعى : وفيها رغب فى أن يحال إلى المعاش

ومكث بضعة أعوام يتنقل بين إبيانه ومنية المرشد والقاهرة حتى اختاره ربه إلى جواره فى سنة ١٩١٩

أخلاقه

عطفه على الفقراء ، وإحسانه اليهم :

وإليه — رحمه الله — كان ينتهى كثير من كرم السجايا ، ونبل الخلال : فلقد كان جوادا كريما ، ينقب عن المحتاجين فيبدؤهم بالعطاء قبل أن يبدءوه بالسؤال ؛ ما سئل قط إلا أعطى عطاء من لا يخشى الفاقة ، منبسط الأسارير ، باش الوجه (كأنك تعطيه الذى أنت سائله)

ولو لم يكن فى كفه غير روحه   لجاد بها ؛ فليتق الله سائلهُ !

ولقد سار يوما على شاطىء النيل ، فعرض له فى طريقه رجل ، يسأله شيئا يتقى به الليل إذا أبرد ؛ فأسرع إلى معطفه — ولم يكن قد لبسه أكثر من بضعة أسابيع — فنزعه ، وألقى به إليه ؛ ثم واصل سيره ، كأنه لم يفعل شيئا .

قوة ارادته

أما قوة إرادته فكانت مضرب الأمثال : وقف مرة بين تلاميذه يلقى عليهم درسا فى « قوة الارادة » ، ويبين لهم أنها العدة والعتاد لمن حاول أن تكلل أعماله بالنجاح فى هذه الحياة ، وأن المدرسين هم أجدر الطوائف بأن يأخذوا أنفسهم بذلك النوع من التهذيب . وهنا انبرى له طالب خبيث ، وتقدم إليه ، يسأله أن يريهم آية فى نفسه ينسجون على منوالها . فهش فى وجه ذلك الطالب وبش ، وقال : سل ما شئت ، فانى نازل حيث تريد . وكان الطالب يعلم أن للأستاذ ولعا شديدا بالتدخين . حتى انه ليشعل فى اليوم مائة لفافة ، لاترى يده خلوا من إحداها إلا حين يقف للدرس او الصلاة — فقال : أن تمتنع عن التدخين ، فما كان أسرع يد الأستاذ تمتد إلى جيبه فتخرج علبة اللفائف ، ثم تهوى عليها

أصابعه تمزيقا وإتلافا ، وأخيرا يلقى بها الى حيث لايعود إليها .

ولقد لمح عقب ذلك ، أستاذنا الجليل الشيخ فخر الدين ، وبيده لفافة يشعلها ، فاحمرت حدقتاه ، وظهر على وجهه شتى الانفعالات النفسية . ثم قال : أتدرى ؟ إنّ رشفة مما فى يدك لهى تزن عندى الدنيا بما فيها . قال : فما يحول بينك وبينها ؟ قال : عهد قطعته ، وعليّ الوفاء به !

رجوعه إلى الحق

أما تواضعه فهو — إلى الآن — حديث كل من ربطتهم بالأستاذ صلة ، أو جمعهم به مجلس ، وما علمت أحداً أسرع منه رجعة إلى الحق ، حين يبدو له وجه الخطأ فيما قال او فعل .

وقف مرة يوزع على طلبته كراسات الإنشاء بعد تصحيحها ، فلم ترقه كراسة أحدهم ، فانهال عليه لوما وتقريعا ، ثم ألقى إليه بها . وخرج عقب الدرس فظن أنه قد بالغ فى لوم الطالب ، وإيلامه أمام إخوانه ، إلى حد ليس له فيه حق ، فعاد فى الحصة التالية — وقد شغل الدرس مدرس آخر ، فاستأذنه — وقدم اعتذاره إلى الطالب عما بدر منه على مرأى ومسمع من الطلبة جميعا !

شغفه بتهذيب الناس ونشر الفضيلة :

ولقد كان الأستاذ سقراطى النزعة ، ينتهز الفرص أو يخلقها ، فيحاول أن يغرس فى النفوس حب الفضيلة ، وعمل الخير ، ويجتث منها جذور الرذيلة والميل إلى الشر ، وعكف على ذلك ، وحبس وقته عليه ، وكان فى أخريات أيامه ، ـ بعد أن أحيل إلى المعاش ـ أقصى ماتنزع إليه آماله.فقد قضى هذه الفترة متنقلا بين ابيانة ومنية المرشد ، يرتاد المساجد ، ويندس فى غمار الفلاحين . فيحادثهم فى شئون شتى ، ويتخذ من لباقته فى التعبير ، ودرايته بطباع الناس ، أسهماً يسددها إلى غرضه ، فتقع حيث يريد .

وشغف أخيراً بزيارة كتاب منية المرشد ، ورأى فى أطفاله منبتا خصبا يستطيع أن يبذر فيه تعاليمه ، فتؤتى أطيب الثمرات . فكان يتعهد التلاميذ بأسئلة ، يرمى من ورائها إلى غرس خلق كريم ، أو استئصال خلة ممقوتة .

وأذكر : لقد قدم الى الكتاب ، يحيط به جمع من مشيخة القرية ووجهائها واختار من بين أطفال المكتب طفلا ألقى عليه الأسئلة الآتية :

قال : ما اسمك ؟ . . .   واسم أبيك ؟ . . . .

قال : وما صناعته ؟ — حلاق .

قال : فأى عملائكم أحب إليك ؟ وآثر لديك ؟

فنظر الطفل الى من صاحبوا الأستاذ فى زيارته ، وطفق يعدد أسماءهم واحدا واحدا ، عندئذ ثارت ثائرة الأستاذ ، وبدا الغضب جليا على محياه ، وأوسع الطفل لوما وتقريعاً ، جزاء ما ارتكب من النفاق . ثم مال الى التلاميذ يحذرهم من أن يحذو أحدهم حذو زميلهم ، ويقبح تلك الخلة ، ويرسمها لهم فى صورة من أنكر الصور . على أن عبارته — حين كان يقذف باللوم أولا ثم حين كان يقدم التحذير ثانيا — لم تخرج عن هدوئها ، وسلامتها ، وترتيبها ترتيبا منطقيا بديعا

دقة ملاحظته

وكان يغوص بنظره فيما حوله ، ويتغلغل فيه بفكره ، كما يغوص اللآل إلى قرار البحر ، ثم يعود محملا بأنفس اللآلىء ، وأندر الدرر

من بين رسائله رسالة يقص فيها مشاهداته حين ركب الباخرة فى طريقة الى ألمانيا يحدثنا فى فقرة من فقراتها فيقول :

« وكان من بين الأطفال الذين بالمركب طفلة فرنسية ، غاية فى النشاط والذكاء ، تبلغ الخامسة من عمرها ، كانت هى التى تبدأ كل رجل وامرأة وطفل بالكلام ، حتى لقد انقضت بعض أوقات الأكل — حيث يجتمع المسافرون — والحديث متروك لها توجهه إلى من شاءت ، وتتنقل فيه كما أرادت ، وكانت — إلى هذا — كثيرة الحركة ، سريعة التنقل ، واكثر مايظهر ذلك على سطح المركب ، حين يصفو الجو ، وقد رأيتها حادثت كل كبير وصغير ، الاذينك الطفلين الأخوين الانجليزيين . فانها متى اقتربت منهما لتلعب معهما — ابتعدا وأعرضا عنها ، ومتى دعتهما الحداثة وحب الحركة وما بين يديها من وسائل

اللعب الى الاقتراب منها — قطبت لها وجهها ، وأشارت إليهما بالابتعاد ، لا فى صورة خوف من أن يقع نزاع بينهم ، بل فى صورة أخرى . فإذا كان الاستشهاد بذلك مما يستقيم — صح لنا الحكم أن فى التربية الانجليزية عاملا على تمنع الانجليزى عن مخالطة سواه »

إنتاجه

وكان رحمه الله حركة دائبة فى العمل والإنتاج . لا يترك فرصة تسنح إلاّ شغلها بما يجدى ويفيد . فله عدة رسائل :

إحداها يبحث فيها عن سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يقول عنها : « تناولت أكثرها من طبقات ابن سعد . وتوخيت فى رسالتى هذه — أولا وبالذات — عمر فى باطنه وحقيقته . »

ورسالة أخرى عن الجامع الأزهر ، يبحث فى أنظمته ، وعلومه ، ويدلى — فيما بين ذلك — بما يعنّ له من آراء فى إصلاحه

ورسالة ثالثة موضوعها تحرير المرأة ، كتبها يوم كان هذا الموضوع هو الشغل الشاغل لأذهان المصريين وألسنتهم وأقلامهم جميعا

ومن بين رسائله رسالة يسميها رسالة التلمذة .

وله عدا ما تقدم — قصة مصرية من تأليفه .

ولعل أنفس ما كتب رسالته فى علم الأخلاق ، يوم كان يتولى تدريسه فى دار العلوم ، وتلاميذه يحرصون عليها ، ويعدونها أثمن ما يقتنون .

ثم قصصه التى ترجمها عن الألمانية ، والقصة منها لا تعدو بضعة أسطر . وفى اعتقادى أنها لو نشرت — لكانت خير كتاب يحبب القراءة المنزلية إلى صغار التلاميذ . وله آثار أخرى . وكل هذه وتلك تحتاج الى دقة فحص ، وشدة عناية ، ومن أولى بذلك ، وأقدر عليه من حضرات الأساتذة أبنائه الذين تخرجوا على يديه فى دار العلوم ؟

الشيخ عبد المطلب (١)

شاعرنا وصلة حسنة بين الجديد والقديم

بقلم محمود ناصر

المدرس بالفيوم الابتدائية

٢

يخيل إلى أن تلك المعركة الحامية بين الجديد والقديم قد أثارها كتاب الدكتور طه حسين (فى الشعر الجاهلى) وردُّ الأستاذ الشيخ عبد المطلب عليه فى جريدة الأهرام ثم فى المقطم وما تبع ذلك من شرح مذهب ديكارت فى البحث.

بدأت تلك الحرب الضروس من ذلك العهد وكنا نترقب الردود ترقب المدلج للقمر وارتقاب الزهر للمطر ثم عقبت تلك الحرب هدنة استمرت إلى حين حيث غير الكتاب وحذف منه ما كان موضع التحاور والجدل وأصبح اسمه (فى الأدب الجاهلى) عند ذلك سكت الشاعر الكبير، ولكن الدكتور زكى مبارك وهو أحد تلاميذ الدكتور طه حسين أراد أن يبعثها من جديد شعواء فكانت سجالا بين طائفتين اقتتلوا وليس بينهم من بعد الشقة واختلاف الجنس وتنازع المآرب ما يبرر أن تدور رحاها وتدبج فيها تلك المقالات التى استنفدت وقتا كبيرا كان يجمل أن ينفق فيما هو أجدى وأنفع، وشاعرنا رحمه الله لم يكن لينازع فى منفعة بعض الجديد بل كان كثيرا ما يحث على الأخذ بما هو نافع ومفيد، مائلا كل الميل إلى الناحية الدينية إذ أنها تصلح لكل زمان ومكان وهو لا يحرم الانتفاع بما خلق الله من مرافق وبما ظهر من بحث يتمشى مع جانب الحق ما دام ممكنا

(١) راجع الجزء الأول من المقالة فى ص ٩١ - ٩٧ من العدد الأول من السنة الثانية من صحيفة دار العلوم.

وهو يثق كل الثقة بمؤرخي العرب ويود لو يدرس الناس مؤلفاتهم وكتبهم، وقد سفه الدين أحلام الناس الذين يستمسكون بالقديم البالى وبما وجدوا آباءهم عليه من غى وتضليل، وكان كثيرا ما يقرأ تلك الآية على أسماعنا « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا. أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون؟ »، وهو محافظ شديد الحفاظ على ما يراه صالحا لا يتعارض مع قيام تلك المدنية مع شيء من خشونة الطبع والعنجهية فهو إن ركب الحمار أو الجمل لا يعدم أن يركب السيارة أو القطار، ولو طالت حياته لرأيناه يركب الطائرة يشق بها أجواز الفضاء لعله « يلقى بها على السحب الامام عليا » كما يقول فى علويته وكما ركبها الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى وأمتع الناس بوصف جميل وحديث طريف عنها وليس عابا أن يحافظ المرء على شرف آبائه وأجداده ويملأ فاه فخرا بمجد العرب وآثارهم. ولقد تعجب إذا رأيت بعض السائحين والسائحات فى هذا العصر يركبون الابل ويقتنون نفائس الشرق على تطاول العهد بقدمها ولقد لخص الأستاذ الأديب الحاج محمد الهراوى رأى فقيدنا فى الجديد والقديم بقوله « ألا وإن شعرك الرائع فى بداوته، السليم بديباجته، لهو المصباح الذى بنوره يدفع الخطر الداهم من دعاة المدرسة الحديثة الذين يدعون إلى التقاليد باسم التجديد فينقلون من الغرب ما لا يلتئم فى شيء مع الشرق، فهم كالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى، وتلك تجارة ماجرت سوى الخسارة، ولقد كنت يا أخى « يخاطب شاعرنا » حربا على هذه الدعاية المزجاة التى لم يظهر لها مثل صالح للأخذ به فى النثر أو فى الشعر، وكان عندك كما هو عندى معك أنه وإن كان من المتبادل بين الأمم تطعيم أدب بأدب وتلقيح فكر بفكر إلا أن لكل أدب ذاتيته ولكل أمة وجهة تفكيرها فلا يجمل بنا ولنا أدب عتيد وتراث مجيد ـ أن نفنى أدبنا حبا فى تقليد أدب الغرب وجريا وراء المختالين بتعلمهم فى معاهده ففى ذلك نزول عن عزتنا القومية وضياع لتراث هذا اللسان العربي الغنى بآدابه، المعجز بآيات كتابه »

هذا رأيه وتلك عقيدته فهو لا يعجبه هذا اللون من الأدب الجديد من مكشوف أو واقعى أو قوى، ولا تلك الفوضى التى تراها فى القوافى والخروج

فى الأوزان على البحور المشهورة وغيرها، جريا وراء الشعر الأوربى ؛ وإنما ذلك حيلة العاجزين فى اللغة، الفقراء فى أدبها ومفرداتها، وهم أقرب ما يكونون إلى المستعجمين. ألم ترهم ينادون باحياء اللغة العامية فى المسارح والتمثيل، وإلى التراجم الحرفية من أدب الغرب من غير أن يلبسوها ثوبا عربيا بليغا؟ وأمثال هذا كثير فى الصحف اليومية والأسبوعية. من هذا ترى أن أدبه حلقة اتصال بين الماضى المجيد والحاضر الممتع، حفظ به تراث العرب وديباجة شعراء القرنين الثالث والرابع. كما حفظت الدولة العباسية مجد اللغة واحيتها فى كل مكان، فانتشرت المؤلفات، وكثر الأدباء والخطباء والشعراء والكتاب يقتبسون من ادب الفرس والروم ما شاءوا وشاء لهم الذوق العربى المبين، فتقبلت اللغة فى أيامهم كل ما رأته من معالم الحضارة والرقى، وأدخل نظام التعريب، وتقدمت اللغة ولم تقف حجر عثرة فى سبيلهم، وكثر المترجمون وغيرهم، وأدخلت الحكم الفارسية واليونانية والآراء الفلسفية والعلوم والفنون. وكأنى بشوقى بك وقد تمشى مع رأى فقيدنا يؤيد هذا الرأى بقوله :

لا عز للأقوام حتى ينهضوا بقوادم من أمسهم وخوافى

وإذا قرأت شعر هذا الشاعر رأيت أنه ذو لونين مختلفين وقد عبر عن نفسه بقوله :

ولنا إذا شئنا جزالة جرول وإذا نرق فتوبة وجميل

وقبله :

دان القريض لنا ؛ فأما روضه فجنى ، وأما صعبه فذلول

فهو إذا تبدى لا يرى فى سماوة فكره سوى الظعائن والحدوج وكثبان الرمال والخيام والصحراء وترسم الآثار والأطلال والدمن البوال؛ فخرج شعره كثير الغريب والمعانى البدوية التى لم تكن تطريها رقة الحضر ؛ فهو بجسمه فى القاهرة، وبروحه فى نجد وتهامة ؛ وإذا تحضر كان أرق من النسيم إذا سرى، وأصفى من السلسبيل. وأذكر أنه كان فى الحفل الحاشد الذى أقيم لتأبين شيخ الشعراء

إسماعيل باشا صبرى ينشد قصيدته التى أولها :

بارحات بالواديين هوافى يا حمام الرياض عزّ القوافى

وقد أنشدت قبله قصيدتا أمير الشعراء وشاعر النيل فهمّ أحد الحاضرين الأدباء ـ وقد سأل عن الشاعر فعرفه ـ يبحث فى جيبه عن معجم . . . . فقال لى بعيشك لو لم يهيأ للغة العربية أمثال هذا الشاعر الكبير : أ كان الناس يحفلون بهذه الألفاظ التى أتى بها وأحياها فى شعره . وهى اللغة الفتية الفصيحة الكلم ، البليغة الأسلوب ؟ ولعلك أيها القارىء الكريم أدركت السبب فى استمساكه بهذا المذهب وحرصه عليه ؛ ولذلك يقول عن اللغة :

من لم يحط بقديمها لم يعتقد علما بمجد الشرق وهو أثيل
وخذ المعانى فى جمال جديدها ماشئت، لاحرج ولا تخذيل

وله رأى طريف فى الجديد لأنه يعتقد أنه سليل القديم

مازوا الجديد من القديم ، وما دروا أن الجديد من القديم سليل
جلبات إفك ، فى مهالك فتنه هوجاء ، كيد غواتها تضليل
إن كان ما زعموا قديما ديننا فليأت منهم بالجديد رسول
أو إن يكن لغة السماء فإنها القرآن والتوراة والانجيل
أو ذلك الأدب الذى شهدت به فى كل شعب بالجمال عدول
زخرت به أم اللغات ، ولم تزل بعلاه تفترع اللُّغَى وتطول
وسيعلمون إذا الحقيقة أعرضت أن الضلالة جندها مخذول
وترى الجديد يصيح فى حجراتهم : يا قوم ، عن تلك المهالك زولوا
ما فى القديم معابة إن لم يكن فيه عن السنن السوى عدول
وذر الجديد إذا رأيت سبيله عوجاً عن الحق المبين تميل

فهو يحفل بالجديد المفيد غير ذى عوج عن الحق المبين ؛ فأنت ترى أن تلك الجلبات بين القديم والجديد لا أساس لها ، ولو كان شاعرنا نال من بهجة الحياة وزينتها ما نال شوقى أو البارودى، وخرج عن مصر ، ورأى العالم الأوربى. وعرف صفات الناس وأخلاقهم وعاداتهم ، وشاهد هذه المناظر المختلفه ، ومنح اطلاعاً

على أدب الغرب، أو درس لغة من لغاته الحية - لكان له شان غير هذا الشان؛ ولكنه أخذ بالثقافة الشرقية، ولم يتزود إلا بما ترجم من كتب ومؤلفات. وما نشر من بحوث. وهوذلك الرجل الذى ضوى جسمه، وضعف بصره، وحالت قيود الوظيفة دون ما تبغيه نفسه: ومع كل أولئك فقد بارى الشعراء وجاراهم وظهر بينهم علما واضحا، وشاعرا فحلا، فخم الألفاظ، متين القافية، رصين الأسلوب،غزير المعانى. وربما فاقأترابه في بعض قصائده أومشى معهم جنبا الى جنب. ولقد بين شاعرنا حالة التدريس وما جرت عليه من بلاء وعناء؛ فقالمن قصيدة أنشدها فى نادى طلبة المعلمين العليا عام ١٩٢٤:

فهل قدر الناس المعلم قدره إذا ذكروا أهل البلاء وقدروا
بنى مصر، ما بال المعلم كاسفا يرى الناس فيها يكبرون ويصغر
سبيل النبيين الكرام سبيله يعم به الدنيا صلاحاً فتعمر
سلوا عنه جنح الليل، كم بات متعبا تنام حواليه العيون ويسهر
سلوا عنه عينا قرح السهد جفنها يخط عليها فى الظلام ويسطر
سلوا عنه جسما بات بالسقم ناحلا فلا البرء مأمول ولا هو يعذر
سلوا عنه أسفارا قضى الليل بينها غريبا عن الدنيا وأهلوه حضر
سلوا عنه قلبا بات يخفق رحمة على فتية من حوله تتضور
يروّعه صرف الليالى عليهمُ وعاتٍ حواليهم من البؤس يزأر
فإن مد للدنيا يدا يستمدها لهم، عنه ولت وهى غضبى تشزّر
سلوا عنه إخوانا قضى العمر بينهم غدَوْا فى ثراء وهو بالفقر أخبر
فياويحه! كم يشتكى فى حياته وكم يتلقى من بلاء فيصبر!

فمثل هذه الحال لا تدعو إلى ابتكار كثير، أو تجديد كبير فى مجال القول، وكم من الأدباء غمرتهم الوظيفة وكادت تقضى على أدبهم الجم ونفوسهم الأبية الوثابة، خصوصا المعلم الذى قضى العمر تائها بين الدفاتر والمحابر حتى هزل جسمه وكل بصره «تنام حواليه العيون ويسهر».

وإن أهم باعث على هذه النهضة الأدبية التى نظمت نواحى القول من شعر

وخطابة وكتابة ، تلك الثورة المصرية التى قامت عام ١٩١٩ . فعمت البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وقبلها قيام الحرب العظمى التى نبهت الأمم من سباتها ، وأيقظت العقول من رقادها ؛ فظهر الشعراء ، وتبارى الخطباء، وتساجل الكتاب ، وامتلأت الصحف والمجلات بالمقالات البليغة، والخطب القوية، والشعر الحى، وكثرت الأندية العلمية والأدبية، ونمت الثقافة الشرقية ، واتجه الناس إلى محاسن الثقافة الغربية ؛ ثم ماأدراك ما يفعل النفى والاعتقال، والتشريد، والسجن، والتعذيب، والمصادرة فى نفوس الناس؛ خصوصا ذوى الاحساس الرقيق، والشعور القوى ؛ حتى كأن النفوس مراجل تغلى وتثور ؛ فامتازت الخطابة والشعر، وظهر شاعرنا البدوى مسجلا هذه الحوادث، وخب فيها ووضع ، وهو يعد من شعراء هذه الثورة ، وأحد زعمائها الذين غذوها بألسنتهم وأقلامهم ، كما كان البارودى ، وعبد الله نديم ، من زعماء الثورة العرابية؛ ولعل مما يحمد لشاعرنا أنه لم تفته حادثة إلا سجلها بشعره الخالد؛ فمشى مع الوفد، وسار مع زعيمه، كما سأبينه بعد ، عند الكلام على الناحية الاجتماعية والسياسية . وهاهو ذا شعره يشهد له بذلك، وهو لا يخلو من الأغراض المعروفة فى الشعر: من نسيب وغزل، إلى فخر ووصف، ومن مديح ورثاء ، إلى شعر اجتماعى، وآخر سياسى . ولأبدأ بدراسة هذه الأغراض :

غزله ونسيبه

قلما ترى شاعرا لم يتخذ الغزل والنسيب غرضاً من أغراض القول ،أو يجعله مقدمة لغرضه من مدح أو فخر أو وصف أو اجتماع أو سياسة ؛ وهو محبب إلى النفوس تنجذب إليه انجذابا ، وتميل إليه كل الميل ، فلاغرو إذا أتى شاعرنا بشىء كثير منه ، ولكنه لم يكن قائما وحده ، اللهم الادالية أسوان التى تقدم الكلام عليها وغيرها، وأعجب ما نعجب له أن الشاعر مهما بلغت سنه وتقدم عمره يميل إلى الغزل ، ويستهل به قصيده ، ويورى به عن غرضه ، وليس للمترجم معان مبتكرة فى هذا الغرض بل هو يحاكى غيره من الأقدمين ، ويجرى على غبارهم « جرى المِهار على غبار خِصَافِ » ، ولا يعد من الشعراء الغزلين كأبى الخطاب وكثير

وجميل والعباس ؛ ولم يخرج عن ذكر الطيف اذا سرى ، وحرق الجوى ، ومرارة النوى ؛ كما تمدح بالأرق والسهاد وتقرح الجفون : تهيجه الشمال اذا هبت ، والجنوب اذا عصفت ، ويغار من سجع الحمام وهديله ، ولا يخرج عن بكاء الديار ووصف الظباء والظعائن والحدوج ؛ ألم تره فى قصيدته التى قالها فى الحرب والغلاء بمصر وحال موظفى الحكومة ووفاء النيل عام ١٩١٨ كيف يستهلها بقوله :

لو ان المنى أسعدتنى برجوع ... لما صليت حر الغرام ضلوعى
يقول أناس : أنعمت نعم بالمنى . ... فما بال جفنى مغرقا بدموعى ؟
مالى لزور الطيف أستشفع الكرى ... فتأبى جفونى أن يكون شفيعى
وأرقب نجم الليل غير انّ ، أنه ... يرى آل نعم عند كل طلوع
فلله أيام العقيق وما حوت ... ربوع بنجد كن خير ربوع
يذكرنيها ساجع النيل إن شدا ... على جنبات النيل بعد هزيع

وهكذا ترى غرامه بنجد والعقيق قد ملك عليه مذاهب القول ، وإن كان يسكن القاهرة ، وهو فى ذلك يبين أن هواه نحو منبت شعبته ومغرس أرومته ، وإن أثر عنه بعض الغزل فى القاهريات ، ولكن هذا الميل الطبعى فى نفسه جعله يؤثره على غيره من الأوصاف الأخرى ؛ فتراه فى مرثيته للمرحوم الشيخ على يوسف صاحب المؤيد يقول :

تجافى بنا نجد فهل أنت منجد. ... وجدت بأهليه النوى فتبددوا
ذوى نبته لما جفا المزن تربه ... ومر به حلو من العيش أرغد
وما كان إلا مرتع اللهو تنتهى ... إليه أمانٍ صادرات وورّد
أجيرتَنا بالجزع ، نرتقب اللقا ... على الدهر، أم ذاك الفراق المؤبد؟
عدونا ـ إذا بانت بكم عن رباعنا ... نوى قذف ـ بالعَود ، فالعود أحمد

ويقول فى مدحته اصاحب الجلالة ملك نجد والحجاز عند تكريم الأستاذ الشيخ حافظ وهبة وقد خلعت عليه عباءة نجدية فى الحفل :

برق يلوح وسائق يحدو ... يا شوق هل لك غاية بعد
ونوى تشط بنا مطرّحة ... أنا بالغُوير ودارهم نجد

ويقول فى غزله بالقاهريات وسيف الجزيرة من قصيدة تكاد تسيل رقة وعذوبة :

على النيل من سيف الجزيرة جوذر هفا تائها والحسن بالتيه يأمر
مدل بريعان الصبا ، فهو ينثنى دلالا كما شاء الجمال ويخطر
زهاه الربيع النضر والماء جاريا به النيل فى أفلاجها يتحدّر
وأسكره من جانب الروض نفحة سقاه بها ذاك النسيم المعطر
فما أنس م الأشياء لا أنس موقفى وقد مر فى أترابه يتنظر
يهز القوام الغض فى بخترية وحسن المَشى بالقاهريات أجدر
من اللاءِ علمن الربا طيب نشرها وعرفن أقمار الدجى كيف تقمر
كساهن روق الحسن نعمى أثيلة وعزٌ به تطوى العصور وتنشر
لهن علينا فى الخدور كرامة يعزّ بها ذاك الجمال المخدّر
خدور بنيناها وقمنا حيالها كما قام دون الغاب ليث غضنفر

وهو فى هذه القصيدة وأمثالها يحاكى عمر بن أبى ربيعة فى رائية المشهورة التى أولها :

أمن آل نعم أنت غادٍ فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

وليست تلك القصيدة وحدها هى التى قيلت فى الغزل بالقاهريات ، بل له قصائد ممتعة خالدة ، وأغلبها محاكاة وتقليد؛ إذ ليس الغزل من الأغراض التى عنى بها عنايته بغيره . فيقول من قصيدة أخرى أنشدها فى حفلة كبيرة بدار التمثيل العربى وسميت : «سوق عكاظ» برياسة المرحوم أمير الشعراء شوقى بك نابغة هذا العصر عام ١٩٢٣ وكانت هناك مباريات بين الشعراء والأدباء :

ولم ينسنى وجدى به أن لى هوى يحن إلى طرف بمصر كحيل
من القاهريات التى لم تر اللوى ولا نزلت فى حومل ودخول
سقاها معين النيل روقا من الصبا وميعة قدٍّ بالدلال ميول
وأوحى إليها روض مصر شمائلا تظل بها نشوى بغير شمول

فتراه فى هذا الغرض مقصرا ، لم يبلغ شأو الشعراء الغزلين كأبى الخطاب

وكثير وجميل وغيرهم، فحاكاهم وجرى معهم كما تقدم القول؛ وليس معنى هذا أنه لم يصدر عنه ذلك الغزل الرقيق ذو المعانى القيمة الحضرية كقوله من قصيدة فى الفخر عام ١٩٠٨ فأبدع أيما إبداع:

ولم ينسنى عهدى به منزلُ الغضا وغرّ ليــال فيه مزدهرات
ولا مسرح الآرام فيه أوانسا تهادين فى شرخ الصبا خفرات
حسبن لعاب الشمس ذائب عسجد فأقبلن فى الآصال منتشرات
شموس نهار يبهر العقلَ أنها بدت بسواد الليل مختمرات
بدت كغصون البان أسكرها الصبا فماست على أعطافها خمرات
وقفن فؤادى بالدلال على الهوى وبالصد أجفانى على العبرات
وأغرين بى طيفا ألم فأسرعت بنفسى على آثاره حسراتى
ترامين إذ جئن الخمائل غدوة رقيبا، فأقصرن الخطا حذرات
وعدن على الأعقاب يختلن أنفسا صعابا على غير الهوى عسرات

ثم تراه بجانب هذا يعارض المشهورات من القصائد، كقوله يعارض قصيدة ابن هانى الأندلسى التى أولها:

فتكات لحظك أم سيوف أبيك وكئوس خمر أم مراشف فيك

فقال رحمه الله:

لو كنت وامقة كما زعموك ياعز، ما كذبت ظنونى فيــك
قالوا تملكها الغرام وشفها برح الجوى والبين، يوم لقوك
حسبوك صادقة، ولو علموا بما حملتنى بالغــدر ما حسبوك

ومنها:

يا بيضة الخدر المنيع أما كفى خديك قانى دمعى المسفوك

ومنها:

أنا من عرفت له إذا احتكم الهوى عز الأبى وذلة المملوك

ثم تراه فى بعض القصائد يخرج عن كل ما مضى من ذكر الأطلال والدمن البوالى، شأن أبى نواس ومن لف لفه، متناسيا ذلك، كقوله فى قصيدة يذكر فيها تقليد الأجنبيات:

ما لى وللربع المحيل أبكيه بالدمع الهطول
نوح الحمامة رجعت بين المعاهد والطلول
أو كابن حُجر إذ بكى مابين حومل والدخول
كلا ولا أبكى الظعا (م) ئن فى الهوادج والحمول
تخدى بها نجب السرى بين المتالع والسهول

ويقول من قصيدة أخرى بعثها إلى بعض أصدقائه عام ١٩٠١

يا جيرة الحى ، بان القلب بعدكم فليس يهنأ لى فى بعدكم بال
اللهَ فى كبد بعد البعاد جرت من الجوى فى مسيل الدمع تنهال
سارت بها يوم جد البين ناجية فى كل واد لها وخد وإرقال
تجفو المبارك شوقا لا يطيب لها دون السرى الأخضران: الطلح والضال
تروَى بنغمة حاديها إذا ظمئت فتأنف الماء وردا وهو سلسال
ترمى الفجاج بآماق يروعها فى سيرها اللامعان: البرق والآل

فهو كثير الترحال فى ريف مصر ، يكلف بالعيس والجمال. والوخدان والإرقال ثم يراها تطعم الطلح والضال ، وقد روعها فى سيرها البرق والآل، مع أن له مندوحة عن الاهتمام بها والكلف بحبها ؛ ولكنه يحدثنا فى كلامه هذا عن نشأته البدوية :فهو يريد أن يصقل ما أمامه بصقال من صفاء الصحراء . ويزينه بجمال الحداء ، ويمتع نظره بماوراء الخباء من جمال وحسن غير مجلوب بتطرية ؛ ومثل هذه المعانى لاتروق شبان الأدب وطلابه المحدثين، فتراهم يضربون الذكر صفحا عنه ، فلكل عصر جماله وميزته ، ورأيه هذا قد وضحناه فيما سبق ، فهذه الحضارة والمدنية التى عمت النجاد والوهاد ، وامتد ظلها فى كل صقع وناد ، لا يروقه بهرجها ، ولا يأخذ بلبه زخرفها وزينتها، مالم تسر فى طريق الخلق القويم ، وكان الدين دعامتها، والتغنى بمجد الآباء والأجداد بهجتها ، فهو يروم إحياء هذا المجد بكل مايستطيع ، إن كتابة وإن شعر وخطابة؛ ومع هذا ترى ديوان شعره لايخلو من رقة الحضريين حتى يخيل إليك أنك انتقلت إلى جدول صاف يسيل ماؤه أى مسيل، ويروقك خريره ، وتعجبك طيوره الشادية وما غرس على حفافيه من ورد وريحان، وآس وأقحوان، فيقول :

صب به ذهبت شجونه   يبكى فتسعده جفونه
لو لم يطع أمر الصبا   فى الحب ما ثقلت ديونه
ما زال بين ملاعب الـ   آرام مذكاة عيونه
مستهدفا لفتونه   جهلا فحاق به فتونه

ومنها :

يا هل درى ظبى الكنا   س ببعض ما يلقى رهينه
وبأن لى قلبا على   حكم الهوى غلقت رهونه
يمسى ويصبح فى الحنـ   ين وليس ينفعه حنينه
لو شاء كتمان الصبا   بة أعربت عنها شئونه
ياقلب صُن عهد الهوى   لا كان قلب لا يصونه !
قسما به ، أنا لا أخو   ن ذمامه أنا لا أخونه

ومنها :

حيَّا الحيا عهد الصبا   ذهبت بشاشته ولينه
أيام لا بعد يروِّ   عه ولا صدٌّ يشينه
أيام يخطر فى القوا   م اللدن يزهاه جبينه
ما البان منه إذا ترنَّـ   ـح بالدلال وما غصونه ؟

وقد وفق بين السياسة والغزل ، فاستهل برقيقه فى بعض قصائده ، عند انشقاق الزعماء ومقتل السردار :

أذنت لطيف خيالها بلمام   أترى الخيال يزور غير نيام !
ياطيف، ماأنا بالذى نصب الكرى   شركا لكاذبة من الأحلام
أنا من إذا لعب الغرام بأهله   لم يلهنى عما أجن غرامى
قلب يذوب مع الجمال وهمة   تأبى علىَّ مساقط الأحلام
وإباء أروع لا يراع إذا الردى   حلكت حواشى ليله بقتام
وحفاظ نجد لا تلين قناته   يوم الحفاظ ولا يرام لرامى

شيم على الإسلام لحمة نسجها وسداتها إرث عن الإسلام
فاقنى هواك، هوى الحسان خديعة تقف الفتى بمزالق الأقدام
أنت التى علمتنى سرف الهوى إذ أسلمتك يد الشباب زمامى
عنى إليك، أرَقْتُ أكواب الصبا بيد الحَلُوم وعفت رَوق مدامى

وهكذا تراه يتنقل بك فى ديوانه من روضة أنف، إلى روضة مثلها، تقطف ما شئت من معنى بدوى، أو لفظ غريب، ومن معانى كستها الحضارة برقتها فى ألفاظ منتخبة كأنما يضع الشىء فى موضعه، مما يدل على حسن ذوقه وسلامة طبعه؛ وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق؟

عيسى محمود ناصر

طرائف اللغــة

بقلم مهدى أحمد خليل

المفتش بوزارة المعارف سابقا

٢

ذات:

هى مؤنث ذو ، فذات مال ، معناها صاحبته ، ويقال فى التثنية : ذواتا ، وفى الجمع : ذوات ، وقد تنقطع عن الوصف وتستعمل فى معان أخرى كالحقيقة فى قولك : ذات الشىء أى حقيقته ، والطاعة والرضا فى قول الشاعر

وذلك فى ذاتِ الإله وإن يَشَأْ ... يُبَارِكْ على أوصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

وقول آخر :

وَيَضْرِب فى ذاتِ الإلهِ فيُوجِعُ

وقول عائشة رضى الله عنها حين رأت رجلا متماوتا خامد الحس والحركة فقالت : ما هذا ؟ فقيل لها رجل زاهد ! فقالت : كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه زاهدا ، وكان إذا قال أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب فى ذات الله أوجع ، أى ضرب مذنبا إرضاءً لله بتنفيذ حدوده ، ومن ذلك الحديث : إن من أعظم الناس أجرا الوزيرَ - الصالح من أمير يتبعه فى ذات الله ، أى فى رضاه . والحالةِ فى قوله تعالى (وأصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ) أى الحالة التى يجتمع بها المسلمون على طاعة الله ورسوله ، والمراد إسكان الثائرة والفتنة ، ومثله الحديث : اللهم أصْلِح ذاتَ البَيْن . والجهةِ فى نحو : ذات اليمين وذات الشمال . والمرض نحو : ذات الرئة وذات الجنب . والسريرة فى نحو : عرفته من ذات نفسه ، أى سريرته

المضمرة . والمال فى : قلت ذات يده ، أى المال الذى فى يده . والباطن والنفس فى نحو : عليم بذات الصدور. أى بنفسها وباطنها ، وقد كنى بالصدور عن القلوب: ومنه قول الشاعر

فنِعْمَ ابنُ عمِّ المرءِ فى ذاتِ مالِهِ إذا كانَ بعضُ القومِ فى مالِهِ كَـذِبا

أى فنعم فعله فى نفس ماله من الجود والكرم اذا بخل غيره .

والعبادة فى قول الشاعر

مَجَلَّتهمْ ذاتُ الإلهِ ودينهم قويمٌ فما يرجون غيرَ العواقبِ

والمجلة الصحيفة ، أى كتابهم عبادة الله . والوقتِ اذا أضيفت الى الزمان نحو: لقيته ذات العشاء، وذات صباح ، وذات يوم. وذات ليلة. وذات غداة. وذات صَبُوح، وذات غَبُوق (الصَبوحُ : الغَدَاة والغُدوة والضَّحوة . أى أول النهار، والغَبُوق العَشِيّه) وذاتَ الزُمَيْنِ (تصغير الزمن) أى منذ زمان طويل مضى ، وذات العُوَيْم (تصغير العام) أى العام الثالث مما مضى فصاعدا الى ما بلغ العشرة .وقيل معناهما: منذ ثلاثة أزمان وثلاثة أعوام ، أو منذ سُنَيَّاتٍ ، أو منذ ثلاث سنين مضت. أو أربع؛ أو ذات مرة ، قال أبو البقاء: ومرة فى قولك: خرجت ذات مرة ظرفُ زمان إذا أردت بها فَعْلة واحدة من مرور الزمان ، وإن أردت بها فَعْلة واحدة من المصدر مثل قولك لقيته مرة ، أى لَقْية . فهى مصدر عبرت عنه بالمرة ، لأنك لما قطعت اللقاء ولم تصله بالدوام صار بمنزلة شيء مررت به ولم تُقم عنده ، وإذا جعلت المرة ظرفا فاللفظ حقيقة ، لأنها من مرور الزمان، وإن جعلتها مصدرا فاللفظ مجاز، إلا أن تقول مررت مرة ، فيكون حينئذ حقيقة ، وفى قولهم مرةً بعد مرة ، نصب على المصدر ، وقد يكرر بلا فصل فيقال : مرةً مرةً ، والثانى تأكيد للأول ، كبوّبت الكتاب باباً باباً ، وفهمته حرفا حرفا

ويقال : لقيته ذات المِرَارِ ، أى مرارا كثيرة ، وفلان يصنع ذلك الأمر ذات المِرَارِ ، أى يصنعه مرار ويدعه مرارا

هذا . ولا تقل ذات شهر ، ولا ذات سنة ؛ لأنه لم يسمع فى غير ما تقدم وذات ، عند إضافتها للوقت تلازم النصب على الظرفية ، وإنما أنث فقيل: ذات العُوَيم وذات الزُّمَيْن ؛ لأنهم ذهبوا به إلى المرة والآتية الواحدة ، وإضافتها إلى ما بعدها من أسماء الزمان من قبيل إضافة المسمى إلى الاسم ، أى فى وقت مسمى بالعشاء ، وقيل من إضافة العام إلى الخاص ، وقيل إن ذات مقحمة لتزيين الكلام، وقولهم: أمَا أول ذَات يَدَيْن فإني أحمد الله، معناه أول كل شىء ، ومثله لقيته أول ذات يَدَيْن ، ولا أفعله أول ذات يدين . وقولهم :ما كلمت فلانا ذاتَ شَفَةٍ أو ذات فم ، معناهما كلمته كلمة ، ومثله : كلمته فما رَدَّ على ذات شفة . وغير ذات الشَّوْكَةِ فى قوله تعالى : « وتَوَدُّونَ أنْ غيرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكونُ لَكُمْ »معناه الطائفة التى ليست صاحبة الشِّدَّة فى الكفاح . وجاء من ذات نفسه ، أى طَيِّعاً. ووضعت المرأة ذات بطنها ، أى ولدت . وقد يضعون (ذات) موضع (التى) قال الفراء : سمعت أعرابيا يقول : بالفضل ذو فضّلكم الله به ، والكرامة ذات اكرمكم الله بها ، قال : ويرفعون التاء على كل حال ، وذو هنا بمعنى الذى ، ويقولون: هذه ذات قالت ذلك، أى التى قالت ذلك . وتشبه (مرة) فى إعرابها كلمة (تارة) .فهي منصوبة على الظرفية أو المصدرية ، لأنها بمعنى الحين والمرة

التمثال ، والصورة ، والصنم ، والوثن ، والنصب

قال أبو البقاء فى الكلّيات : التمثال مايصنع ويصور مشبها بخلق الله من ذوات الروح ، والصورة عامة ، والصنم ما كان من حجر ، والوثن عام . وفى المصباح : الوثن الصنم سواء أ كان من حجر أم من خشب أم من غيرهما ، والصنم مثله . وقال ابن فارس : الصنم ما يتخذ من خشب أو نحاس أو فضة ، والتمثال الصورة المصورة . وفى اللسان :

والنُّصْب والنصُبُ حجر يُنْصَبُ ليعبد من دون الله ، والجمع أنصاب

كيف يذكر النصف والأقل منه

الشيء الزائد على الواحد الصحيح إذا كان نصفا أو أقل ، استعمل فى التعبير عنه العطف ، يقال خمسة وشيء ،إذا كان الزائد على الواحد الصحيح عشراً أو

تسعا أو ثمنا أوسبعا أو سدسا ، وهكذا الى النصف . وإن كان أكثر من النصف، استعمل فى التعبير عنه الاستثناء ، يقال : ستة إلا شيئا إذا كان الزائد ثلثين أو ثلاثة أرباع وغير ذلك

البيت ونحوه

قال ابو البقاء فى الكليات : البيت اسم لسقف واحد له دهليز ، والمنزل اسم لما يشتمل على بيوت وصحن مسقف ومطبخ يسكنه الرجل بعياله ، والدار اسم لما اشتمل على بيوت ومنازل وصحن غير مسقف .

والبيت يكون من مَدَر (قِطع الطين اليابس) فان كان من كُرْسُفٍ (قُطْن) فهو سرادق،وان كان من صوف أو وبر فهو خِباء، وان كان من عيدان فهو خيمة، وان كان من جلود فهو طِرَاف،وان كان من حجارة فهو أقبية،والفسطاط الخيمة العظيمة . والحجرة(كالبيت والخان) مبيت المسافرين،والحانوت مكان البيع والشراء والحانة الموضع الذى تباع فيه الخمر

وصف المؤنثة بصفة المذكر

إذا غلبت الصفة فى المذكر وكانت فى المؤنث نادرة فصف المؤنثة بصفة المذكر جوازا ، وذلك سنة من سنن العرب فى كلامهم ، تقول:عاملُنا امرأة، وأميرنا امرأة ، وفلانة وصىّ فلان ، وفلانة وكيل فلان ، ومؤذن بنى فلان امرأة ، وامرأة إمام ، ولُطْفيةُ طيار ، لأن هذه الصفات فى الرجال أكثر منها فى النساء ، ولك أن تؤنث لأنها صفة امرأه

العِقد والعَقد فى الأعداد

تقول : العَقْد بفتح العين للعشرة والعشرين والثلاثين الى التسعين ، أما ما بين العَقدين فيقال له عِقْد بالكسر ، تشبيها له بالعِقد الذى تضعه المرأة على صدرها معلقا برقبتها ؛ قال الشيخ نصر الهورينى على هامش القاموس فى مادة بضع : قوله مابين العَقْدَين هو بفتح العين ، لأن العشرة اى العاشر منها الذى هو رأس العِقد يقال له عَقْد بالفتح ، أى ربط ، وأما العِقد بالكسر فهو مجموع الآحاد

كأنك بالفرح آت

تستعمل كأن للتقريب نحو : كأنك بالفرح آت ، أو بالشتاء مقبل ، وكأنك بالدنيا لم تكن ، وبالآخرة لم تزل ؛ والكاف اسم كأن على حذف مضاف فى الأولين ، وما بعد الجار والمجرور الخَبَرُ ، اى كأن زمانك آت بالفرح ، ومقبل بالشتاء . وأما الأخيران فالخبر فيهما محذوف ، و(لم تكن) حال ، بدليل روايته بالواو كقولهم : كأنى بالليل وقد أقبل ، وبالشمس وقد طلعت ، والأصل : كأنك تبصر الدنيا حالة كونها لم تكن ، وكأنى أبصر الليل . الخ ، فحذف الفعل وزيدت الباء . ولولا وروده بالواو لأمكن جعل (لم تكن) خبرا والباء بمعنى (فى) متعلقة به ، وقيل الظرف خبر و (لم تكن) حال .

مهدى احمد خليل

فوائد لغوية (١)

٣

بقلم محمد شفيق معروف

(٢) أماتت العربُ بعضَ الكلمات لأسباب قد نعود لتوضيحها ، فهم يقولون : هبني فعلتُ كذا ، أى احسبني واعدُدْنى ، ولم يستعملوا غير الأمر، وقالوا : زَوْج ، وَزَوَّجَ ، وتَزَوَّجَ ، وأهملوا الفعل المجرد زاجَ ، وقالوا : ذَرْنى أى اتركنى ، لكن ما نطقوا بماضيه ولا بمصدره ولا باسم الفاعل . أما دَعْ بمعنى اتْرُكْ ، فقيل: أُميتَ ماضيه ، وقيل: بل هو مُستعمل ، ومنه قراءة بعض القُرّاء فى سورة الضحى : « ما وَدَعَكَ رَبُّكَ وما قَلَى »

(٣) لا تجتمع الجيم والصاد فى كلمة واحدة من كلام العرب ، فالإجّاصُ (٢) ، والصِّهْرِيجُ (٣) ، والصَّنْجُ (٤) والصَّنْجَةُ (٥) والصَّلِيجَةُ (٦) ، والصَّوْلَجانُ (٧) ، والأصْلَجُ (٨) ، والصَّارُوج (٩) كلها من الدَّخِيل المُعَرَّب ، وأكثرها فارسية الأصل .

(٤) الكلماتُ الآتيةُ تَتَعَاقَبُ فيها أحرف مُخْتَلِفَة : —

---

(١) انظر صحيفة دار العلوم : العددين الثالث والرابع من السنة الأولى

(٢) ثمر معروف ، أو هو المشمش والكمثرى بلغة الشاميين

(٣) حوض الماء

(٤) شيء يتخذ من صفر يضرب أحدهما على الآخر ، أى صفيحة مدورة من النحاس يضرب بها على أخرى للطرب ، وآلة بأوتار يضرب بها

(٥) عيار الميزان

(٦) سبيكة الفضة المصفاة

(٧) المحجن أى العود المعوج

(٨) الشديد الاملس

(٩) النورة وأخلاطها وهى الهناء ، أى القطران

الغِرْيَنُ ، والغِرْيَلُ ، بنون فى آخره أولام : الطِّينُ الرقيق الجافُّ الذى يُخَلِّفُه السَّيْلُ . حَنَكُ الغُرابِ ، وحَلَكُهُ بالتحريك سَوَاده ، ويُقال : أسودُ حانِك ، أو حالِك بنون فى وسطه أو لام .

عُنْوَانُ الكتابِ ، وعُنْيَانُهُ ، وعُلْوَانُهُ . وقد عَنْوَنْتُهُ عَنْوَنَةً وعُنْوَانًا ، وعَلْوَنْتُهُ عَلْوَنَةً وعُلْوَانًا

أَبَّنَ ، وأَبَّلَ ، بنون فى آخره أو لام : أَثْنَى على الميت

إسْمَاعِيلُ ، وإسْمَاعِينُ . ومِيكائِيلُ ، ومِيكائِينُ . وإسْرافِيلُ ، وإسْرافِينُ . وإسْرائِيلُ ، وإسْرائِينُ . وجَبْرَئِيلُ ، وجَبْرَئِينُ

قُنَّةُ الجَبَلِ ، وقُلَّتُهُ بالنون أو اللام : أعلاه

لَصِقَ به ، ولَسِقَ به ، والتَصَقَ به ، والتَسَقَ .

المَأْفُون ، والمَأْفُوكُ ، بنون فى آخره أو كاف : الضعيفُ العقل والرأى ، والعاجزُ القليل الحِيلَةِ والحَزْمِ ، والمخدوعُ عن رأيه .

جاحَشْته ، وجاحَسْته بالسين أو الشين : زاحمته .

حَمِسَ الشَّرُّ ، وحَمِشَ أى اشْتَدَّ . واحْتَمَسَ الدِّيكان ، واحْتَمَشا إذا اقْتَتَلا .

تَنَسَّمْتُ منه عِلْماً ، وتَنَشَّمْتُ .

الغَبَسُ ، والغَبَشُ : السَّوَاد .

السُّدْفَةُ ، والشُّدْفَةُ ، بالسين أو الشين المضمومتين أو المفتوحتين ، ومعناهما الضَّوء فى لغة قَيْس ، والظُلْمَةُ فى لغة تميم .

المِجْدَافُ ، والمِجْذَافُ بالدال المهملة ، أو بالذال المعجمة ، ومعناه جناح الطائر ، ومنه مِجْذافُ السفينة .

الأَصِيدُ ، والوَصِيدُ : الفِناء

آصَدْتُ البابَ بالمدّ، وأوْصَدْتُهُ: أغلقتُه، وفى القراءات: (نار مؤصَدَة) و (نار موصدة) بالهمزة والواو

مطُّ الحرف، وَمدُّه، بمعنى واحد

الأَرَقانُ، واليَرَقانُ بالهمزة أو بالياء: آفة تصيب الزرعَ، وداء يُصيب الناسَ.

القَبْصُ بأطراف الأصابع، والقَبْضُ بالكف كلّها. الأولى بالصاد والثانية بالضاد.

صافَ السَّهْمُ يَصيف، وضَافَ يَضيفُ، إذا عَدَلَ عن الهَدَف تَصَيَّفَتِ الشمس، وتَضَيَّفَتْ بالصاد أو الضاد إذا مالتْ ودَنَتْ من الغروب، ومنه اشتقّ الضَّيْف، وضافَنِي الرَّجلُ دَنا منى.

المَبْعُوثُ، والمَبْعُوتُ بالتاء أو الثاء.

مَصمَصَ الإناء، ومَضمَضَهُ إذا غَسَلَهُ

الحُثَالَةُ، والحُفَالَةُ بالثاء أو الفاء: الردىء من كل شىء، أو هى القشارة من التمر والشعير ونحوهما.

الجَدَثُ، والجَدَفُ بالثاء أو الفاء: القبر.

فِنَاء الدار، وثِناؤها بالفاء أو الثاء

الفُومُ. والثُّومُ: الحِنْطَةُ. وقد قرأ ابن مسعود: «وثُومِها وعَدَسِها» بالثاء.

اللِّثامُ، واللِّفَامُ: الأول بالثاء وهو ما على الفم من النِّقاب، والثانى بالفاء وهو ما على طرف الأنف من النقاب؟

محمد شفيق معروف

درة الشعر

قصيدة الأستاذ على الجارم

لافتتاح الدورة الثالثة لمجمع اللغة العربية الملكى

ماذا طحا بك يا صنّاجة الأدب هلاّ شدوتَ بأمداح ابنةِ العرب
أطارَ نومَك أحداث وجمت لها فبت تنفخ بين الهم والوصب
واليَعْرُبيَّةُ أندَى ما بعثتَ به شجوا من الحزن أو شدوا من الطرب
روح من الله أحيت كلَّ نازعة من البيان وآتت كل مطّلب
أزهى من الأمل البسّام موقعُها وجرسُ ألفاظها أحلى من الضَّرَب
وَسْنَى بأخبيةِ الصحراء يوقظها وحى من الشمس أو همس من الشهُب
تُحدَى بها اليَعْمَلات الكوم ان لغبت فلا تحسّ بأنضاء ولا لغب
تهتزّ فوق بحار الآل راقصة والنَّصب للنيب يجلو كربة النَّصَب
لم تعرف السوطَ الا صوتَ مرتجز كأن فى فيه مزمارا من القصب
تُصغى الى صوته الأطيار صامتة اذا تردد بين الفُور والهُضُب
كأنه وظلامُ الليل يكنفه غثاءة قذفت فى مائج لجِب
قد خالط الوحش حتى ما يروّعها إذا تعرّض لم تنفِر ولم تَثب
يرنو بعين على الظلماء صادقة كأعين النَّسر أنى صوّبت تُصب
هو الحياة بقفر لا حياة به كالماء فى الصخر أو كالماء فى الحطب
يبيت من نفسه فى منزل خَضِل ومن شبا سيفهِ فى معقِل أشِب
يهتز للجود والمشتاةُ باخلة والقر يعقد رأس الكلب بالذنب
تهفو إليه بنات الحىّ معجبَةً والحب ينبت بين العُجب والعَجب
إذا تنقبن إذ يلقينه خفَرا فشوقهن إليـــه غير منتقِب

تراه كل فتاة حين تفــقده ... فى البدر والسيف والضرغام والسحب
زين الغناء إذا ما حل حبوته ... للقول لبّاه منـــه كل منتخب
أو هز شيطانه أوتارَ منطقه ... فاخش الأتىّ وحاذر صولة العَبَب
ما مسّ بالكف أوراقا ولا قلما ... ورأيه زينة الأوراق والكتب
يطير للحرب خِفًّا غير مدّرع ... فى شدة البأس ما يغنى عن اليلب
إذا دعاه صريخ كان دعوته ... وإن دعته دواعى الذعر لم يجب
لا ترهب الجارة الحسناء نظرته ... كأن أجفانه شدّت إلى طُنب

٭٭٭

جزيرة أجدبت فى كل ناحية ... وأخصبت فى نواحى الخلق والأدب
جدب به تنبت الأحلام زاكية ... إن الحجارة قد تنشق عن ذهب
تود كل رياض الأرض لو مُنحت ... أزهارُها قبلةً من خدها الترِب
وترتجى الغيد لو كانت لآلئها ... نظما من الشعر أو نثرا من الخطب

٭٭٭

ياجيرة الحرم المزهوّ ساكنه ... سقى العهود الخوالى كلُّ منسكب
لى بينكم صلة عزت أواصرها ... لأنها صلة القرآن والنسب
أرى بعين خيالى جاهليتكم ... وللتخيل عين القائف الدرب
وأشهد الحشد للشورى قد اجتمعوا ... ولست أسمع من لغو ولا صخب
من كل مكتهل، بالبرد مشتمل، ... للقول مرتجل، للهجر مجتنب
وألمح النار فى الظلماء قد نصبت ... لطارق الليل والجيران والسغِب
نار ولكنها قد صُورت أملا ... بردا، اذا خابت الأمال لم يخب
رمز الحياة ورمز الجود مافتئت ... فوق الثنيّات ترمى الجوّ باللهب
يشبها أريحى، كلما هدأت ... ألقى على جمرها جزلا من الحطب
وأُبصر القوم يوم الروع قد حشدوا ... للموت يِجتاح، أو للنصر والغلب

يرمون بالشرّ شرّا حين يفجؤهم ورايهم فوقهم خفاقة العذب
وأحضر الشعراء اللسن قد وقفوا وللبيان فعال الصارم الذرِب
أبو بصير له نبر لو اتخذت منه السهام لكانت أسهم النُّوب
إذا رماها كما يختار قافية دارت مع الفلك الدوّار فى قطب

٭٭٭

وأغمض العين حينا ثم أفتحها على جلال بنور الحق مؤتشب
نور من الله هال القوم ساطعه وليس يحجب نور الله بالحجب
تكامت سور القرآن مفصحة فأسكتت صخب الأرماح والقضب
وقام خير قريش وابن سادتها يدعو إلى الله فى عزم وفى دأب
بمنطق هاشمى الوشى لو نسجت منه الأصائل لم تنصل ولم تغب
طابت به أنفس الأيام وابتهجت ومر دهر ودهر وهى لم تطب
وهزت الراسيات الشم وارتعدت لهوله الباترات البيض فى القرب
وأصبحت بنت عدنان بنفحته تيها تجرر من أذيالها القشب
فازت بركن شديد غير منصدع من البيان وحبل غير مضطرب
ولم تزل من حمى الاسلام فى كنف سهل ، ومن عزه فى منزل خصب
حتى رمتها الليالى فى فرائدها وخر سلطانها ينهار من صبب
وعاثت العجمة الحمقاء ثائرةً على ابنة البيد فى جيش من الرهب
يقوده كل ولاّغ أخى إحَن مضمّخ بدماء العرب مختضِب
لم يُبْق فيها بناء غير منتقض من الفصيح وشملا غير منقضب
كأن عدنان لم تملأ بدائعهُ مسامع الكون من ناء ومقترب

٭٭٭

مضت بخير كنوز الأرض جائحةٌ وغابت اللغة الفصحى مع الغيب
لولا فؤاد (أبوالفاروق) ماوَجدت إلى الحياة ابنةُ الأعراب من سبب

أعزّ منها حمى ريعَت كرائمه   وكان ممنوعُهُ نهبا لمنتهب
وردّ بالجمع المعمور غربتها   وحاطها بكريم العطف والحدَب
يا عصبةَ الخير للفصحي وشيعتها   حباك صوبُ الحيا ياخيرةَ العصب
هلمّ فالوقت أنفاس لها أمد   ولا أقول بأن الوقت من ذهب
فإنما المرء فى الدنيا إقامتُه   إقامة الطيفِ والأزهار والحبَب
الدهرُ يسرع والأيام معجلة   ونحن لم ندر غير الوخْد والخبَب
والمحدثات تسد الشمس كثرتُها   ولم تفز بخيالٍ اسم ولا لقب
والترجمات تشن الحربَ لاقحة   على الفصيح فيااللويل والحرَب
تطير لِلَّفْظِ تستجديه من بلد   ناء، وأمثالهُ منا على كثَب
كمهرق الماء فى الصحراء حين بدا   لعينه بارق من عارض كذِب
أزرى ببنت قريش ثم حاربها   من لا يفرق بين النَّبع والغرَب
وراح فى حملة رعناء طائشة   يصول بالخائبين: الجهل والشغَب
أنترك العربىّ السمحَ منطقه   إلى دخيل من الألفاظ مغترب
وفى المعاجم كنز لا نفاد له   لمن يميز بين الدر والسَّخَب
كم لفظة أُجهِدت مما تكررها   حتى لقد لهِثت من شدةِ التعب
ولفظة سجنت فى جوفِ مظلمة   لم تنظر الشمسُ منها عين مرتقب
كأنما قد تولى القارظان بها   فلم يؤوبا الى الدنيا ولم تؤب
يا شيخة الضاد والذكرى مخلدَة   هنا يؤسس ما تبنون للعقِب
هنا تخطُّون مجدا ما جرى قلم   بمثله فى مدى الأدهار والحقَب

٭٭٭

لبيك يا ملكَ الوادى ومنشئه   يا حارس الدين والآداب والحسب
هذا غراسك قد ماست بواسقه   تداعب الريحَ فى زَهْوٍ وفى لعب
الملك فى بيتكم كسبا وموهبة   يزهى على كل موهوب ومكتسَب

سفينة أنت مجريها وكالئها من الزعازع لا تخشى أذى العطب
وأمة أنت مجريها وحافزها فى حلبة السبق لا تبقى على القصب
وديعة الله صينت فى يدَىْ ملك لله مرتقب ، لله محتسب
بصيرةٌ كضياء الصبح لو لطمت غياهب الليل لم يظلم ولم يهب
وعزمة كحديد النصل لو طلبت زهر الكواكب نالت غاية الطلب
قد صممت فمضت عجلى لمقصدها تحثو التراب بوجه الشك والريب
فانظر ترى مصر هل تلقى لها مثلا فى صولة الملكِ أو فى قوة الأهب
فثروة من سَرىّ العلم واسعة وثروة من سرىّ الجاه والنَّشَب
بنى فؤاد بناء الخالدين كما بنى الغطاريف من أبائه النُّجب
اذا الغمائم جافت مصر واحتجبت فان بر يديه غير محتجب
مَن مبلغ الغربِ أن الضاد قد بلغت بقرب صاحب مصر أرفع الرتب
أعاد مجدا لهـــا مالت دعائمه فيا لها قربة من أعظم القرب
وحفها بسياج من عنايتـــه كما تحف جفون العين بالهدب
إن عقها أهل واديها وجيرتها فأنت أحنى عليها من أخ وأب
رأت برِبْعك عزَّ الملك فانصرفت عن ذكر لبنى وذكرى ربعها الخرب
لاذتْ بأكرم معوان لذى أمل ناء ، وأشرف عنوان لمنتسب
عش للكنانة تبلغ أوج عزتها وللعلا والندى والعلم والأدب
وعاش فاروق نجما فى تألقـــه سعد السعود وفيه منتهى الأرب .

علی الجارم

عثرات الأقلام [1]

بقلم المتولى قاسم
المدرس بمدرسة محمد على الملكية الاميرية للبنات

٢

(٥) استعمال النفى مع الفعل (عاد - يعود)

مما جرت به الأقلام . وكثر دورانه على الألسنة ، حتى وقر فى النفوس أنه صحيح لاغبارعليه ؛ إذ لم يجدمقاومةله ، ولاتنبيها على فساده -من ذلك- مثلُ قولهم : « هبط ثمن القطن ولذلك لم يعد يقوم بنفقاته » و « لما تطلعت نفس الفلاح لم يعد يقنع بالضروريات » و « من تعب العامل لم يعد يقوى على العمل » و « تغيرت أحوال فلان ولهذا لم يعد يزورنا » .

ولا بد قبل تبيان رأينا فى فساد هذا الأسلوب ، من إيضاح معنى (عاد يعود) ونظائره ، استكمالا للبحث ، واستعانة على رد الحق فى نصابه ، بطريقة تقضى على الشك والارتياب ، فنقول : —

من أخوات (كان) التى تحتاج إلى اسم وخبر ، الفعل (صار يصير) مثل : صار الجو معتدلا - وقد هدأت الحال فصار الأمن شاملا - وبالاجتهاد يصير الصعب سهلا . ولا شك فى أن هـذا الفعل يفيد تحول اسمه من صفـة إلى أخرى تخالفها وبالنظر إلى هذه الأمثلة يتجلى لك هذا المعنى ، فقد فهمنا أن الجو اعتدل بعد أن كان شديد الحر أو البرد ، وأن النفوس قد استشعرت الهدوء والأمن بعد اضطرابها وخوفها ، وأن صعوبة الأمور تتحول بالاجتهاد إلى سهولة .

وهنالك أفعال تشارك (صار) فى المعنى والعمل - وقد عدُّوها عشرة - منها (حار يحور) . قال لبيد فى رثائه أخاه لأمه أربد :

(١) راجع العدد الأول من السنة الثانية ص ١٤٠

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

ومنها تحوّل . قال امرؤ القيس :

وبُدِّلت قُرحا داميا بعد صحة فيالك من نُعَمى تحولتِ أبؤسا

ومنها (عاد) قال الشاعر

وكان مضِلى من هُديتُ برشده فلله مغْوٍ عاد بالرشد آمرا !

ومنها ارتد ، قال الله تعالى فى أمر يعقوب وقميص يوسف عليهما السلام : « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا » .

وبقية الأفعال تسهل مراجعتها مع شواهدها فى شرح الأشمونى على الألفية — وقد رأيت فيما مر بك من الشواهد معنى التحوّل والانتقال من صفة إلى أخرى واضحا جليا ؛ فى البيت الأخير تشاهد انتقال المتحدَّث عنه من الإضـــلال والإغواء ، إلى الهداية والإرشاد ، وقد كان هذا مثار عجب الشاعر ودهشته : ومثله الباقى

وإذ كان معنى التحول هو المعوّل عليه فى هذا الباب . لاحظ النحاة فى المأثور من الكلام العربى أن (كان ، وظل ، وأضحى ، وأصبح ، وأمسى) قد تستعمل فى معنى صار . قال الله تعالى : « وفُتِّحَت السماء فكانت أبوابا ، وَسُيِّرَت الجبال فكانت سرابا » وقال الشاعر :

تلك المدائن بالآفاق خالية أمست خلاء . وذاق الموت بانيها

ومن أجل ذلك أيضا أورد (الأشمونى) الفعلين (غدا وراح) من أخوات صار ، واستشهد على ذلك بالحديث : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير : تغدو خِماصا وتروح بِطانا » فلم يقبل (الصبان) فى حاشيته عليه هذا الاستشهاد ، ورده بأن الظاهر فى الفعلين هنا أنهما تامان ، ونصب ما بعدهما على الحالية ، لا على الخبرية للفعل الناقص . إذ كان معنى التحول فى (تغدو) غير محقق و (تروح) مقابل له ، فاعتباره تاما أولى من معنى الصيرورة ؛ ولذا رأى الصبان أنهما « بمعنى تذهب فى الغدوة ، وترجع فى الرواح أى المساء » (١)

(١) ما بين قوسين نص كلام الصبان

ولقد نلاحظ فى الشواهد الآنفة الذكر : أن أفعال الصيرورة فيها تدل على التحول إلى الصفة المذكورة بعدها متمثلةً فى خبرها ، وأن الاسم قد انتقل إليها بعد اتصافه بصفة تضادها ، وهذه الصفة الأولى التى كان الاسم متصفا بها قبلا تراها مذكورة فى الكلام ، كما فى ثلاثة الأبيات الأولى ؛ وقد نراها مذكورة ، فى عبارة سابقة فى سياق القصة ، كما فى أمر يعقوب الذى ابيضت عيناه من الحزن ثم عاد بصيرا ، وقد تكون هذه الصفة الأولى ملحوظة غير مذكورة لا فى الكلام نفسه ولا قبله ، كما فى آية السماء التى تشققت وصارت أبوابا ، وكانت قبل ذلك سقفا محفوظا مالها من فروج ، وكما فى تلك المدائن التى خلت من سكانها ، وفقدت بشاشتها ، بعد العمران وحسن الحال .

من كل ما تقدم يتبين القارىء من الوجهة اللغوية والنحوية أن الفعل (عاد يعود) بمعنى (صار يصير) يتطلب اسما وخبرا ، وأن خبره يمثل الصفة التى تحول إليها الاسم بعد صفة أخرى كانت له فزالت عنه وانتقل إلى ضدها .

ولم يبق إلا البحث فى التعبير الشائع من الوجهة البلاغية والمنطقية ، لنعرف: أيقوم ذلك التعبير بالمعنى المراد للمتكلم ، أم ينحرف عنه ويعجز عن أدائه ؟

وللقارىء أن ينظر فى الأمثلة التى فى صدر البحث نظرة فاحصة ، فيتمثل المعنى القائم فى نفس المتكلم بها ؛ فإذا قلت مثلا : « لم يعد العامل يقوى على العمل » فإنك تقصد أن العامل كان قويا قادرا على إتقان عمله (وهذه هى الصفة الأولى) ثم تغيرت حاله ، فتحول عن القوة والقدرة ، إلى الضعف والعجز (وهذه هى الصفة الجديدة) فأنت تريد أن تثبت له تحوله عن القوة إلى الضعف ، لا أن تنفى عنه التحول إلى القوة ، فانه كان قويا ، وانتقاله إلى صفة القوة لا يرد على الذهن ثبوته حتى تحتاج إلى نفيه — فاللفظ الذى يؤدى غرضك ويطابق مرماك ، هو أن تقول : « لقد تعب العامل ، فصار عاجزاً عن العمل : أو أصبح ضعيفا عن أدائه : أو عاد لا يقوى عليه » فتأتى بفعل الصيرورة مجردا من النفى وبعده الصفة الجديدة — وهى هنا (عاجزا ، أو ضعيفا ، أو لا يقوى) فتردفه الصفة الجديدة مثبتة ، أو الأصلية منفية . وكذلك إذا قلت : « كان

عمر يزورنا ، فلم يعد يزورنا ، فإنما تقصد أن تثبت له الانقطاع عن الزيارة ، بعد أن كان متعودها ؛ فتريد أن تقول : كان يزورنا فصار هاجرا لنا — أو أصبح منقطعا عن زيارتنا — أو عاد لا يزورنا . ومن هنا ترى هذا التعبير الشائع عاجزا عن أداء المعنى الذى تريده ، غير مطابق للمعنى القائم فى نفسك — والسر فى ذلك هو تقديم أداة النفى على الفعل — فان هذا التقديم أوجب اضطراب اللفظ وفساد المعنى ؛ ولم ينطق بمثله العرب فى معناه الذى إليه نقصد ، وإياه نريد فى عصرنا هذا

ولذلك نرى أن التعبير الصحيح للمعنى الذى إليه نعمد بمثل هذه العبارات ، إنما يصح بتأخير أداة النفى عن الفعل ، أو بحذف النفى وجعل الخبر مثبتا وهو الصفة الجديدة نفسها . وعلى هذا الأساس نعيد هنا العبارات التى صدرنا بها البحث ، بعد إدخال الاصلاح عليها مع تنويع الأساليب . فنقول :

« هبط ثمن القطن فعاد لا يقوم بنفقاته » و « لما تطلعت نفس الفلاح أصبح لا يقنع بالضروريات » و « من تعب العامل صار عاجزا عن العمل » و « تغيرت أحوال فلان فعاد هاجرا لنا منقطعا عن زيارتنا »

وقد تورط فى هذا التعبير أكثر الكتاب تحريا للصواب ، وأشدهم تحرجا من الخطأ ، ممن نربأ ببلاغتهم أن يذهب بروائها مثل هذا الأسلوب الأعجمى ؛ وقلما وجدناهم يأتون به صحيحا سليما من العيب ، إلا ما رأينا من قول الأستاذ عبد اللطيف المغربى فى مقال له عن العقل العربى فى العدد الرابع من صحيفة دار العلوم للسنة الأولى ص ٦٩ « . . . فقوى واستشرى ، وتعمق فى المعانى واستقصى ، وعاد لا يقنع بما توحى به الفطرة الساذجة ، واللمحة الطارئة »

ولا يحسبَنَّ القارىء أنا أطلنا الكلام فى هذا الموضوع عبثا ؛ فإن مجلة المجمع اللغوى (ولها مكانتها فى نفوسنا) قد تعرضت فى جزئها الأول لهذا التعبير فى مقال لحضرة عضو المجمع الشيخ عبد القادر المغربى ، عنوانه (تعريب الأساليب) ص ٣٣٦ فقرر أولا : أنه من الأساليب التى تسربت إلى لغتنا فى العهد الأخير ، والظاهر أنها أعجمية ، وقد يدعى مدع عروبتها وإرجاعها إلى عرق فى الأساليب

العربية . ثم قرر ثانياً : أن العرب إنما يعرفون النفى الساذج الخالى من فعل (العود) ولا عهد لهم بهـذا التعبير الدخيل الذى استعمل فى نفيه الفعل : (عاد يعود) .

وبعد كلام عن نشأة هذا التعبير وذيوعه فى عصرنا ، بدأ الباحث يشك فى أن النفى مع الفعل (عاد) غير عربى . بل ادعى أنه عربى محض ، مستدلا بأن (عاد) من أخوات صار ، مثل رجع ؛ ولم يورد من كلام العرب شاهدا على سبق النفى للفعل (عاد) ، ولـكن استدل على صحة ذلك بدخول النهى على الفعل (رجع يرجع) بمعنى صار فى الحديث : « لا ترجعوا بعدى كفارا » .

وليس فى هذا شاهد على صحة ما ذهب إليـه الأستاذ المغربى : فالرسول (صلوات الله عليه) ينهى أصحابه أن يتحولوا عن الاسلام إلى الـكفر ، فلا بد من تقديم أداة النهى على فعل الصيرورة — أما المعنى الذى تعبر عنه بقولك : ما عاد — أو لم يعد التلميذ كسلان — مثلا — فهو أنك تثبت له صفة هى ضد الـكسل ، قد تحول عن الـكسل إليها ، فمن الواجب أن تقول : عاد التلميذ نشيطا ، أو مجتهدا ، أو غير كسلان ، أو لا يكسل .

وانتصافا للحقيقة فى ذاتها نقف وقفة مع حضرة الأستاذ الباحث فى هذا الحديث . فإنه يقرر أن لـكل من صار وأخواتها معنى خاصا ومقاما خاصاً تستعمل فيه ، وهذا لا غبار عليه . ثم قال (فقول الحديث « لا ترجعوا بعدى كفارا » صرحوا بأن « ترجعوا » فيه بمعنى « تصيروا » ولـكن لو حلت محل « تصيروا » (١) لمـا أدت تمام معناها ، لأن « لا ترجعوا » تفيد معنى : بعد أن كنتم مسلمين ، ولو قال « لا تصيروا » لما أفاد تمام المعنى)

ولعمر الحق لو أن معنى الرجوع فى الحديث مقصور على ذلك الذى يقرره ، مازاد شيئا فوق معنى « تصيروا » فانه لم يزد شيئا على المعنى المشترك بين أفعال الصيرورة جميعها ، إذ كلها تفيد التحول من صفة إلى أخرى ضدها) ولـكن المعنى الزائد الذى يمتاز به فعل الرجوع هنا ، ولا يوفيه (تصيروا) هو أنه يشير

(١) لعله يقصد (لو حلت محلها تصيروا) كما يتبين من بقية كلامه

إلى حالة سابقة للاسلام، يحذرهم إياها — فكأنما قال : لا ترجعوا — بعد إذ أسلمتم وتمتعتم بنعمة الاسلام — إلى الكفر الذى عرفتموه مفرقا لكلمتكم، موهيا لقوتكم ، مغريا بينكم العداوة والبغضاء ، ولذا ذيله بقوله : « يضرب بعضكم رقاب بعض » . وهو قريب فى معناه العام من قول القرآن الكريم : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » (أى بنعمة الاسلام) .

ثم انتقل الباحث إلى دليل آخر يؤيد به دعواه عروبةَ هذا الأسلوب الذى يتقدم فيه النفى على الفعل (عاد) فأورد حديثا آخر يرى أنه أصرح فى الدلالة على ما يريد) ! ! وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابى معاذ رضى الله عنه :

« أعُدت فتانا يا معاذ ؟ » ثم قال (لو أن معاذا أراد أن يجيب النبى عن قوله ، أيقول له « لست فتانا » أم يقول « لم أعد فتانا » ؟)

واتخذ الأستاذ قول معاذ المقدَّر الذى لم ينقل عنه ، ولم ينطق به ، أصرحَ دليل على صحة ذلك الأسلوب عينه .

ثم انتهى من ذلك كله إلى أن استعمال عاد فى النفى عربى صحيح ، لكنْ قليل الاستعمال فى كلام القدماء ، وكثُر فى عصر الترجمة الأخير ، فليس أسلوبا إفرنجيا محضا . يا سبحان الله ! ! أأعجمى وعربى ؟ !

لا . ليس هذا أصرح فى الدلالة على صحة ذلك الأسلوب الدخيل ، بل ليس صريحا ولا ضمنيا ؛ فإن معاذا رضى الله عنه لم ينطق بشىء فنستدل به ، فكيف نطقه بما لم يقل ؟ على أنه لو قال ذلك فعلا لكان بعيدا كل البعد عن طريق الاستدلال ، فإنه فى معنى آخر غير المعنى المقصود بهذا الأسلوب الشائع ؛ فان إلقاء الرسول سؤاله عليه (أعدت فتانا) ؟ فيه اتهام له بتحوله عن الهدوء والسلام إلى إثارة نار الفتنة ؛ فكأنما قال له : يخيل إلىّ يا معاذ أنك صرت من دعاة الفتنة والاضطراب ، بعد أن كنت كما نعهد من دعاة السلام ، فكيف تتحول عن عهدنا بك ؟ فلا بد لمعاذ والحالة هذه أن ينفى عن نفسه هذا التحول — ولا مفر حينئذ من تقديم النفى على فعل العود .

وبين المعنيين بون شاسع . ولنضرب لذلك مثلا : أرأيت لو أنك تعرف إنسانا مخلفا للوعد ، ثم عرفت عنه أنه أقلع عن هذه العادة ، وأصبح يحافظ على مواعيده ؛ فأردت أن تصوغ هذا المعنى فى أسلوب من هذا النوع ، ماذا تقول ليكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال ، مؤديا للغرض ؟ لاشك أنك تقول : صار صاحبنا وفيا ، أو عاد لا يخلف ، أو صار غير مخلف . أى انتقل عن الاخلاف إلى الوفاء ؛ وهنا تجد الفعل سابقا للنفى .

ولو أن لك صديقا معروفا بالوفاء ، ثم عرض من الأمر ما حملك على الارتياب فيه ، فقلت له : « أعُدت تخلف الوعد بعد أن عرفت بالوفاء ؟ » لو أن ذلك كذلك لم يجد صديقك طريقا لدفع هذا الاتهام عن نفسه ، إلا بنفى هذا التحول المزعوم ، فيقول : « لم أعد مخلفا » وهذا يتفق مع كلام معاذ المقدر صدوره منه ، وهو غير ما نحن بصدده مما شاع استعماله فى الصحف .

فلسنا نزيف هذا التعبير فى كل مقام ، ولا نرفضه رفضا باتا فى كل الأحوال بل إنما نمنعه إذا تطلب المقام سواه ، وتجافى عنه ولم يطلبه ، أما إذا طلبه معناك ، واحتاج إلى استعماله مرماك ، فما لأحد عليه من سبيل ، إذ هو الطريق إلى إيضاح غرضك وبيان مغزاك ؛ كما تقول : « لمَّا تُوفى النبى عليه صلوات الله ، ارتدت العرب إلا أهل مكة والمدينة وما إليهما ، فإنهم لم يعودوا كغيرهم كفارا » واعتبر الفرق بين المعنيين بقولك مثلا : عرفت أنك لم تسافر — ولم أعرف أنك سافرت .

وإنما نشأ ذلك من الترجمة الحرفية ، أو التهاون فيما تتطلب اللغة من الدقة والتحرى ؛ ولسنا نمنع تعريب الأساليب ، فلا بد من تقارض اللغات بعض أساليبها ، وفى التقارض بينها زيادة للثروة اللغوية . إنما نرجو ممن يتصدى للتعريب أن يراعى فى نقله الدقة ، فيما تتطلبه قوانين اللغة ومنطقها من تقديم وتأخير ، حتى يجىء الكلام قويا غير مصاب بالضعف والتهافت ، ولاشك أن لكل لغة طريقتها الخاصة فى اتصال بعض كلمات الجملة ببعض ، بحيث لو تغير الترتيب لاختل المعنى ، أو انتقل إلى أسلوب لغة أخرى .

ولأمر مَّا عقد البلاغيون فى كتبهم فصلا فى موضوع أدخلَ فى المنطق

والقضايا منه في البلاغة والأساليب — ذلك هو موضوع عموم السلب وسلب العموم — وتكلموا في ارتباط النفي بأداة العموم. وبينوا اختلاف المعنى في تأخير النفي وتقديمه في مثل قولنا: «كل الأعضاء ليسوا حاضرين، وليس كل الأعضاء حاضرين» جزاهم الله عن اللغة خيرا، لقد كانوا حراصا على إنارة الطريق وتمهيد السبيل لمن بعدهم، ليكونوا على بينة في كلامهم وكتابتهم على أسلوب العرب وطريقتهم.

سيقول بعض الناس: مالنا ولهذا التدقيق والتنقيح مادمنا نفهم الغرض المراد بدون عناء، فماذا يحملنا على ترك ماتعودنا، إلى مالم تصقله أقلام الكتاب؟ فنجيبهم بما يقرره الجاحظ في البيان والتبيين (١)؛ من أنه ليس محكوما بالبلاغة لمن أفهمك قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته والمصروف عن حقه؛ بل لابد أن يفهمك حاجته على مجرى كلام الفصحاء، بحيث لو سمعه العربي الذي لم يتعود سماع الخطأ لفهم عنه ما يريد — قال الحجاج لبعض النخاسين من أهل خراسان: «أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان؟» قال: «شريكاتنا في هوازها، وشريكاتنا في مدائنها، وكما تجيء تكون» قال الحجاج: «ما تقول؟ ويلك!» فقال بعض من تعود سماع الخطأ، وكلام الأعاجم بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك: «يقول: شركاؤنا بالأهواز والمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب، فنحن نبيعها على وجوهها». ومما يختلف معناه بتقديم النفي وتأخيره أفعال المقاربة؛ فإن لكل من (كاد لا يكون) و (ما كاد يكون) معنى خاصا ليس هنا مقام بيانه، ومن السهل عند القارىء أن يراجع ذلك في الأشموني، وفي الجزء الأول من مجلة المجمع اللغوي ص ١٣٩.

وقد نرى في الصحف كثيرا من العبارات، يظهر فيها سوء الأثر الذي تحدثه الترجمة الحرفية، وتنتشر عدواه، وتعم بلواه — ومن ذلك ما يتصل بموضوعنا مثل قولهم: «لا يجب أن تخالف الأوامر» و «لا يجب أن تهمل المدرسة النشاط المدرسي» وأمثاله كثيرة، حتى لقد قرأت مثل هذا التعبير أكثر

(١) ص ٩٠ ـ ج ١ ـ طبعة سنة ١٣٣٢ هـ بمطبعة الفتوح الأدبية

من ثلاث مرات فى شهر واحد من صحيفة محترمة جدا؛ بل لقد رأيت فى كتاب تاريخ، كلمة ينقلها المؤلف عن بعض فلاسفة اليونان لبيان رأيه فى المدينة الفاضلة فيقول: «لا يجب أن يزيد عدد سكان المدينة على عشرة آلاف نفس» وهذا التعبير ليس بمانع منطقيا (٣) من المخالفة، ومن إهمال النشاط، ومن زيادة السكان؛ فإن الوجوب منفى، فلا مانع من الجواز. والصواب أن يتأخر النفى عن فعل الوجوب، أو يوضع مكان (يجب) (يصح أو يجوز). فيقال: «يجب ألا تخالف . . . ولا يصح أن تهمل . . . ولا يجوز أن يزيد . . . .» ومما يتصل بهذا الباب مثل قولهم: لم يعد لهم رغبة فى السفر، ولم يعد لدينا صبر على الفراق ولم يعد عند المريض ألم.

ولو أصلحنا هذا التعبير على نحو ماسلف لتغير ترتيب العبارة وهيئتها كثيرا، فمثلا نقول: صرنا غير راغبين فى السفر، أصبحنا لا نصبر على الفراق، عاد المريض لا يجد ألما. ولعل خيرا من ذلك وأسهل أن تبقى العبارة على حالها مع وضع (لم يبق) مكان (لم يعد) وفى المثل العربى: «لم يبق فى قوس الصبر منزع» فلعل الكتاب يتقبلون ما ندلى به مخلصين، فبذلك ينزهون بلاغتهم عما يشوبها من النقصان، ويخدمون اللغة خدمة تذكر لهم بالشكران

المتولى قاسم

(١) لاحظ ترتيب العبارات السابقة

وَفَيْتُ ...!

بقلم محمد يوسف المحجوب

المدرس بمدرسة محمد على الملكية الأميرية للبنات

وفيتُ ، فما أغنَى وفائى ولا أجدَى ... وَصافيتُ من دُنيايَ من لَمْ يَصُنْ عَهْدَا !
وَضَحَّيْتُ ما ضحَّيْتُ جذلانَ ؛ علّنى ... أرَى منه قلباً مخلصاً يحفظ الودا
ولكننى لم أجنِ ـ والهفَ أضلعى ـ ... سوى حسرة أورَتْ على كَبدِى زَنْدَا !
لىَ اللهُ ! كمْ سَهدَتْ عَينى لأجله ... ولم تَكُ عينى قبلهُ تعرفُ السُّهْدَا
لىَ اللهُ ! كمْ حمّلت قلبى لأجلهِ ... عناء ، وقدْ ما كان لا يعرفُ الوَجْدَا
لىَ اللهُ ! كمْ أوْليتُهُ ذاتَ مُهْجَتى ... فما بالهُ يذْكى بها النارَ والوقْدَا ؟

* * *

ألستُ الموالِى فيه سُهْدِى وأدْمعى ... أنوءُ به عبئا ، وأعيا بها عَدّا ؟
ألمْ يأْتهِ أنّا طوَينا لأجْلهِ ... رفاقاً ، وأنّا قد هجرناهُمُ عمدًا ؟
فما بالهُ ينسى وفائى ، ويَجتَوِى ... إخائى ، ومَا كلّفتُهُ فى الهوى إدًّا ؟
وما بالهُ يمضى بوادِى ظنُونِه ؟ ... وكم من ظُنُونٍ تورِثُ البغض والحقدا
أيجفُو ، وقد عاطيتُه خير ما اشتهى ... من الودِّ حتى عافَ من وِرْدِهِ الشَّهْدَا ؟
« وفيتُ فما أغنى وفائى ولا أجدى ... وصافيتُ من دنياى من لم يصن عهدا » !

* * *

أئِنْ رآنى يوماً صَموتاً مقطّباً ... يُفَزِّعهُ صَمْتى ، فيوسِعُنى نقدًا ؟

ويزعم تقطيبي نُفوراً ؛ وما دَرَى همُومَ ضلوعٍ بِتْنَ يوسِعنَها هدّاً
توَالتْ ، فآدَتني ، فلمْ أرْضَ تَشّها وآثرْتُ أن أحيَا (على رَغمِها) طَوْدَا
وما المرءُ مَنْ يحيا شَكوًّا بدهره بَلِ المرءُ مَنْ يحيا بِهِ ثابتاً جَلدَا
فما بالُ خِلّى لم يُصابرْ جَوانحي ويَستأنها حتى يَرى صَلْدَها يَندَى ؟
وما بالهُ قدْ ضاقَ ذَرْعاً بخطْبها فولى نُفوراً غاضباً ينثر العِقْدا ؟
يسلُّ ثيابى جاهداً مِنْ ثيابهِ وكنّا إذا نمشى نباهى بها برْدا !

٭٭٭

رعى الله قلبى ؛ إنه صانَ ودّه وآخى ، فما أعطى قليلا ولا أكدى
وجازَى إلهى صاحبى بالذى ارتَضى رَعينا وقد جافى ، وصَلْنا وقدْ صدّا
فلا تعذلانى اليوم عينىَّ بعد ما تَبيَّنتُما منْ أمرنا الغىَّ والرُّشدا
ولا تسكبا دمعاً إذا رحت أبتغى لدى النأى عن دنيا الهوى عيشةً رغدا
ولا تجزعا أنْ تبصِرانى بجوِّها وحيداً بلا خِلٍّ ، مقيما بها فرْدَا ؛
« وفيت فما أغنى وفائى ولا أجدى وصافيت من دنياى من لم يصن عهدا » !

محمد يوسف المحجوب

ابن ميادة (١)

مدائحـــه ، غزله ، فنـــه

بقلم حسن علوان

المدرس بالمدرسة الخديوية

٢

فى هذا المقال سنتناول بالنظر مدائح ابن ميادة وغزله، والمدح والغزل عمودان من عمد الشعر ، وغرضان من أسمى أغراضه ، فى أخريات العصر الأموى ، وأوليات العصر العباسى ، وقد لابسهما ابن ميادة ، وعاش فيهما .

والمدح فن من الشعر ، يريد الشعراء المعاصرون ، أو الشعراء المجددون ، أن يسقطوه من أغراض الشعر ؛ ويزعمون أن العاطفة لا توحى به ، وأن الوجدان لا يستشعره . ولو أنصفوا الأقدمين لما أصدروا عليهم حكما قبل أن يتفهموا ملابسات حياتهم ، ومقتضيات بيئتهم . وإنهم لو فعلوا لعلموا أن الشعر مرآة تتجلى فيه صورة العصر ، أو أن كلا من الشعر والبيئة يصور الآخر ويترجم عنه ، والصور قد تختلف ألوانها ، والبيئة قد يتغير قوامها ، ولكن الشعر هو الذى يحفظ صورها ، ويدون حقائقها ، وقد يصبح الغرض النبيل فى عصر من العصور ، سمجا سخيفا فى عصر آخر ، فليس من الرأى الأصيل ، أن ننال الأقدمين بالزراية ، لأن بطون دواوينهم تتخمها أشعار المدح ، أو نسخر منهم لأنهم تغالوا فى وصف الناقة ، وبالغوا فى التحدث إليها ، والتطرب بحنينها ، وهى طائرة زمانهم ، وجوابة موماتهم ، ووسيلة الوصول إلى أحبتهم .

ولقد كان الاستبداد والأثرة من طبائع الخلفاء والملوك السابقين ، وكانت

(١) راجع المقال الأول فى العدد الثانى من السنة الثانية من صحيفة دار العلوم ص ٥٣ ـ ٦٠

الضرائب تجبى إليهم ، وتتدفق فى خزائنهم ، فينفقونها فى إشباع رغباتهم ، ويجودون بها على من ترضى عنه مشيئتهم ، فمن استطاع أن يهز أعطافهم ، أو يحرك أريحيتهم ، أو يبيع الحمد والثناء إليهم ، فقد تحاشاه الفقر ، وأقبل عليه المال الوفر . وكان بيت المال فى هذا الزمان ، حِلا لذوى القرائح المتقدة ، والمواهب الممتازة ، من الشعراء والأدباء ، والرواة والفقهاء . وما كانوا يصدرون فى مدحهم أو تندرهم عن ملق أو رياء ، لأنهم يعتقدون أن الخليفة صاحب الحق المطلق فى مرافق الدولة ، وأنه يعظم فوق كل تقدير ، وتنقطع دون مقامه غاية كل مدح ، وأن هذا المال أحق به من بلغ المدى فى الفن ، وطار دون سواه فى سماء الإجادة ، وقد يكون من الشعراء منقطع القرين ، فيستولى وحده على العطاء ، كما قطع أبو تمام فى عصره جوائز الشعراء .

على أن المدح فى رأيى أنبل قصدا . وأسمى غاية ، من قول هراء ، يصوغه شعراء هذا الزمان فى « وصف القبلة . أو ألحان الألم . أو ساعة فى ضوء القمر » وكل ألفاظه مبتذلة ، ومعانيه رخوة فسلة ، وغايته لين وضعف ، يأباه هذا العصر الذى يمجد القوة ، ويتغنى بالكسب والعمل . وشعراء المدح كثيرا مايمجدون الهمم العالية ، والنفوس الأبية ، ويسوقون إلى البطولة والتضحية ، ويبعثون المروءة والأريحية ، ويعرضون للوقائع الحربية فيصورونها ، وللحوادث التاريخية فيسجلونها ، ويخلدون الأبطال والعظماء ، ويشيدون بذكر القواد والزعماء : فأى رسالة للشعر خير من هذا ؟ وأى نفس لاتشبع بهذه المثل العليا ؟ أما أولئك الذين يتحدثون عن الوجيعة ولا وجع ، ويهتفون بذكر الغرام ولا غرام ، ويرددون الكلام عن الوفاء ولاوفاء ؛ فلا أحسبهم شعراء .

وابن ميادة كان أزهد الناس فى مدح الناس ، وما مدح إلا خليفة أو أميرا ، وقد قصر مدائحه على قيس قومه ، وعلى قريش آل الخلافة والملك ، إلا أنه لم يكن شاعرا فصالا ، والشاعر الفصال هو الذى يمدح الناس ليأخذ جوائزهم ، وإنما كانت تدعوه للمدح عقيدة أو محبة ، لأنه كان شديد الاعتزاز بنفسه ، حتى وقر فيها وقارها ، وعرف لها مقدارها ، وقُبض نقى العرض ، مصون الوجه ،

وكان إذا وجد الكفاف لا يسأل بالشعر ؛ فقد حكى أنه مدح أبا جعفر المنصور بكلمته التي يقول فيها :

فوجدت حين لقيت أيمن طائر وورليت حين وليت بالإصلاح
وعفوت عن كسر الجناح ولم يكن لتطير ناهضة بغير جناح
قوم إذا جلب الثناء عليهم بيع الثناء هناك بالأرباح

وأتاه راعي إبله بلبن فشرب ، ثم مسح على بطنه ، وقد عزم على الرحلة ؛ فقال : سبحان الله ! أأفد على أمير المؤمنين وهذه الشربة تكفيني ، وصرف وجهه عن قصده ، فلم يفد عليه ، فأنت ترى كبر نفسه ، وبعد همته ؛ على أن عبد الله بن عمر على جلالته ، والحسن البصري ، وعكرمة ، ومالك بن أنس المدني ، وجلة من أهل العلم ، غير هؤلاء كانوا يقبلون صلات الملوك (١) . وكان الرماح سامي النفس ، عادل الحكم ، بعيد المدارك ، لاتستجره الرغبة في نيل العطاء إلى التعريض بخصوم الخليفة ،أو ذم أعدائه كما انزلق سواه من الشعراء في تيار الحزبية ، واندفعوا في فتنة الخصومة ، ولهذا بقي عظيم الشأن ، كبير القدر ، لدى الخلفاء الأمويين والعباسيين . وكان لا يبالي سخط الخليفة عليه ، إذا كان في إعلان ر يه ، أو إبداء ما يظن أنه الحق سخطٌ عليه . فقد قيل إنه « دخل على الوليد ابن يزيد ، وأنشده قصيدة يقول فيها :

فضلنا قريشا غير آل محمد وغير بني مروان أهل الفضائل

فقال الوليد : قدمت آل محمد قبلنا . فقال : ما كنت يا أمير المؤمنين أظنه يمكن غير ذلك . فلما أفضت الخلافه إلى بني هاشم ، ودخل على المنصور ، قال له كيف قال لك الوليد ؟ فأخبره بما قال ، فجعل المنصور يتعجب (٢) » فلم يستطع الوليد أن يحمله على تغيير رأيه ، وهو من المتصلين ببابه ، المختصين بمعروفه ، لأنه كان دَعِبا طربا ، حلو الشمائل ، خفيف الروح . فألف هذا المزاج بينه وبين الوليد ، فأنس به ، وخف على قلبه ، وقد اتصل به قبل أن تصير الخلافة إليه ، لأن الوليد

(١) العمدة ج ١ ص ٥١
(٢) ديوان الحماسة ج ٢ ص ١٢٠ شرح الرافعي

لما » شرب الشراب ، واتخذ الندماء ، وظهر منه مجون ، وبدا للناس منه تهاون بالدين ، واستخفاف به ، أخذ هشام يعيبه ويتنقصه ، وكثر عبثه به وبأصحابه ، فلما رأى الوليد ذلك خرج وخرج معه ناس من خاصته ومواليه ، فنزل بالأزرق ، فى جزيرة العرب ، بين أرض بلقين وفزارة ، على ماء يقال له الأغدق ، وأقام هناك حتى مات هشام (١) فتعرف إليه ابن ميادة ، ولقى منه الوليد أنسا وظرفا وأحبه ، فلما صارت إليه الخلافة رحل إليه ، فأدناه وأكرمه » وفضله على الشعراء أجمعين (٢) ، ومن قوله فى الوليد :

لما أتيتك من نجـــد وساكنه ... نفحت لى نفحة طارت بها العرب
إنى امرؤ أعتفى الحاجات أطلبها ... كما اعتفى سنق (٣) يلقى له العشب
ولا ألح على الخُلان أسألهم ... كما يلح بعظم الغارب القتبُ
ولا أخادع ندمانى لأخدعه ... عن ماله حين يسترخى به اللبب
وأنت وابناك لم يوجد لكم مثل ... ثلاثة كلهم بالتاج معتصب
الطيبون إذا طابت نفوسهمُ ... شوس الحواجب والأبصار إن غضبوا

وهذا الصنف من المدح يصور لك نفس ابن ميادة الكريمة ، ويتراءى منه إباؤه وشممه ، لم يعرض كرامته فى سوق الضراعة والاستجداء ، ولكنه يفخر بأنه يتعفف عن سؤال الخلان ، ويأبى أن يطرح نفسه فى مطارح الهوان ، ولم يزد فى مديحه إياه على أنّ جزيل عطائه رفع من قدر العرب ، وعقب على ذلك ، بأنه يطلب الحاجات زاهدا فيها ، فلا يحرص عليها ولا يشتد فى طلبها ، ويزهد فيها زهد من تضلع من الطعام وبه منه كظة : فما أشبهه بأولئك الذين قال الله فيهم : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم ، لا يسئلون الناس إلحافا » ثم يريه أنه لا يخدع صديقه بزخرف القول ، وزيف المدح إذا صار فى خفض العيش ، وتفيأ فى ظلال النعيم ، ليستدر ماله ، وينال عطاءه ،

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٨٨ بتصرف
(٢) أغانى ج ٢ ص ٣٠٢
(٣) السنق الذى قد شبع حتى بشم

وبعد هذا السياق الذى لا يدع مجالا للشك فى عزة نفسه، وشرف غايته يذكر أنه وابنيه حقيقون بالخلافة جديرون بالتاج والملك، وأنهم واسعو الرضا إذا طابت نفوسهم، شديدو السخط إن غضبوا، فهو لم يجد على الخليفة وابنيه من الثناء بقدر ما نعت به نفسه من الخلال الحميدة والمناقب الشريفة، ولم يغنه ذلك. ولكنه بعد الأبيات السابقة انبرى على طريقة أبى الطيب يزهو بنفسه، ويسمو بها على سائر الشعراء. ويجرى أمامهم فى حلبتهم، فلا يشق غباره، ولا يدرك مداه فيقول:

قسنى إلى شعراء الناس كلهم ... وادعُ الرواة إذا ماغث مااجتلبوا
إنى وإن قال أقوام مديحهمُ ... فأحسنوه وما حابوا وما كذبوا
أجرى أمامهم جرى امرىء فلج ... عنانُه حين يجرى ليس يضطرب

ألا ترى أن الرماح رسم إلى المتنبى هذا الطريق، ودله على السبيل، فى هذا النهج الجميل، الذى يسوق الزهو بالنفس، والعجب بها، فى معرض يونق السمع، ويرتاح إليه الطبع، وتسر به النفس، ويقبله الفؤاد، فيقول وهو يمدح سيف الدولة:

وما الدهرُ إلا من رواةِ قصائدى ... إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسارَ به من لا يسيرُ مشمراً ... وغنى به من لا يغنى مغرِّدًا
أجزنى إذا أُنشدتَ شعراً فإنما ... بشعرى أتاك المادحون مردَّدًا
ودع كل صوتٍ غيرَ صوتى فإنما ... أنا الطائر المحكىُّ والآخر الصدى

وشتان بين شاعر البادية، الذى يرسل قوله عن فطرة خالصة، وسليقة صافية، وخواطر لم ينسج خيوطها إلا من طبع مجيب، وإلهام مواتٍ؛ وبين شاعر الحكمة والفلسفة الذى نبت فى أحضان حضارة إسلامية منخولة، نضجت وآتت ثمرها، وتغذى عقله بعصارة علوم الفرس والروم واليونان.

ولقد بقى ابن ميادة على الوفاء للوليد بعد أن قتل، برغم اضطراب الأمور، وجنون الفتنة بعد مصرعه، وتسابُقِ الموتورين والطامعين من العرب إلى التنكيل به؛ ووصمه بكل بلقاء مشهورة، فقد حدثوا أن عبدالسلام بن شماخ اللخمى

طار فاحتز رأسه ، ليقبض من يزيد بن الوليد مائة الألف ثمنها ، وأقبل أبو الأسد مولى خالد بن عبد الله القسرى ، فسلخ من جلد الوليد ليثأر لمولاه خالد ، وجاء عمرو بن مروان وقطع كفه اليسرى وبعث بها إلى يزيد بن الوليد زلفى إليه ، وعرض رأسه على أخيه سليمان بن يزيد فرده وشتمه ، وقال أشهد أنه كان شروبا للخمر ، ماجناً ، فاسقا (١) ، مع كل هذا حفظ ابن ميادة عهده ، وبكاه ورثاه. وعرض ببنى مروان لبشاعة التمثيل ، وفظاعة قتله ، فقال :

ألا ياهفتىَ على الوليد غداة أصابه القدر المتاح
ألا أبكى الوليد فتى قريش وأسمحها إذا عد السماح
وأجبرها لذى عظم مهيض إذا ضنت بِدرَّتها اللقاح
لقد فعلت بنو مرْوان فعلا وأمراً مايسوغ به القَراح

أما غزل ابن ميادة فبدوى صميم ، وحجازى رقيق ، وخياله صحراوى بحت ، تهيجه النار تلوح له من بعد ، فى جنح الليل البهيم ، ويخيل إليه أنها أوقدت حيث تحل الحبيبة ، ويثير مابين جوانحه الأمكنة التى قد تمر بها ، أو تحل فيها ، أو كانا يلتقيان عندها ، فيتغنى بها ويتطرب بذكرها . وتارة يتمثل إليه أن ضفيرتيها المرسلتين على متنيها سعف النخل ، وأن فتيت المسك تناثر حولها ، وأنها آنق منظرا ، وأعطر ريحا من روضة يخضلها الندى ، ويتوجها الأقحوان والعرار ، وأن درعها وخمارها قد ضما على أسطع من ريح القرنفل ، وأطيب من شذى المسك ، وأنها أندى صوتا ، وأحسن التفاتة من ظبية ترسل بغماتها مع الريح ، وتتلفت نَفوراً مروعة من حبائل الصائد ، وشرك القانص ، ثم يزجى القول عن صواحباتها فى ثناء وإعجاب ، وينعتهن بالنعومة والطهر والصون والتمنع ، والملاحة والحسن كأن فى وجوههن مقل الظباء ، وفى أعطافهن ريح الخزامى (٢)

فقد حدثوا أنه خرج يبغى إبلا له ، حتى أتى جُباراً ، فوجد عجوزاً قد أسنت ، وطلبت أن تقريه ، فلما استقر به المكان عندها استنشى ريح الطيب الذى صار

(١) الطبرى ٩ ج ص ٣ بتصرف
(٢) ج ٢ أغانى ص ٣١٦

ينفح عليه من البيت ، ثم دخلت عليه بنت جميلة لهذه العجوز ، فنالت من فؤاده ، وانصرف يتشبب بها فى قوله :

نظرنا فهاجتنا على الشوق والهوى ... لزينب نار أوقدت بجبار
كأن سناها لاح لى من خصاصة ... على غير قصد والمطى سوارى
وما روضة خضراء يضربها الندى ... بها قنة من حنوة وعرار
بأطيب من ريح القرنفل ساطعا ... بما التف من درع لها وخمار
وما ظبية ساقت لها الريح نغمة ... على غفلة فاستسمعت لخوار
بأحسن منها يوم قامت فأتلعت ... على شرك من روعة ونفار
فليتك ياحسناء يابنة مالك ... يبيع لنا منك المودة شارى

هذا نمط ابن ميادة فى شعره حين يتشبب ، وهو نمط صحراوى ، لا يتميز من الفطرة الأولى للشعر العربى ، فى عهديه الجاهلى والإسلامى ، فهو دائما يستلهم البادية : جبالها ، ونباتها ، ونوارها ، وتلاعها ، وظباءها ، ويستنبط معانيه من البيئة التى تحيط به ، والبقاع التى يحل فيها ، ثم يخرجه كما تيسر له ، لا يسهر عليه جفنا ، ولا يكد له طبعا ، فيختشبه اختشابا ، لا يتنوق فيه ولا ينقحه ، وقد قيل له مرة : (لو أصلحت شعرك لذكرت به ، لأن فيه كثيراً من السقط ، فقال : إنما الشعر كنبل فى جفيرك ، ترمى به الغرض ، فطالع وواقع ، وعاصد وقاصد(١)) فهو شاعر الفطرة والسليقة ، لا شاعر التعمل والصناعة . وما أشبهه بجرير ، فلم يكن شاعراً حولياً أى ينقح الشعر ويهذبه (وكان الفرزدق ينقح الشعر ، وكان جرير يخشب ، وكان خشب جرير خيراً من تنقيح الفرزدق) (٢) ومع هذا كانت غطفان تباهى به وتعده أشعر شاعر فيها فى الجاهلية والاسلام . لهذا تقرأ الكثير من شعر الرماح فترى خواطره مرسلة كما تجىء ، لا تجمع بينها أواصر المنطق ، ولا نياط التفكير والتنقيح ، إلا أنه سديد المسلك لا يتعسف ولا يسخف ، ولا يغرق

(١) جـ ١ تاريخ الأدب لجرجى زيدان ص ٢٩٩ والعاصب الملتوى الذى لا يصيب الهدف

(٢) أساس البلاغة مادة : خشب

فى الحوشية ، ولا يسترسل فى جفوة الأعراب ، بل يرسله مأنوساً سهلا ، سائغ المورد جزلا ، ويكسوه شملة صحراوية ، ويلبسه حلة بدوية . وابن ميادة فى حرية شاعريته ، وبداوة ديباجته ، مجيب لطبعه ، خاضع لسليقته ، لأنه أولع بالصحراء لم يألف سواها سكنا ، ولم يتخذ غيرها وطنا ، وكان له بالصحراء حنين عجيب ، وشوق غريب ، فقد كان الوليد بموضع يقال له « أُيايِر » (١) بالضم والياء الثانية مكسورة ، فى جهة الشمال من أرض حوران ، كان يخرج إليها أيام الربيع للنزهة ، وبعث إلى الرماح فأنزله فى كنفه مكرما منعما . ولكن لا يهنأ له عيش ، ولا تطيب له حياة إلا بين تلاع الصحراء ورمالها ، فقال والوليد يسمع :

لعمرك : إنى نازل بأيابر ... وضوء، ومشتاق وإن كنت مكرما
أبيت كأنى أرمد العين ساهراً ... إذا بات أصحابى من الليل نوَّما

فقال الوليد : يابن ميادة . كأنك غرضت من قربنا، فقال : ما مثلك يا أمير المؤمنين يغرض من قربه ولكن :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بحرة ليلى حيث ربَّتَنى أهلى
بلاد بها نيطت على تمائمى ... وقطعن عنى حين أدركنى عقلى
وهل اسمعنّ الدهر أصوات هجمة ... تطالع من هجل خصيب إلى هجل
وهل أسمعن الدهر صوت حمامة ... تغنى حمامات على فنن جثل
وهل أشربن الدهر مزن سحابة ... على ثمد الأفواة حاضره أهلى

فقال الوليد : اشتاق الشيخ إلى وطنه . ومنحه مائة ناقة دهماء جعداء عشراء وفحلها ، وجارية بكرا ، وفرسا عتيقا ، وجعل له مثلها كل عام ، وسمح له أن ينصرف إلى وطنه (٢)

على أن ابن ميادة قد يتجرد أحيانا من جزالة البداوة ، فيرق شعره ويتحضر ويلين ويتكسر ، ولكنه لا ينسى ما ركز فى طبعه ، وغرس فى نفسه ، من أن

(١) وردت فى الأغانى ج ٢ طبعة دار الكتب (أباين) والصواب ما ذكرناه عن معجم البلدان

(٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٠٥ والاغانى ج ٢ ص ٣١٠ طبعة دار الكتب بتصرف

يستمد من الصحراء وحيه . ويستلهمها خياله ، فقد كان مما أعطاه الوليد جارية طبرية أعجمية لا تفصح ، ولكنها حسناء جميلة ، فعشقها ابن ميادة ، وقال فيها :

جزاكَ الله خيرا من أمير فقد أعطيت مبرادا سخونا
بأهلى ، ما ألذك عند نفسى لو انك بالكلام تعرّبينا
كأنك ظبية مضغت أراكا بوادى الجزع حين تبغّمينا

فلم يشأ فى رقته ولينه . وإعجابه بصوت جاريته التى لا تفصح : إلا أن يشبهها بظبية سانحة بوادى الجزع ، تمضغ الأراك وتتبغم بصوتها اللين الحنون .

ولابن ميادة طابعه الخاص ، حين يسكن الحب بين أضالعه ، ويتقد بصدره ويعلق المرأة ، وتملك الصبابة عنانه ، فانه يشعل فى نفسك لوعة الوجد ، ويجرعك مرارة الفراق ، ويسكب فى فؤادك كأساً من حسرة المدله ، ويلقى على مسمعيك نبرات تسمعها خافتة خفوت اليائس المقهور ، فى مقاطع تعشقها الأسماع ، وتألفها الطباع ، وهو فى ذلك رقيق لا ترى لرقته نهاية ، وعذب ليس لعذوبته غاية . لقد أحب ابن ميادة امرأة من عشيرة ، تكنى أم جحدر ، ونسب بها ، وباعد أبوها بينه وبينها ، كما جرت بذلك عادة العرب من حرمان الرجل حبيبته ، إذا شبب بها ، أو تحدث الناس فى شأنهما ، وزوجها رجلا من الشام ، وارتحل بها فلق عليها شدة ، وخرج وراءها ، يجد فى أثرها حتى أدركه أهله ، فارجعوه صامتا لا يتكلم من الوجد بها إلا بقوله :

ألا لا تعد لى لوعة مثل لوعتى عليك بأدمى والهوى يرجع الذكرا
عشية ألوى بالرداء على الحشا كأن ردائى مشعل دونه جمرا
لعمرى لئن أمسيت يا أم جحدر نأيت لقد أبليتُ فى طلب عذراً
خليلى من أبناء عذرة بلغا رسائل منا لا تزيد كما وقرا
ألما على تيماء نسأل يهودها فان لدى تيماء من ركبها خبرا
وياليت شعرى هل يحلن أهلها وأهلك روضات ببطن اللوى خضرا
فأعجب دار دارها غير أننى إذا ما أتيت الدار ترجعنى صفرا
ألا ليت شعرى هل إلى أم جحدر سبيل ؟ فأما الصبر عنها فلا صبرا

وانى لأستنشى الحديث من اجلها   لأسمع عنها وهى نازحة ذكرا
وإنى لأستحيي من الله أن أرى   إذا غدر الخلان أنوى لها غدرا[1]

فهو فى حبه وغزله من طراز أولئك الشعراء العذريين، الذين أصبتهم النساء، ودلهم الغرام، وعاشوا بعقل مسبوه، وفؤاد موزع، أشباه جميل وعروة وقيس، أولئك الذين تقرأ شعرهم، فتردد فيه نفوساً محرومة، وقلوباً موجعة، كأنك تلمس خفقاتها باصبعك، أو تتردد أناتها على مسمعك، فترثى لحالهم، وتكتوى بلوعتهم، وتحس كأنك هم، فهات بالك ألق عليه قول ابن ميادة:

بنفسى وأهلى من إذا عرضوا له   ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب
ولم يعتذر عذر البرىء ولم يزل   له سكتة حتى يقال مريب

إنها نفس مخبول، قنص بحبائل الصبابة، وسحر بفعل الهوى، فلم يستطع أن يدفع الناس إن عرضوا له بأذى، لأنه لا يحير جوابا، ولا يجد دفاعا، وإن كان يعلم علم اليقين أنه بنجوة من التهمة، نقى من الريبة، ولكنه لا يستطيع أن يتنصل عما قرف به، أو يتنضح مما اجترم عليه، فيرمى بذنب لم يجنه، ويحمل إثما لم يجترحه. ثم انظر إليه وقد احتشدت إلى خياله سوالف الذكريات، وتمثلت إليه صور الأماكن والبقاع، وما جرى بها من مواقف الوداع، فجعلته كالمدله الملتاع. فظن أن لقاءها شىء ليس مما يمكن الحصول عليه، أو يتيسر الوصول إليه، وأنه لا يشقيه إلا سهام الحب التى ترشقه حينما يستيقظ من نومه فيقول:

يمنوننى منك اللقاء وإننى   لأعلم لا ألقاك من دون قابل
ولم يبق مما كان بينى وبينها   من الحب إلا مخفيات الرسائل
وإنى إذا استنبهت من حلو رقدة   رُميت بحبيها كرمى المناضل

ثم ها هوذا يحدثك فى قصيدته هذه أن الحب جنى عليه فصرفه عن سائر النساء، وقد كان يرمى الزوائل، أى طبًا بإصباء النساء، خِلباً لهن، فلما وقع صريع الغرام، وأصبح نضو السقام، عزف عنهن، وفرغ قلبه من الشغل بهن. فيقول:

وكنت امرأ أرمى الزوائل مرة   فأصبحت قد ودعت رمىَ الزوائل

(١) جـ ٢ أغانى ص ٢٧٢

وعطلت قوس اللهو من سرعانها وعادت سهامى بين رث وناصل

فابن ميادة شاعر كسائر الشعراء، وتشبيبه ككل تشبيب، حين يسوقه على غرار الشعراء الاسلاميين، فى عبث النفس، أو مقدمات المدح، فيرصعه بذكر الديار والظباء والأراك وما إلى ذلك من مشاهد البادية، ثم يعرض لاعجاب الغوانى به، وإدلاله بنفسه، ومسارقتهن النظر إليه، ورميه بسهام اللحاظ، شأنه فى ذلك شأن الشاعر الكذوب، أو الشاب الدعب الطروب، فمن ذلك قوله:

وكواعب قد قلن يوم تواعد قول المجد وهن كالمزاح
ياليتنا فى غير أمر فادح طلعت علينا العيس بالرماح
بينا كذاك رأيننى متعصباً بالخز فوق جلالة سرداح
فيهن صفراء المعاصم طفلة بيضاء مثل غريضة التفاح
فنظرن من خلَل الحجال بأعين مرضى مخالطها السقام صحاح
وارتشن حين أردن أن يرميننى نبلا بلا ريش ولا بقداح

فهذا شعر حسن، وسبك محبوك، وصنعته دقيقة، كأنه من بضاعة عمر ابن أبى ربيعة وسبيله مألوف لمن تقدموا ابن ميادة أو تأخروا عنه من الشعراء ولكن معانيه لم تنبع من قلبه، ولم تتفجر عن عواطفه، ولم يصور بها إحساسه، أو ينفخ فيها بروحه. ومن الشعر المصنوع لابن ميادة، وإن كان ما أفضى عليه من العفة والتصون، وما أودعه فيه من الاجادة وحسن السبك، أسنى قيمته وأعلى مرتبته قوله:

ياأطيب الناس ريقا بعد هجعتها وأملح الناس عينا حين تنتقب
ليست تجود بنيل حين أسألها ولست عند خلاء اللهو أغتصب

لا يمكننا القول فى هذا الشعر وأضرابه إلا أن ابن ميادة صانع حاذق ومثّال ماهر، ونساج محكم جيد القون متمرن، ولكنه غير مطبوع ولاملهم، أما إذا أردت أن تسمع الفن فى شعره، وتمسك قلبه بين مقاطعه، وتعرف شيئا أحلى من الوصل، وأفعل من الخمر. فهاك قوله:

كأن فؤادى فى يد قبضت به محاذرة أن يقضب الحبل قاضبه

وأشفق من وشك الفراق وإننى ـ أظن ـ لمحمول عليه فراكبه
لقد سبقتك اليوم عيناك سبقة وأبكاك من عهد الشباب ملاعبه
فوالله لا أدرى أيغلبنى الهوى إذا جد جد البين أم أنا غالبه؟
فان أستطع أغلب وإن يغلب الهوى فمثل الذى لا قيت يغلب صاحبه

وكان ابن ميادة يرق ويعذب اذا استجاب لطبعه واستلهم روحه وعاطفته وإذا قال كما يقول الناس، كان جزلا رصينا، ومال إلى التوعر أحيانا، واحتمى بدقة الصنعة ليستر ما فاته من طبعه وما خالف فيه وجدانه. وقد تأثر بصحبة الوليد، فقال فى الخمر، ومن ذلك: (١)

ألا رب خمار طرقت بسدفة من الليل مرتاداً لندمانى الخمرا
فأنهلته خمرا وأحلف أنها طلاء حلال كى يحملنى الوزرا

وقد غلبت عليه وراثته لزهير بن أبى سلمى فكان أحيانا يرسل المثل والحكمة كقوله: (٢)

وأرانا كالزرع يحصده الدهـر فمن بين قائم وحصيد
وكأنا للموت ركب مخبو ن سراع لمنهل مورود

وقوله: (٣)

بنو الصالحين الصالحون ومن يكن لآباء سوء يلقهم حيث سيرا
فما العود إلا نابت لأرومة أبى شجر العيدان أن يتغيرا

وأختم كلامى عنه بقول الأصمعى: (ختم الشعر والشعراء بالرماح) (٤)

حسن علوان

---

(١) ج ٣ ص ١٩٧ البيان والتبيين
(٢) ج ٣ ص ٨٣ نهاية الأرب
(٣) ج ٢ أغانى ص ٣٣٧
(٤) ج ٣ ص ١٩٧ البيان والتبيين

ابنتي . . . !

بقلم عبد الحق شرف الدين

المدرس بمدرسة المنصورة الثانوية

لعمرى لقد أمسى فؤادى مروّعا وأصبحت بعد الثكل حيران موجعا
وعدت أليف الحزن أسوان باكيا على بائنٍ منى تولى وودعا
وما كنت أخشى الخطب حتى رزئته فأصبحت نهبا للهموم موزّعا
تصبرت قسراً واحتملت تجملا ولكن صبرى مذ دهيت تمنعا
وكيف ينال الصبر فاقد ولده أليس خليقا أن يئن ويفزعا؟
بلى ، قد بلوت الحزن حتى ألفته وما حدت عن داعى الحنان إذا دعا
ثكلت « نوارا » نور الله قبرها وأسكنها فى جنة الخلد مربعا
فيالهف نفسى يوم لج بها الردى فظلت تعانى الموت حتى تربعا
ويالهف نفسى يوم شيعت نعشها وبى حرقة تسرى بقلبىَ والمعى
أحاط بها الآسون والداء كامن وآبوا حيارى ليس يلقون مفزعا
وعاد طبيب الحى ينفض كفه ولم يلق فيها للسلامة موضعا
وجاءت وفود القوم ما بين معول أسيف ومضنى بالفجيعة رُوّعا
وحال اجتماع الشمل ثكلا ولوعة وفرقة آباد وحزناً وموجعاً
وأمسى جَرىُّ البرق يحمل نعيها ويصمى قلوب الهاجعين بما نعى
عزيز علينا يانوار تباعد وردنا به ورد الشقاوة مترعا
عزيز علينا يانوار تفرق أضرّ بنا منذ البعاد وأوجعا
نقضّى الليالى فى اكتئاب وحسرة ونذكر عهداً لن يعود ويرجعا
وندب زهراً قد تقصف ناجما ونرقب نجماً لن يعود ويطلعا
أتيت مع الوسمى والكون مشرق وابت فأمسى ربع صفوىَ بلقعا

وما كنت أدرى أن نجمك آفل وشيكا ، وعهدى أن يبين و يلمع
وما كنت أدرى أن غصنك ذابل سريعاً ، وظنى أن يميد ويونعا
لقد كنت أرجو أن تعيشى وتنعمى وتلقَىْ نماء بيننا وترعرعا
ولكن موتاً لست أملك دفعه طواك وولى يابنية مهرعا
فكنت كبدر التم يمكث بيننا قليلا ويعروه المحاق مودعا
وكنت كنور الروض إبان فصله يظل نضيراً ثم يمحل مسرعا
دعتك شَعوب فاستجبت نداءها وسامتك نزعا ما أشق وأفظعا
وغالتك منا ماتريم وما تنى وأولتك منها بعد ذا الأين مصرعا
وأُلفيتِ بعد الحسن والحِىّ والسنَّا صريعة موت قد سطا بك مفزعا
فيالك من زَوْر تربص جاهدا بتأريث حزن خب فيه وأوضعا
ويالك من زور تشبث ملحفا بحبة قلب ماعداها وما رعى
ويالك من زور ثقيل ، وطارق وبيل ، وضيف ما أضل وأبشعا

٭٭٭

أقول وقد أضنى بعادك إخوة صغاراً وثكلى ماتكفكف مدمعا
وحيدتها زفت إلى القبر عاجلا فباتت بِهِمّ ما أحر وأوجعا
أيا ربِّ رفقاً بالِحزان ورحمة وثوباً إلى الصبر الجميل ومرجعا
فليس لنا من دون حكمك موئل وليس لنا أن نستزل ونجزعا
ولكنما الأولاد منا ، وثكلهم أليم ، وشأن الحى أن يتروعا
فنلقى التياعاً للمصائب مجريا دموع عيون لن تقر وتهجعا
ففى رحمة الله العلى وعفوه تلاقين براً دائما وتمتعا
وتلقين رباً للخلائق بارئا يميت ويحيي من يشاء منوعا
عليك سلام الله قد كنت مُنية وقد كنت آمال المكارم أجمعا

عبد الحى شرف الدين

وأذِّنْ فى النَّــاسِ بالحجّ

بقلم عبد العزيز سيد الأهل

المدرس بمدرسة محمد على الابتدائية للبنين

هَتَفَ الدَّاعى فَلَبِّ الداعيَا أيُّها المسلِمُ ، وانهَضْ ساعيا
وَانسَ دُنْيَاكَ قليلاً ، إنّها سوف تلهو عنك ، فاسبِقْ لاَهيَا
وَاخْلَع الثَّوْبَ الذّى جَمَّلْتَهُ قبلَ أن تمسىَ منهُ عارِيَا
واسْعَ للهِ بريئاً طاهراً خاشع الطرْفِ ذَليلاً راجيَا
غبِّرِ النَّعْلَيْنِ فى طاعتهِ إنّ (موسى) قد أتاهُ حافيَا

✡ ✡ ✡

يَمِّم الأرض التى قد شَرُفَتْ بالنَّبِيِّينَ وجلّتْ واديَا
جال (إبراهيم) فى أنحائها وابْتَنَى البيتَ العتيقَ العاليَا
والذَّبيح امتَثَل الأمرَ بها فحباهُ اللهُ منه الفاديَا
ومشى (جبريل) فى حصبائها بالهدى يَلْقى الأمينَ الهاديا

✡ ✡ ✡

يا بنفسى بَلداً لو زرتُهُ نِلتُ فيه من مُنَاى الزاهيا
أطرحُ الآثامَ فى مُطَّرَحٍ يُسْبِلُ السِّتْرَ عليها ضافيا
وأعودُ الْغَدَ ـ لا تثْقلنى ـ جسداً طُهْراً ، وجيداً حاليا
بحّ صوتى أطلب الدنيا فلم أر فيها بعضَ يومٍ صافيا
ليت لى فى عرفاتٍ بُحّةً ويكون الله عنى راضيا
وحصًا أقذِفه مزدلِفاً فى فم الشيطان نبلاً راميا
طال يا قومىَ ما وسوس لى فلأُذِقْهُ بعض ما أغوانِيا

✡ ✡ ✡

أيهـا المسلم ، ما أسعـدها ذكريات وزماناً هانيا
يوم تنوى الحجَّ للبيت ترى طِفلةً تشدو وطِفلا شاديا
ونساء الحىِّ حين اجتمعت تنشدُ الحىَّ فتروى الصاديا
وحديثاً عن مَغانى مكةٍ هزجَ الأنغام حلواً شافيا
وقلوباً صُوِّرتْ منْ ولَهٍ شاكيات مسمعات شاكيا
تتمنى (زمزماً) أو (كوثراً) تعبُران البحرَ طيفاً ساريا
ساخراً بالموج قيدُومهُما ماضياً فى الموج سهْماً ماضيا
لَهُما من عزم (حرب) عزمةٌ تَشعُرُ البحرَ رزيناً ساجياً

٭٭٭

أيها المسلمُ ، أسرعْ طائعاً هتف الداعى فلبِّ الداعيا
وإذا الكعبةُ طوّفْتَ بها ودعوتَ الله فيها باكيا
فابتهِلْ وادعُ لمصرٍ قائلاً : ربِّ فانصُرْها ونجِّ الواديا

عبد العزيز سيد الأهل

المتنبى بعد ألف عام

بقلم الأديب عبد الرحمن الكيالى

الطالب بدار العلوم والحائز للجائزة الأولى للشعر فى عيد الوطن الاقتصادى

دعوة قد لج فى الكون صداها لست أدرى أين يغدو منتهاها
هتفتْ بى وأنَا فى سِنةٍ فتراءى لىَ عن بعد سناها
مُشرقاً كالفجر فى طلعته قبسٌ يبعث للنفس هداها
أين هذا النور ؟ ما مطلعه ؟ كيف يبدو فى ظلام ما تناهى !
يملأ الأفق مضيئا ساطعا ونجومُ الليل لم تبرح مداها
فاض كالبحر شعاعا خِلتُهُ حُلَّةً زينت الكون حلاها
ما أرى ؟ مطلعُ فجر صادق أم عيون الشعر قد فاح شذاها
أم نبى الشعر من مرقده هبَّ ، يستوحى القوافى من سماها
مرعـداً تحسب فى منطقه زأرة الليث إذا ما الليث تاها
شاعر مـذ رتلت آياته رقص الدهر طروبا من غناها
إن تغنى أو شدا مزماره خلت أن السحر بالأشعار فاها
أيقظ الأيام من غفلتها فغدت تثمل من فن أتاها
سكر الصبح على أنغـامه وهَمَى الغيث شجيا من حداها
وسرت ريح الصبا ناعمـة ذات لحن هز فى الأرض رباها
علم الطير على أغصانهـا نغمة تقصى عن العين كراها
ومشى فى البحر ، فارتاحت له سفن البحر ، وماست فى دجاها
ورنا الموج إلى ترجيعـه خاطرا يحكى الغوانى فى مِشاها
هامسا فى أذن المـاء : لقـد بز هذا الشاعر الفرد المياها

من رأى الصياد فى غدوته ... يطاب الظبية فى بطن فلاها
رائغاً يرمى إليها نبـــله ... فتطيش النبل من حيث رماها
حائراً قد ضل فى بيـــدائها ... وهى قد غابت، فما عاد يراها
ضلت الطير على آثارها ... وعتاق الخيـــل قد كلت وراها
وسعت أكلبه فانكفأت ... تقرع السن لدُن خاب رجاها
ورأى أحمدَ يدعو شُرَّداً ... من معانيـه، فتعنو إذ دعاها
وقفت إذ رامها جامدة ... قيدت أفكارُه كلَّ خطاها
نافذ الرأى بعيـــداً غوره ... لا ترى فيـه التباسا واشتباها
يهتدى فى لجـــة البحر إلى ... درر الشعر، إذا الغواص تاها
ويروم النجم يبغى جاهدا ... أن يرى أخمصه فوق ذراها!
ناعم القول إذا لاَينتهُ ... ولظى تصهر من رام أذاها
يقصد المقتل لا يخطئه ... بسهامٍ مرهف الطبع براها
ولسان بات يفرى غربه ... سدَّة الملك إذا رام عِداها
صارم كالسيف، ماض حده، ... صائب من عزة الخصم كلاها
قد رمى كافورَ من منطقه ... بسهام ناقعُ السم غذاها
وتعالت بابن حمـــدان له ... مدح قد لثم النجم ثراها
بطل فى الحرب إن أبصرته ... فلقد أبصرت فى الحرب فتاها
خائض فى كل مضمار إلى ... غاية السبق فلا يرجو سواها
دبت الحكمة فى أعطافه ... كدبيب الماء فى أرض سقاها
فهو ما ينفك فى أربعها ... راتعا يقطف من طيب جناها
خالد فى الدهر ما حنت به ... ساجعات أوقد القلب شجاها
سائر فى كل واد شعرُه ... سريان النشر فى البيـد طواها
هاطل كالمزن فى تهتانه ... تجد الدنيا من السقم دواها

شائع كالضوء فى أطيافه بسمة للصبح مخضوب لماها
وترى الأيام سالت أدمعا حين تهمى مقلتاه من بكاها
موحش كالليـــل فى أحزانه ان رثى النفس فأبلى فى رثاها
وربىء صغرت فى عينه دارة الأفلاك وانحط علاها
مشرف طورا على أطوادها وسبوح تارة فوق فلاها
طاعن الأيام والناس معا وحده ، والنفس ماخارت قواها
فتولى وسنان الرمح من دمها كالنـار محمراً لظاها
لم تزده ألف حول فى الدنى غير ذكر زاد فيضا عن هواها
فهو ما ينفك أستاذا لمن هز بالشعر يراعا أو شفاها
ذل أن يلحق « هومـــيرُ » به كيف تعلو أعين الناس الجباها
شاعر العرب ، إمام القول فى دولة الشعر ، عمود فى بناها

٭٭٭

يا نبيّ الشعر هل من نفحة تنقذ الأشعار مما قد دهاها
لا كها اليوم أناس ركبوا لجة الليـــل فضلوا فى عماها
أدعياء صدئت أنفسهم فغدت ألسنهم باد صداها
تخدش الآذانَ من منطقهم نغمةُ الأنثى إذا الخصم سباها
جهلوا الشعر ، وظنوا سفها أنهم قد أحرزوا بالنظم جاها
أين من يسبك تبرا خالصا من دعيٍّ بنحاس يتباهى ؟

عبد الرحمن السكبالى

الكَرَامَـــة

بقلم فرحات عبد الخالق
المدرس بمدرسة كوم حماده الابتدائية

آثرَ المرءُ فى الحيـاة السَّلامَهْ فاشـتراها ، وباع فيهـا الكرامَةْ
قلَّ فى الناس من أراه أبيًّا لم يسلِّمْ إلى الهوان زمامه
أشربَ الخائرُ الجبانُ نفاقا ملأَ القلبَ منـه حتى صمامه
إذ رأى معْبر الصراحة وعرا قد يلاقى الإنسانُ فيه حمامـه
واستقلَّ الفتى الشجاعُ بقلب بَذَّ عنـد النزال قلب أُسامه
عِزَّهُ والحياة صنوا وجودٍ من رمى عِـزَّه بَغَى إعدامه

⁂

لى رئيس ، لا كان يوماً رئيسا ، أتمنى من الرءوس انفصامه
لا لحقد ـ قد طهَّر الله صدرى ـ إنما عبت فى الرئيس أثامه
ما تجنَّيْتُ إذ لويْتُ عليـه شهد الله ، أو هدرت مقامه
للرئيس الـكريم منى انقياد واحترام ، إذا استحق احترامه
أن أطيع الرئيس أمر حـلال يوم يدرى حـلاله وحرامه
فاذا سـدَّد الرآسة سهما لاهتضامى،فكيف أرضى اهتضامه
فإذا ما عصيت أمراً فويلى إذ أراه مجـرداً صمصامه
صاحِ ، قل لى ، فأين يذهب رأيى أفأخشى من الرئيس انتقامه ؟
فألاقى تكبراً بخضـوع وأدارى تغيُّظا فى ابتسامه
أم أجازى الرئيس ، كيلاً بكيل وأجازى صرامـةً بصرامه
وليكن ما يكون من أمر ربى إنه العـدْلُ لا يقر ظلامه
وعلى الله لا على الناس رزقى كفل الله فى العبـاد اقتسامه

صاحِ ، إمّا خسرتُ رزقى فحسبى غُنْمُ عقلى . وما أجلَّ اغتنامه
لا أُحبُّ الحياة والسعد ذيلا وأحب الحياة والبؤسَ هامه
عاشقا غابة الجحيم هزبرا كارها جنة النعيم نعامه

* * *

أيها القادة الذين وليتم من أمور العباد أمرَ الزعامه
إن للشعب ـ لو قدرتم ـ حقوقا عظّموها فتبلغوا إعظامه
نشّئوه على الكرامة ، أوْ لا كيف تأتى إلى النفوس الكرامه ؟
وأراكم تسائلون : لماذا لم تهذّب أخلاقنا ، وإلى مه
فتجيب الأخلاق : منكم عُلانا وعليكم إذا هبطنا الملامه

فرحات عبد الخالق

المـــذياع

وشادٍ ولـكن بغـــير الغصون   من الحفْـل فى جانب ينْـصَبُ
شبيهٌ الحقيبـــة فى شكله   يضجّ به البيت والمَشرب
له أُذن تجـــذب (الكهرباء)   فتشهـد (تيَّارها) يسْكَبُ
متى حرُ ّكت جال فيه الزئير   زئيرُ الأسود إذا تَغْضَبُ
كأنّ به ثورة للرياح   يخالطها المطر الصـــيب
متى هـــدأت ومضى عصفها   بدا نَغَم منـه مسْتَعْذَبُ
وتدفعها فيكُفّ الحـــديث   إذا كنت عن سمعه ترغب
وأخرى تَحُدُّ مدى جَرْسِه   فينأى بها الصوت أو يقرب
إذا حرُ ّكتْ غض من صوته   وإن فُرِكَتْ عكسها يصخب
تظل تُحرّكُ آذانـــه ..   فيأتى هـواك كما ترغب

٭٭٭

خطيب يؤثر فى السامعين   بليغ بألبـــابهم يلعب
رسول إلى الخلق المرتضى   وبحر من العـلم لاينضب
وآناً يرجّـع عـذب الغنـاء   كما رجّع الصادح المطرب
إذا أرسل الشرق ألحـــانه   حكاها ، فأصغى له المغرب
كأنّ المـذيع بجثمانه   على النـاس من جوفه يخطب
له فى المنازل فضل المعلّـ   ـم فى حَلْبةِ الدرس ،كم ينجب ؟
أذاع الثقافة فى جوّها   فكان له الأثر الطيب
رسول «الاثير» له خادم   يشق الفضاء ولا يتعب
تؤدى البـريد له (موجـة)   من البرق فى ومضه أقرب
كأن الوجود على كفها   فسيان (باريس) أو (يثرب)

على شرف الدين

المدرس بمدرسة دمياط الابتدائية للبنين

المُعَـــلِّم

بقلم عبد الستار سلام

المدرس بمدرسة الأميرة فوزية الثانوية

راحت تزهدنى فى مهنتى ، وغدت   ترغى وتزبد فى لومى وتانيبى
تقول : يا ويلتا مما تكابده   وما تقاسيه من سُهد وتعذيب !
كأن عبئك طود ما نهضت به   إلا قعدت لإدلاج وتأويب
ولو خلقت حديدا مااحتملت كما   قد حملوك ، ولم تنهض بمطلوب
فيا لهول الذى تلقاه من كَبَدٍ   ويا لجهد عنيف منك مسلوب !

ooo

تقضى نهارك فى كدّ وفى نصب   وفحمةَ الليل فى بحث وتنقيب
وتقطع العمر فى بذل وتضحية   ما بين درس وشرح ثم تعقيب
تملى وتكتب لا كلا ولا وكلا   ولا ضنيناً بإرشاد وتصويب
بل تنثر العلم آيات منظمة   شيئا فشيئا وتدريبا بتدريب
فما سئمت حوارا طال أو جدلا   ولا عييت بمقروء ومكتوب

ooo

كأنما أنت مثل النحلة انبعثت   تجنى جنى الزهر فى جدّ وتطريب
قد شاقها نُزُل هبّت تنسقه   تنسيق ذى خبرة للفن منسوب
لو رحت تنعم فيما نسقت نظرا   لقلت : أعجوبة بين الأعاجيب
فهل رأيت مشيجا فضة ذهبا   أو قد بهتّ لنظم أو لتثقيب ؟
در نضيد وفيه الشهد منسكب   فهل عجبت لمنضود ومسكوب ؟
تبارك الله ! بالإلهام علمها   ما يجهل الناس من مُردٍ ومن شيب

ooo

تبنى العقول كما تبنى النفوس على غُـر الخلال بإحكام وترتيب
تصوغها كالـلآلى فى تألقها وكالرياحين فى نشر وفى طيب
وبالمعارف تغـذوها وتنهلها إنهال روض بأفواق الشآبيب
حتى ترى العلم قد جلّى غياهبها والعلم كالصبح يجلو كل غربيب
فإن تأبّت وولت منك جامحة طفقت تعمل أشتات التجاريب
ولا تزال بهـا حتى تروّضها كما تروّض هوجاء اليعابيب
بالرفق واللين، لا بالعنف، إنهما أجدى على الطفل فى زجر وتأديب
سياسة الملك قرت فوق عرشهما ولا تقر على بطش وترهيب

☆☆☆

وكم تشاهد من طيش ومن نزق ومن مناظرَ أدنى للألاعيب
يحوكها نفر بالدرس قد برموا فأصبحوا عطلا مثل اليعاسيب
إن قمت تسألهم : مابالهم شغلوا بدميـة أو بعـود أو بأنبوب ؟
جاءوا إليك بأعـــذار منمقة أو هى وأضعف من نسج العناكيب
وهم لعمرك ما راموا ولا قصدوا إلا المزاح وإضحاك الأصاحيب

☆☆☆

تقوم تخطب لا قس بن ساعدة وافى عكاظ خطيبا فى الأعاريب
ولا زياد وقـد رجّت مواعظه أرض العراقَين من هول وترعيب
بل أنت أبعـد شأوا منهما، ولقد أدركت شأوك فى نصح وترغيب
ما ضقت بالصفح بعد العذر، إنهمُ قد عاهدوا الله عهدا غير مكذوب

☆☆☆

من كالمعلم فى جهد ومصطبر وفى اضطلاع بتثقيف وتهذيب ؟
الله هيأه للنشء ينبته على الفضيلة فى أبهى الجلابيب
أمانة حَمَلَتْهـا قبـــله رسل ماآذنت شمسهم يوما بتغريب

كانوا الهداةَ، وكانوا المرشدين، كما … كانوا أولى العزم فى طب وتطبيب
وفى الشمائل كانوا الزهر مبتسما … وفى المكارم كانوا كالأهاضيب
بثوا العلوم فكانت للنهى قبسا … جلا الظلام وجلّى كل محجوب
فكل ما قد ترى فى الكون من عجب … أساسُه العلم فى سمك وتطنيب

☆☆☆

قام المعلم يحذو حذوهم، ومضى … موفَّق الخطو فى لأى وتقريب
يقود ناشئة للمجد طامحة … إلى طريق العلا من غير تنكيب
وهم غداةَ غدٍ للنيل عدتُه … وهم أولو أمره من غير تثريب
فكم ترى بينهم من نابهٍ بطل … عالى الجناب، مطاع الأمر مرهوب
يحمى الحمى ويذود الشر عنه، كما … يُجرى الأمور برأى منه مشبوب
ولو تولى مقاليد القضاء لما … أبصرتَ غير فتى للعدل موهوب

☆☆☆

فأين أين المربِّى بعد طول مدى … وبعد ما شاب فى صقل وتشذيب؟
وبعد أن صاغ أقطاب الرجال، ولم … ينعم بجاه، ولم يهنأ بمكسوب
قد قلَّب الله أحوال العباد على … شتى الوجوه، ولم يشعر بتقليب
لقد نسوه فما مدُّوا له سببا … من الرجاء لمأمول ومرغوب
كأنه همزة فى البدء قد ذكرت … لكنها حذفت بين التراكيب!

عبد الستار سلام

في الفلسفة

نظرية الوسط في الفضيلة
بين فلاسفة اليونان وفلاسفة المسلمين

بقلم محمد مهدي علام
المفتش بوزارة المعارف وعضو المكتب الفني بها

تمهيد: نظرية أرسطاليس في الفضيلة:

لقد كتب أرسطاليس عن الفضيلة كتابة خلدت على الدهر؛ ومهما يكن ماقيل في نقدها فإنها جديرة بالدرس والإعجاب. وسنتناول في هذا التمهيد ملخصا وجيزاً لتعريف أرسطو للفضيلة ورأيه في فطريتها، وفي شروطها. ثم ننتقل إلى الكلام في نظرية الوسط، معتمدين في تصويرها على كتابة أرسطاليس وشراحه. ثم ندلي بنقدنا الشخصي للنظرية. وبعد ذلك ننتقل إلى ما كتبه المسلمون في هذه النظرية معقبين عليه برأينا فيه.

تعريف أرسطو للفضيلة:

يعرف أرسطو الفضيلة على النحو الآتي:

فضيلة كل شيء هي ما يُتم حسن استعداده لأداء عمله وتنفيذه على الوجه الأكمل، كفضيلة العين، وفضيلة السيف، وفضيلة الحصان: ففضيلة العين أن تبصر على أكمل وجه، وفضيلة السيف أن يكون بتارا يقطع على أكمل وجه، وفضيلة الحصان أن يجري ويحمل فارسه ويقاوم العدو على أكمل وجه. وفضيلة الإنسان كذلك هي الحالة الخلقية التي تصيره رجلاً صالحاً، رجلا خيّرا بحيث

يؤدى وظيفته فى الحياة على أكملها . (كتاب ٢ باب ٦ فقرات ٢ — ٣)[1]

فطرية الفضيلة :

وهو يرى أن الفضائل ليست طبيعية فينا ، وإلا عجزنا عن تغيير طبائعنا . فالعادة لا تستطيع أن تغير ما هو فطرى : مَثَلُ ذلك مَثَلُ الحجر الذى يهوى بطبيعته إلى أسفل ، فإنه لا يمكن أن يتعود الصعود ولو حاول به المرء ذلك ألف مرة : وكذلك النار فطرتها الصعود بلهبها ، ولا يمكن أن تتجه إلى أسفل ؛ وليس فى الوجود جسم واحد يمكن أن يفقد خاصته التى تلقاها من الفطرة ، ليستبدل بها عادة جديدة (ك ٢ ب ١ ف ٢) .

وهو كما يرى أن الفضائل ليست فينا بالطبع ، يرى كذلك أننا لا نكتسبها على الرغم من الطبع : فالطبع أو الفطرة تجعلنا قابلين لها ، والعادة تنميها وتتمها فينا ؛ فليس لدينا من الفضائل أول الأمر إلا الاستعداد لها ، والقدرة على مزاولتها ، وبعد تلك المزاولة تنتج أفعالها . وشأننا مع الفضائل يخالف شأننا مع الحواس ؛ فنحن لم نكتسب حاسة الإبصار ، ولا حاسة السمع ، بكثرة النظر ، ولا بكثرة السمع ، ولكننا نظرنا وسمعنا ، لأننا خلقنا ومعنا هاتان الحاستان . أما الفضائل فاننا لا نكسبها إلا بعد المرانة والمزاولة شأنها فى ذلك شأن الفنون ؛ فالمرء الذى يزاول صناعة الهندسة يصبح مهندسا ، والرجل الذى يمارس مهنة الموسيقا يضحى موسيقياً . وكذلك الرجل الذى يقيم العدل يصبح عادلا ، والذى يزاول الحكمة يغدو حكيما ، والذى يتعود الشجاعة يصبح شجاعا . (ك ٢ ب ١ ف ٣ — ٤)

شرط الفضيلة اللذة :

ويشترط أرسطو فى الفضيلة الشعور بالسرور فى مزاولتها ، فيقول :

(١) فى كتاب الأخلاق إلى نيقوماخوس : « Ethica Nicomachea »

وقد أشرنا عقب كل موضوع إلى رقم الكتاب والباب والفقرة ، لأننا لم نتبع الترتيب الأصلى الذى فى كتابة أرسطاليس ، لما فيه أحيانا من استطراد وتكرار وتقديم وتأخير .

إن العلامة الظاهرة التى تكون بها الفضيلة فضيلة ، هى الشعور باللذة : فالإنسان الذى يمتنع عن متع الجسم مرتاحاً لهذا الامتناع ، هو المعتدل أو العفيف ؛ أما المرء الذى لايجحد نفسه تلك اللذات إلا بأسف عليها ، فليس على الحقيقة عفيفا ؛ (١) والإنسان الذى يقتحم الأخطار مسروراً مغتبطا، هو الشجاع ؛ أما الذى يقتحمها مضطربا حزينا فجبان . (٢) من أجل ذلك ينصح أرسطاليس ، بما نصح به أستاذه أفلاطون : من أنه ينبغى أن يوجه الطفل منذ نعومة أظفاره إلى حسن اختياره مواضع السرور والألم . (ك ٢ ب ٣ ف ١)

ولا شك أنهما على حق ؛ لأن سر النجاح فى الحياة الأخلاقية هو أن يعلم المرء كيف يحسن التلذذ والتألم .

نظرية الوسط :

يرى أرسطاليس أن الفضيلة وسط بين طرفين ؛ فالأمر فى الفضيلة كالحال بالنسبة لقوة البدن والصحة : فالمغالاة فى التمرينات البدنية أوالتقصير فيها ، كلاهما يودى بالقوة . وكذلك الشأن فى المأكل والمشرب ؛ فإن الزيادة فى الأطعمة على القدر اللازم ، أو النقص فيها عنه ، كلاهما يضعف الصحة ؛ وليس يحفظ الصحة وينميها إلا القدر اللازم الذى هو بين هذين الطرفين . وهذا هو الشأن فى العفة والشجاعة وغيرهما من الفضائل ؛ فالإنسان الذى يخشى كل شىء ، ويفر من كل شىء ، ولا يحتمل شيئا من المكاره ، جبان . كما أن الذى لايخاف شيئا البتة بل يقتحم جميع الأخطار بلا اكتراث ، متهور . والشجاع هو الذى يتوسط بين هذين الطرفين . كذلك الرجل الذى يستمتع بجميع اللذات لا يجحد نفسه واحدة منها ، فاجر ؛ والذى يتحرج ويتأثم فيتقيها جميعها ، خامد الحس معطل

(١) تدبر المثل العربى : « من العفة ألا تجد » وقول الشاعر العربى :

عفافك عجز ، إنما عفة الفتى إذا عف عن لذاته وهو قادر

وكذلك المثل الإنجليزى : « أن تتخذ من الضرورة فضيلة »

« Making a virtue out of necessity. »

(٢) وتدبر كذلك المثل العربى : « مكره أخاك لابطل » .

الشعور . والعفيف هو الذى يتوسط بين هذين الطرفين : فالشجاعة والعفة ، كغيرهما من الفضائل ، تضيعان بالإفراط والتفريط . وتتحققان بالوسط . (ك ٢ ب ٢ ف ٦) .

نشأة نظرية الوسط :

أجمع مؤرخو الفلسفة على عزو نظرية الوسط إلى أرستطاليس ، وهم فى ذلك على حق ؛ لأن أرسطو هو أول من تكلم فى الوسط كلاما علميا ، بل هو آخر من قال الكلمة الفاصلة فيه .

غير أن من الإنصاف أن نذكر أن **فكرة** الوسط سابقة **لنظرية** الوسط ؛ فليس فى استطاعتنا أن ندعى لأرسطو ابتكار فكرة الوسط ، مهما حق لنا أن ندعى له ابتكار نظرية الوسط . وحسبنا فى التدليل على ذلك أن فكرة التوسط فى الأمور ، وكونها خيرا ، بل كونها أفضل الأحوال ، قد وردت فى كتاب (الجمهورية) لأفلاطون أستاذ أرسطو ، فى المواضع الآتية (١) :

١ — الكتاب الثانى فقرة « ٣٥٩ »

يقول أفلاطون (على لسان غلوكون) فى تحديد طبيعة العدالة وأصلها : « إن الظلم بطبيعته خير ، ولكن احتماله شر ، لأن الشر الناشىء عن احتماله يربو كثيرا على الخير الناجم عن اقترافه ؛ ولذلك بعد أن ظلم الناس بعضهم بعضا زمنا طويلا ، واحتملوا ثقل وقعه على النفوس ، وخبروا كلا من العدالة والظلم — رأوا أن الأفضل أن يتفقوا على ألا يظلموا ولا يُظلموا . هذا منبت الشرائع . وأصل المعاهدات بين الإنسان وأخيه الإنسان . فزعموا ما أوجبته الشرائع عدلا . كذا يؤكدون أن هذا منشأ العدالة وطبيعتها ؛ فهى حلقة متوسطة بين الأفضل المطلق ، وهو أن يَظلم الناس دون عقوبة . وبين الأسوأ المطلق ، وهو أن ينظلموا دون القدرة على الانتقام ؛ فالعدالة مرغوب فيها لكونها وسطا بين هذين الطرفين . »

(١) اعتمدنا فى ترجمة نصوص الجمهورية هنا وفيما يلى على التراجم الإنجليزية المنقولة عن النص اليونانى ولا سيما ترجمتى Spens و Jowett

٢ — الكتاب الثانى فقرة « ٣٦٤ »

نقل أفلاطون شعراً لِهسيُود يدل على أن الفضيلة قمة صعب مرتقاها ، أما الرذيلة فميدان فسيح يسهل على كل إنسان المرورفيه ، وسيأتى بيان ذلك عند كلام أرسطو على أن الفضيلة ذروة وقمة . وقد ترجمنا فيما يلى شعر هسيود المذكور :

ما أسهل الشر تجنيه بلا تعب   بابُ الرذيلة باب غير ذى غَلَقِ
طريقها مُرْتقَى سهل الصعود . وفى   أهدافها طَلَق من كل مستبق
أما الفضيلة فالأخطار تكنفها   دون الوصول إليها نقطةُ الأفق

٣ — الكتاب الرابع فقرة « ٤٢١ »

يقول أفلاطون (على لسان سقراط) وهو بصدد الكلام عن حكام مدينته الفاضلة ، أو فردوسه الأرضى : « أليس خير الأمور الوسط للصناع ؟ فينبغى أن يكون لديهم من المال ما يكفى لشراء أدواتهم ، لا ما يكفى لإترافهم وجعلهم فى غنى عن العمل . أو ليست هذه الحالة خيرا لحكامنا كذلك ؟ فإن كانوا فقراء مدقعين كانوا أذلاء منحطين ، وإن كانوا أثرياء كانوا كسالى مترفين ؛ وما كانوا فى كلتا الحالتين من القانعين . »

٤ — الكتاب الثامن فقرات « ٥٥٧ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ »

ويقول أفلاطون بصدد الكلام فى أنواع الحكومات : « إن كل شكل من أشكال الحكومة يجنح إلى الانحطاط والاندثار ، إذا بولغ فى تطبيق المبدأ الأساسى الذى يقوم عليه : فحكومة الأشراف « الأرستقراطية » لا تلبث أن تتلاشى إن نحن أسرفنا فى تطبيقها فضيقنا دائرة الأشراف وبالغنا فى تحديد الطبقات التى يحق لها أن تتولى الحكم . وكذلك الشأن فى حكومة الشعب « الديمقراطية » فإنها بتطرفها فى شعبيتها أو « ديمقراطيتها » تقضى على نفسها ، فالحرية المتطرفة لا يمكن أن تفضى إلا إلى استعباد متطرف ، سواء فى ذلك الدول والأفراد . وإن أوسع حرية لهى التى تمهد السبيل لأذل استبداد وأثقل استعباد . »

٥ — الكتاب العاشر فقرة « ٦١٩ »

ويختتم أفلاطون جمهوريته فى الكتاب العاشر بوصيته عن الحياة الفاضلة فى الدنيا والآخرة فيقول : « فليعرف المرء كيف يختار الوسط ويترك طرفى الإفراط والتفريط ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، لا فى هذه الحياة فحسب بل فى كل ما يتعلق بالحياة الآخرة كذلك ، فذلك هو السبيل الوحيد للسعادة. »

من هذا يتضح لنا جلياً أن « فكرة » الوسط ليست من ابتكار أرسطو ولكنه مع ذلك صاحب « نظرية » الوسط غير مدافع .

معنى الوسط :

يقول أرستطاليس : إن هذا الوسط ، الذى هو الفضيلة ، ليس واحداً بالقياس إلى جميع الناس ، وليس هذا التوسط توسطا رياضيا ، بل هو توسط إضافى . لأنه إذا كانت عشرة أرطال من الطعام بالنسبة إلى شخص بعينه أكثر مما ينبغى ورطلان من الطعام بالنسبة له كذلك ، أقل مما ينبغى ، وكانت ستة أرطال هى الوسط المطلوب له — فليس معنى هذا أن ستة أرطال من الطعام هى مقدار صالح لكل شخص من الأشخاص ، فقد تصل بإنسان إلى حد التخمة ، على حين قد تنزل بآخر إلى حد المخمصة .

كذلك الوسط الأخلاقى ليس مطلقا ، وليس واحداً بالنسبة لجميع الأفراد . بل على كل عاقل أن يبحث عن الوسط الملائم له ، فإن ذلك الوسط القويم السعيد هو الذى يصل به إلى درجة الفضيلة .

من أجل ذلك إذا أريد مدح شىء متقن قيل إنه لا يمكن أن يزاد عليه شىء ، ولا ينقص منه شىء . كأنما قيل : إذا كان الإفراط والتفريط يضيّعان الكمال ، فإن الوسط وحده هو الذى يحققه .

وقس على ذلك الخوف ، والإقدام ، والرغبة ، والكره ، والغضب ، والرحمة ، فى كل هذه الوجدانات قدر أكثر من الوسط وقدر أقل منه . وكلا الطرفين

قبيح . أما أن يعرف المرء الشعور بهذه الوجدانات على ما ينبغى ، تبعاً للظروف وتبعاً للأشياء ، وتبعاً للأشخاص ، وتبعاً للعلة ، وأن يعرف القدر المطلوب الخ .. فهذا هو الوسط القويم ، هو الكمال الذى لا يتحقق إلا فى الفضيلة . (ك٢ب٦ف٥-١١)

الفضيلة قمة وطرف :

ويرى أرسطو أن الفضيلة مرقى صعب . فنى استطاعة المرء أن يسىء السلوك بألف طريقة ، على حين أنه لا يستطيع أن يحسن السلوك إلا بطريقة واحدة(١) أليس من أسهل الأشياء أن نخطىء الهدف ومن أصعب الأمور أن نصيبه ؟ (ك ٢ ب ٦ ف ١٤ — ١٥) فما أشبه الفضيلة التى هى الوسط ببؤرة الضوء ، والرذيلة التى هى ماعدا الوسط بحاشية الضوء التى لا حد لها !

وبذلك يقول أرسطو : إن الفضيلة — التى هى وسط بين طرفين — قمة ، وطرف ، ونهاية ، باعتبار آخر ؛ هو اعتبار أنها أعلى درجات الكمال والخير (ك ٢ ب ٦ ف ١٦) . ويمكننا أن نرمز إلى فكرتيه عن الفضيلة بالرسمين الآتيين :

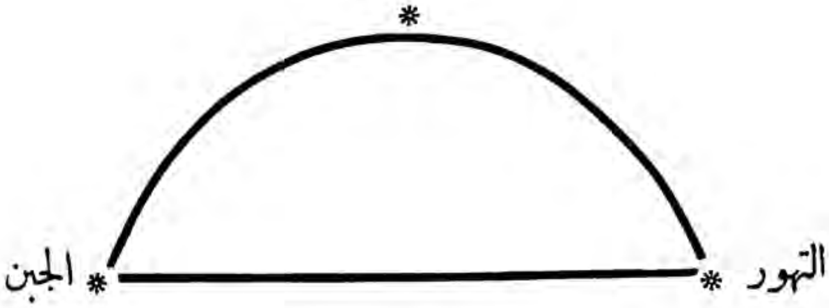
تصوير الفضيلة وسطا بين طرفين

الشجاعة



تصوير الفضيلة قمة

الشجاعة



(١) راجع شعر هسيود الذى اقتبسه أفلاطون وترجمناه فى تاريخ نشأة هذه النظرية .

وبذلك تكون الفضيلة فى ذروة لا يصل اليها إلا القليل المجاهدون لأنها تصبح كمركز الدائرة ليس العثور عليه ميسوراً لجميع الناس . فبذل المال سرفا أمر ميسور لكل إنسان ، وحبس المال شحاً أمر كذلك لا يكلفنا جهداً ولا مشقة . ولكن التمييز بين من يجب أن تمنح ، ومن يجب أن تمنع ، وبين المقدار الذى ينبغى أن تبذل ، والمقدار الذى ينبغى أن تحفظ ، وبين الوقت الذى تبذل فيه والوقت الذى تحبس فيه - كل ذلك عمل شاق ليس من السهل معرفته . من أجل ذلك كان الخير شيئاً نادراً وممدوحاً وجميلا . (ك ٢ ب ٩ ف ١ — ٢)

الشرور الذاتية :

وإذا تأملنا فى هذه النظرية ألفينا أن بعض الشرور لا تخضع لها ، فليس لها طرفان بينهما وسط هو الفضيلة . ولقد أدرك ذلك أرسطو فقال : إن من الشرور شروراً ذاتية لا صلة لنظرية الوسط بها . فهى فى أية درجة من درجاتها . وعلى أية صورة من صورها شرور مرذولة . فمن ذلك الشماتة ، والحسد ، والزنا ، والسرقة ، والقتل . فالقتل جريمة مرذولة فى أى وقت ، وأى مكان ، ولأى شخص ، وبأية آلة ، ولأى سبب[١] فحكم هذه الشرور حكم الرذائل التى هى أطراف ، بمعنى أنه لا يصح أن يكون لها إفراط ولا تفريط ، وإلا لزم أن يكون للإفراط إفراط وللتفريط تفريط . (ك ٢ ب ٦ ف ١٧ — ١٩)

الفضائل التى طبق عليها أرسطو نظريته :

وقد طبق أرستطاليس نظرية الوسط على الفضائل التى نجمعها فى الجدول الآتى :

---

(١) إلا القصاص طبعا ، على أنه لا يسمى عادة قتلا . ولقد يكون للقتل ظروف مخففة ، كما يكون للسرقة والزنا — زنا المحصن وغير المحصن — ولكنه يظل قتلا ، وسرقة ، وزنا ، يحمل عبء الرذيلة ويتلون بلونها البغيض .

الإفراط (رذيلة)	الوسط (فضيلة)	التفريط (رذيلة)
التهور	الشجاعة	الجبن
الفجور	العفة أو الاعتدال	خمود اللذات أو عدم الحس
الإسراف أو السفه	السخاء أو الكرم	البخل
الوقاحة أو الغطرسة	الكرامة أو عزة النفس	الذلة أو ضعة النفس
الشراسة	الحلم	الفتور أو البلادة
التنفُّج أو المبالغة	الصدق	التحفظ أو التعمية
السخرية	البشاشة	الفظاظة
التملق	الصداقة	التشاكس أو الشكس
التبجح أو السلاطة(١)	الحياء	الخفر(٢)
حسد الغير على سعادته (أو الظلم)	العدل(٣)	الشماتة فى مصيبة الغير (أو الانظلام)

***

العلاقة بين هذه الفضائل (الأوساط) والرذائل (الأطراف):

ويرى أرستطاليس أن هذه الصفات الثلاثة — الفضيلة وطرفيها — متضادة بعضها مع بعض: فالطرفان مضادان للوسط، ويضاد أحدهما الآخر؛ والوسط مضاد لكل من الطرفين. وكما أن المتوسط الحسابى إذا قرن بالحد الأصغر كان أكبر منه وإذا قرن بالحد الأكبر كان أصغر منه — فكذلك الفضائل أو

(١) يرى ابن مسكويه تسمية هذا الطرف «الوقاحة».

(٢) ويرى كذلك تسمية هذا الطرف «الخرق» (بفتحتين) وهو فى اللغة: الدهش من خوف أو حياء، أو أن يبهت فاتحا عينيه ينظر، وأن يفرق الغزال فيعجز عن النهوض، والطائر فلا يقدر على الطيران.

(٣) الرذيلتان الناشئتان عن تجاوز فضيلة العدل هما: حسد الغير على سعادته، والشماتة بمصيبة الغير. وهذا رأى أرسطو. أما الظلم والانظلام فرأى أفلاطون وهو أوجه من رأى أرسطو.

الأوساط الأخلاقية فى نسبتها إلى حالات التفريط تظهر إفراطات ، وفى نسبتها إلى حالات الافراطات تظهر تفريطا ، وعلى هذا فالرجل الشجاع يظهر متهوراً إذا قرن بالجبان ، ويبدو إلى جانب المتهور جبانا . وكذلك المعتدل أو العفيف يبدو فاجراً إذا قرن بالخامد الذى لا يثيره مثير ويبدو خامداً إذا قرن بالفاجر . والسخى يبدو مسرفا بالإضافة إلى البخيل ، وبخيلا بالإضافة إلى المسرف . وكذلك الطرفان يقذف كل منهما بالوسط إلى الآخر ، فالجبان يسمى الشجاع متهوراً ، والمتهور يسميه جبانا ، وكذلك الشأن فى جميع الأوساط والأطراف .

على أن هناك أطرافا لها بعض المشابهة بالوسط ، فالتهور به شبه بالشجاعة ، وللسرف شبه بالسخاء . أما التضاد الأعظم فهو بين الأطراف بعضها لبعض .

وفى نسبة الطرفين إلى الوسط تارة يكون التفريط هو الأكثر تضاداً ، وتارة يكون الإفراط هو الأكثر تضاداً ، فأكثر الرذيلتين تضاداً مع الشجاعة ليس التهور الذى هو الإفراط ، بل الجبن الذى هو التفريط ، والأمر على عكس ذلك بالقياس إلى العفة ، فان أبعد الطرفين منها ليس خمود اللذات الذى هو حد التفريط ، بل هو الفجور الذى هو حد الافراط . (ك ٢ ب ٨ ف ١ — ٦)

ويشكو أرسطو من أن اللغة الإغريقية لم تشتمل على كلمات تدل على بعض الأطراف كخمود اللذات ، وكالفتور ؛ وسبب ذلك أن هذه الصفات بعيدة كل البعد عن ميل الإنسان ؛ فلم تحفز الحاجةُ اللغةَ لوضع ألفاظ لها . (ك ٢ ب ٧ ف ١١) ونحن نشكو هذه الشكوى عينها وللسبب عينه فى لغتنا العربية .

نصيحة أرسطاليسية :

وينصح أرسطو بأن يحمل المرء نفسه على الجهة المضادة لميوله : فإنا بابتعادنا عن الخطيئة التى نخشاها نقف فى الوسط . فالخطر الذى ينبغى اتقاؤه دائما هو الطرف الذى يرضى أهواءنا ، هو اللذة ؛ (١) ويجب أن يكون شعورنا نحو اللذة هو

(١) وفى ذلك يقول أبو بكر رضى الله عنه : « خير الخصلتين لك أبغضهما إليك » ويقول ابن المقفع « وعلى العاقل أن يعرف أن الرأى والهوى متعاديان ، وأن من شأن الناس تسويف الرأى وإسعاف الهوى فيخالف ذلك ويلتمس أن لا يزال هواه

ما كان يشعر به شيوخ طروادة فى حضرة هلن . فلنعرف دائما أن نكرر لأنفسنا ما قالوه .[1] لأننا إذا وصلنا إلى دفع اللذة كنا فى أمن من أن نرتكب من الزلل إلا أقله (ك ٢ ب ٩ ف ٥ — ٦)

نقد نظرية أرستطاليس :

لعلى فى غنى عن بسط رأيى فى هذه النظرية الفلسفية أكثر مما فعلت ، فقد بينت تاريخ نشأتها ومقدار ما لأرسطو من نصيب فى فكرة الوسط ، وفى نظرية الوسط . ولعله قد اتضح من سياق الكلام مبلغ تأييدنا لآراء أرستطاليس ، ولكن الذى لا بد من بيانه هنا هو النقط التى نخالف فيها فيلسوفنا العظيم .

وأهم هذه النقط تطبيقه نظرية الوسط على الصدق . ففى ذلك التطبيق إرهاق لهذه الفضيلة ، ومد لسلطان النظرية على أرض أجنبية لا تخضع لها : فنحن نفهم أن يكون الكرم وسطا بين رذيلتين متناقضتين ، هما الإسراف والتقتير ؛ ونفهم أن تكون الشجاعة وسطا بين رذيلتين متباينتين تمام التباين ، هما التهور والجبن ؛ وندرك أن العفة وسط بين رذيلتين متنافرتين إحداهما مع الأخرى ، هما الفجور وخمود اللذات ؛ ونقبل أن يكون الحلم وسطا بين رذيلتين على طرفى نقيض ، هما الشراسة والبلادة ؛ إلى آخر الفضائل التى طبق عليها أرسطو نظريته فى الوسط ، عدا الصدق ، فإننا لا نستطيع أن نفهم أن يكون وسطا بين المبالغة فى القول ، والتحفظ والتعمية فيه . لأن للصدق دائما صورة واحدة ، وكل ما عداها ، بزيادة

مسوفاً ورأيه مسعفا ، وعلى العاقل إذا اشتبه عليه أمران فلم يدر أيهما الصواب أن ينظر أهواهما عنده فيحذره . » ويقول عبدالله بن معاوية موصيا ولده : « واعلم يابنى أن رأيك إذا احتجت إليه وجدته نائما ووجدت هواك يقظان ، فإياك أن تستبد برأيك فإنه حينئذ هواك . »

(١) يشير أرسطو إلى ما قاله شيوخ طروادة ، وقد جلسوا للفصل فى مسألة هلن ؛ فإنها حينما أشرقت بوجهها الوضاح على المدينة لم يسع القضاة إلا الاعتراف بفتنة جمالها ، ولكنهم مع ذلك قالوا : مهما يكن شأن جمالها فلا بد أن تعود إلى وطنها ، وإلا جلبت علينا وعلى ذريتنا النقمة والدمار .

أو بنقص ، كذب . وليس بين الطرفين اللذين يزعمهما أرسطو للصدق تباين وتناقض كذلك الذى بين كل طرفين من أطراف الفضائل الأخرى . فالزيادة فى الخبر والنقص فيه متشابهان تمام التشابه من حيث حيدتهما عن الصورة الوحدة التى يتحقق فيها الصدق ، ولذلك يسمى كل منهما كذبا ، ولا كذلك أى طرفين آخرين ، فإننا لا نستطيع أن نجد اسما مشتركا يصح أن نطلقه على كل من التهور والجبن باعتبارهما حيدة عن الشجاعة ، أو على الفجور وخمود اللذات باعتبارهما حيدة عن العفة ، أو على الإسراف والتقتير باعتبارهما حيدة عن الكرم ؛ واعتبر هذا فى سائر الأطراف مع فضائلها .

وثمة خطأ آخر وقع فيه أرسطاليس ، وهو زعمه أن الصدق (وهو الوسط) أقرب إلى أحد الطرفين اللذين يكتنفانه منه إلى الآخر : فهو يزعم أن الصدق أقرب إلى التحفظ والنقص ، منه إلى المبالغة والزيادة . ولا شك أن هذا الخطأ متفرع على خطئه السابق ، وهو محاولته إخضاع فضيلة الصدق لنظرية الوسط ، والحق أن ليس الصدق أقرب إلى إحدى الرذيلتين منه إلى الأخرى ، فكلتاهما كذب لا شك فيه ، وللصدق كما قلنا صورة واحدة ، وأقل حيدة عنها بزيادة أو بنقص تلحقها بالكذب .

ولن يشترى أرسطو رضانا عن رأيه بعبارته الخلابة التى يذم فيها المبالغة ويسميها حمقا ، وزهواً ، وصلفا ، على حين يعطف على التعمية والنقص ويسميهما جنوحا إلى التواضع ، وأنفة من دواعى الشهرة ، ثم يلوّح لنا بسقراط وتواضعه . لن نوافقه على رأيه . لأن إفساد الخبر بالنقص كإفساده بالزيادة ، بل ربما كان النقص فى الخبر أشد أثراً فى البعد عن الصدق . ألا يكفى أن تحذف أحيانا كلمة واحدة من الخبر لتحوّله إلى عكس ما يريد صاحبه ؟

وبعد فإن المقياس فى الصدق والكذب — كالمقياس فى سائر الفضائل والرذائل — هو الباعث ، فمتى تحقق الباعث على تغيير الحقيقة ، فسواء فى نظر الأخلاق أن يحدث هذا التغيير بزيادة أو بنقص .

ولو شاء أرسطو أن يكون أقرب إلى الصواب فى تطبيق نظرية الوسط

على الصدق ، لقال إن الفضائل تختلف فى قربها من الأطراف ، فبعضها أقرب إلى طرف الافراط ، وبعضها أدنى إلى طرف التفريط ؛ غير أن الصدق وحده (ولو شاء لأضاف إليه العدل) يكون وسطه بين طرفيه وسطا رياضيا ، لا أخلاقيا ، فنسبة بعده عن أحد الطرفين كنسبة بعده عن الآخر (١) .

لقد استثنى أرسطو من نظريته فى قسم الرذائل ماسماه «الشرور الذاتية» . وخيراً فعل ؛ ولو أمعن فى تمحيص النظرية لأضاف إليها استثناء آخر فى قسم الفضائل .

نظرية الوسط عند المسلمين :

وأريدهنا أن أتكلم فى نقطتين : أولاهما صلة التعاليم الإسلامية بهذه النظرية ، قاصدا بالتعاليم الإسلامية ما جاء به القرآن الكريم والحديث الشريف ، والسلف الصالح ، وثانيتهما مبلغ تأثر الفلاسفة المسلمين بنظرية أرسطاليس وكتاباته .

أما التعاليم الإسلامية من قرآن وحديث فليس لدينا من شك فى أنها لم تقتبس من أرسطاليس على الرغم من أنهـا جاءت صريحة فى مذهب الوسط . ونحن لا نستند فى رأينا هذا إلى الرأى الدينى وحده — ذلك الرأى الذى ينزه القرآن والحديث عن النقل والاقتباس ، ممـا يزعمه كثير من المبشرين والمضللين ، ولـكننا نعتمد كذلك على الأسانيد التاريخية التى لا تدع مجالا للشك ، إذ لم يقل قائل (حتى أولئك المفترون الذين يزعمون أن محمدا ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان قد تلقى تعاليم التوراة والإنجيل) بأن فلسفة أرسطو أو فلسفة اليونان كانت قد عرفت سبيلها إلى جزيرة العرب إبّان نزول القرآن والنطق بالأحاديث .

بقى علينا أن نعلل ذلك الاتفاق بين آراء القرآن والحديث من جهة ، وآراء أرسطو فى نظرية الوسط من جهة أخرى ؛ وتعليل ذلك واضح جلى ، هو أن كل فكر مستقيم أو دين سام يجب أن يكون تشريعه الأخلاقى والاجتماعى صادرا عن مثل هذا الرأى ، لأنه الرأى الصائب الذى لا يستقيم بغيره دين ولا عمران ، فلم يكن غريبا إذن أن نرى القرآن والحديث يأمران بالوسط ويحضان عليه ؛ بل كان يكون من الغريب المدهش ألاّ يفعلا ذلك .

(١) يراجع فى هذه النقطة كتابنا « فلسفة الكذب » ص ٨٩ - ٩٨

يقول الله تعالى : « وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ، وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ ملوُماً محسُوراً . » (١) — « والَّذِينَ إِذَا أنفقوا لَمْ يُسْرِفُوا ، وَلَمْ يَقتُرُوا ، وكانَ بَينَ ذلكَ قَواماً . »(٢) — « يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكمْ عِندَ كلِّ مَسجِدٍ ، وكلُوا واشْرَبُوا ، ولاَ تُسْرِفوا ؛ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينةَ اللهِ التى أَخْرَجَ لعِبَادِهِ ، والطَّيِّبَاتِ منَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ للذينَ آمنُوا فى الحياةِ الدُّنْيَا خالصة يوم القيامة . » (٣) — « وآتِ ذَا الْقُرْبَى حقّهُ ، والمِسكينَ ، وَابْنَ السبيلِ ، ولا تُبَذِّرْ تبذِيراً إنَّ المبذِّرِينَ كانوا إخْوانَ الشَّيَاطِينِ ، وكان الشيطانُ لِرَبِّه كفوراً . » (٤) « وهوَ الذى أنشأ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وغيرَ مَعْرُوشَات ، والنخلَ وَالزَّرْعَ مختلفاً أُكُلُهُ ، وَالزَّيْتونَ والرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابه ، كُلُوا مِنْ ثَمرِهِ إذا أثْمَرَ وآتُوا حَقّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، ولا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحبُّ المسرفينَ . » (٥) « وَالأنعامَ خلقها لكم فِيهَا دِفءٌ ومنَافعُ ومنها تأكلونَ . ولكم فيها جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وحينَ تَسرحونَ . وتحمِلُ أَثْقَالكم إلى بَلَدٍ لَمْ تَكونوا بالغِيهِ إلاَّ بشِقِّ الأنفُسِ ، إنَّ رَبَّكُمْ لرَءُوف رَحيم . والخيلَ والْبِغَالَ والْحَمِيرَ لِتَرْكبوهَا وزينة ويخلقُ مَالاَ تعلمون . » (٦) « يأيها الذينَ آمنوا لا تُحرموا طيبَاتِ مَا أحلَّ الله لكُمْ . وَلاَ تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لاَ يُحبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ . » (٧)

وإن نظرة واحدة فى هذه الآيات ـ وهى قليل من كثير ـ لتكفى للدلالة على أن القرآن لم يدع إلى الحرمان ولا إلى شظف العيش ، بل دعا إلى التمتع المعقول

(١) سورة الإسراء ٢٩ (٢) سورة الفرقان ٦٧ (٣) سورة الاعراف ٣١-٣٢
(٤) سورة الاسراء ٢٦-٢٧ (٥) سورةالأنعام ١٤١ (٦) سورة النحل ٥-٨
(٧) سورة المائدة ٨٧ - ٨٨

والتوسط فى الأمور وحسبنا أننا نجد من عبارات القرآن مثل هذه الألفاظ الصريحة فى معنى النعيم : « الطيبات » و « الزينة » و « الجمال » لنفهم أنه قصد من صراحتها فى دلالتها الأخذ على يد من تسول له نفسه أن يسىء تأويلها ليخرج بها عن معناها .

ويقول الرسول الكريم : « إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه . فسددوا ، وقاربوا ، وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة . » — « إن المنبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى » — « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » — « كلوا واشربوا ، والبسوا ، وتصدقوا فى غير إسراف ولا مخيلة » . وامتدح قوم رجلا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاجتهاد فى العبادة والغنى عن العمل وقالوا : صحبناه فى سفر فما رأينا بعدك يا رسول الله أعبد منه ، كان لا ينتقل من صلاة ، ولا يفطر من صيام ؛ فقال لهم : فمن كان يمونه ويقوم به ؟ قالوا : كلنا يارسول الله . قال : كلكم أعبد منه .

وعن عبد الله بن عمر قال قال لى النبى صلى الله عليه وسلم : « ألم أخبَر أنك تقوم الليل وتصوم النهار ؟ قلت : إنى أفعل ذلك . قال : فانك إذا فعلت ذلك هجمت عينك ونَفِهَتْ نفسك ، وإن لنفسك حقا ، ولأهلك حقا ، فصم وأفطر ، وقم ونم »

ودخل عمر بن عبد العزيز على عبد الملك بن مروان ، وكان ختنه على ابنته فسأله عن معيشته كيف هى ؟ فقال عمر : حسنة بين الشيئين ، ومنزلة بين المنزلتين. فقال عبد الملك : خير الأمور أوساطها .

وبعد ، فما أنا بمستطيع أن أستقصى كل ما ورد بهذا الصدد ، ولكننى أرى فى هذا القدر ما يكفى . ولأنتقل إلى الكلام فى النقطة الثانية .

نظرية الوسط

بين يدى الغزالى ، وابن مسكويه ، وابن المقفع

الغزالى :

عرض الغزالى لنظرية الوسط فى مواضع عدة فى الجزء الثالث من « إحياء علوم الدين » وسأتركه هنا يتحدث عن نفسه ، ثم أتحدث عنه بعد ذلك .

يقول فى « ص ٤٩ من ذلك الجزء [١] : « والذى يدل على أن المطلوب هو الوسط فى الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعا وهو وسط بين طرفى التبذير والتقتير ، وقد أثنى الله عليه فقال : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما) وقال تعالى . (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط) وكذلك المطلوب فى شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود . قال الله تعالى : (كلوا واشربوا ، ولا تسرفوا : إنه لا يحب المسرفين) وقال فى الغضب (أشدّاءُ على الكفَّار رُحَمَاءُ بينهم) وقال صلى الله عليه وسلم : (خير الأمور أوساطها) » .

وقال فى ص ٨٢ من الجزء الثالث أيضا : « اعلم أن المطلوب الأقصى فى جميع الأمور والأخلاق الوسط ، إذ خير الأمور أوساطها ، وكلا طرفى قصد الأمور ذميم » .

وقال فى الصفحة التالية : « وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط ، وهو الاعتدال . ومثال طلب الآدمى البعد عن هذه الأطراف المتقابلة بالرجوع إلى الوسط ، مثال نملة ألقيت فى وسط حلقة محمية على النار ، مطروحة على الأرض . فإن النملة تهرب من حرارة الحلقة ، وهى محيطة بها لا تقدر على الخروج منها . فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذى هو الوسط . فلو ماتت ماتت على الوسط لأن الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة التى فى الحلقة المحيطة . فكذلك الشهوات محيطة بالإنسان إحاطة تلك الحلقة بالنملة » .

---

(١) طبعة الحلبى

وأنتم ترون هنا كلاما صريحا فى الوسط والطرفين ، وكلاما صريحا فى الوسط الهندسى ، وكلاما ضمنيا لرأى أرسطاليس فى أن الفضيلة قمة صعبة المرتقى . وكلاما صريحاً فى أن المرء قد يخطىء بألف طريقة ، ولكنه لا يصيب الفضيلة إلا بطريقة واحدة .

ثم استمع إلى الغزالى مرة أخرى ، وهو يطبق النظرية على فضيلة الحلم ص ١٤٦ من الجزء الثالث : « ففقد الغضب مذموم ، وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين ، فينبعث حيث تجب الحمية ، وينطفىء حيث يحسن الحلم . وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التى كلف الله بها عباده ، وهو الوسط الذى وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال (خير الأمور أوساطها) » .

واستمع إليه كذلك حين يتكلم فى فضيلة السخاء ص ٢٢٥ : « فالإمساك حيث يجب البذل بخل . والبذل حيث يجب الإمساك تبذير ، وبينهما وسط هو المحمود . . . ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط » .

وفى هذا القدر بيان واضح لمقدار انتفاع الغزالى بالفلسفة الأرسطاليسية فى هذه النظرية ، وإن لم يكتب فيها كتابة مستقلة كما فعل ابن مسكويه . وليس يعزب عن أذهاننا أن الغزالى أحسن الربط بين رأى أرسطو والآثار الدينية الناطقة بمذهب الوسط كما رأينا .

ابن مسكويه :

ولو كان ثمة حق للنقل والترجمة ، وكان لأرسطاليس ورثة ، لألفيناهم يمسكون بابن مسكويه يقاضونه على ما أخذ من أرسطو . وفيما يأتى أوضح دليل على فضل أرسطو على هذا الفيلسوف الورّاق . يقول فى ص ٣٣ « من كتاب تهذيب الأخلاق » (١) بعنوان « أطراف الفضائل » : « ولما كانت هذه الفضائل أوساطا بين أطراف ؛ وتلك الأطراف هى الرذائل ؛ وجب أن تفهم منها . وإن اتسع لنا الزمان ذكرناها لأن وجود أسمائها فى هذا الوقت متعذر . » اشهدوا أيها

(١) طبعة مطبعة التقدم .

القوم أن هذا كلام أرسطو بعينه . حتى الشكاية من عدم وجود أسماء للأطراف ، تلك الشكاية التى نادى بها أرسطو كما سبق فى عبارته التى نقلناها .

ثم استمعوا إليه حين يشبه الوسط بمركز الدائرة : « وينبغى أن تفهم من قولنا ان كل فضيلة فهى وسط بين رذائل ما أنا واصفه :

« إن الأرض لما كانت فى غاية البعد من السماء قيل إنها وسط ، وبالجملة المركز من الدائرة هو على غاية البعد من المحيط . وإذا كان الشىء على غاية البعد من شىء آخر فهو من هـذه الجهة على القطر . فعلى هذا الوجه ينبغى أن يفهم معنى الوسط من الفضيلة إذا كانت بين رذائل بعـدها منها أقصى البعد . ولهـذا إذا انحرفت الفضيلة عن موضعها الخاص بها أدنى انحراف قربت من رذيلة أخرى. ولم تسلم من العيب بحسب قربها من تلك الرذيلة التى تميل إليها . ولهذا صعب جداً وجود هذا الوسط . ثم التمسك به بعد وجوده أصعب . ولذلك قالت الحكماء : إصابة نقطة الهدف أعسر من العدول عنها ، ولزوم الصواب بعد ذلك حتى لا تخطئها أعسر وأصعب . وذلك أن الأطراف التى تسمى رذائل ـ من الأفعال ، والأحوال ، والزمان ، وسائر الجهـات ـ كثيرة جداً . ولذلك كانت دواعى الشر أكثر من دواعى الخير . »

هذه فقرة تتحدث بنفسها عن مصدرها الأول ، ومبعث وحيها : ففيها نظرية الوسط ، والـكلام عن الأطراف ، والتشبيه بالوسط الهندسى ، وكون الفضيلة قمة باعتبارها كمالا وخيرا ؛ وصعوبة سبل الخير وكثرة سبل الشر .

وكأننا بابن مسكويه ينم عن نفسه حين يقول : ولذلك قالت الحكماء « إصابة نقطة الهدف أعسر من العدول عنها » أهـذا كل ماقالت الحكماء فى هذا المذهب يا ابن مسكويه ؟ . وهو لم يجُد علينا فى كل هذا البحث بإشارة أخرى إلى رأى فيلسوف . فله الله !

ثم استمعوا إليه وهو يتكلم فى الوسط الأخلاقى ، بعد أن ذكر الوسط الرياضى ص ٣٤ : « ويجب أن تطلب أوساط تلك الأطراف بحسب كل فرد فرد » . ثم يقول ص ٣٥ : « وإذ قد ذكرنا معنى الوسط فى الأخلاق وما ينبغى أن نفهم

منه فلنذكر هذه الأوساط لتفهم منها الأطراف التى هى رذائل وشرور . » أجل بالضبط كما فعل أرسطاليس !

ثم شرع ابن مسكويه يكتب ، أو بعبارة أدق ينقل ، فى تطبيق هذا المذهب على الفضائل . فذكر أن الحكمة وسط بين السفه والبله : « وأعنى بالسفه هاهنا استعمال القوة المفكرة فيما لا ينبغى وكما لا ينبغى . . . وأعنى بالبله تعطيل هذه القوة واطراحها . » . . . . الخ

« وأما الشجاعة فهى وسط بين رذيلتين : إحداهما الجبن والأخرى التهور ، أما الجبن فهو الخوف مما لا ينبغى أن يخاف منه ، وأما التهور فهو الإقدام على مالا ينبغى أن يقدم عليه . »

« وأما العدالة فهى وسط بين الظلم والانظلام »

وبعد فقد قال الصاحب بن عبّاد فى سعيد بن حميد : « لو قيل لكلماته انفرى إلى أصحابك ، لما بقى له شىء . » وأنا أقول : لو قيل لكلام ابن مسكويه : اذهب إلى صاحبك ، لما بقى له شىء .

ابن المقفع :

أما ابن المقفع فله معنا شأن آخر ، فلا هو كتب عن النظرية كما كتب ابن مسكويه ، ولا هو طبقها وربطها بالآثار الدينية كما فعل الغزالى ، وإنما نرى اقتناعه بهذه النظرية ناطقا فى حكمه التى ضمنها « الأدب الصغير » و « الأدب الكبير » . وليس لدى أدلة قاطعة على أنه انتفع بكتابة أرسطو ، ولكننى مع ذلك أسمع فى كثير مما كتب صوت الفلسفة اليونانية والرومانية يتردد عالياً . وحسبى هنا أن أنقل بعض عباراته الدالة على شدة اعتناقه مذهب الوسط .

فى الأدب الصغير :

يقول فى ص ٢٧ « اقتصاد السعى إبقاء للجمام ، وفى بعد الهمة يكون النصب . ومن سأل فوق قدرته استحق الحرمان . وسوء حمل الغِنى أن يكون عند الفرح مرحا ، وسوء حمل الفاقة أن يكون عند الطلب شرهاً . »

ويقول فى ص (٦٥) : « وكان يقال : قارِبْ عدوك بعض المقاربة ، تنل

حاجتك ، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترىء عليك عدوك ؛ وتذل نفسك، ويرغب عنك ناصرك . ومثل ذلك مثل العود المنصوب فى الشمس ، إن أملته قليلا زاد ظله ، وإن جاوزته الحد فى إمالته نقص الظل . » وأشهد إن هذا لتصوير بديع .

ويقول فى ص ٢٠ : « وعلى العاقل — مالم يكن مغلوبا على نفسه — ألا يشغله شغل عن أربع ساعات : ساعة يرفع فيها حاجتـه إلى ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه وينصحونه فى أمره ، وساعة يُخلّى فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحل ويجمل ، فإن هذه الساعة عون على الساعات الأخر ، وإن استجمام القلوب وتوديعها زيادة قوة لها وفضل بُلغَة . »

واستمع إليه حين يقول ص ٢٠ — ٢١ : « وعلى العاقل ألا يكون راغباً إلا فى إحدى ثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم . »

ويقول فى موضع آخر ص (٥٨) : « لا عقل لمن أغفله عن آخرته ما يجد من لذة دنياه ، وليس من العقل أن يحرمه حظَّه من الدنيا بصرُه بزوالها .

فى الأدب الكبير :

يقول فى ص ٤ - ٥ : « فأصل الأمر فى الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب ، وتجتنب الكبائر ، وتؤدى الفريضة ، فالزم ذلك لزوم من لا غناء له عنه طرفة عين ، ومن يعلمُ أنه إن حرمه هلك . ثم إن قدرت على أن تجاوز ذلك إلى التفقه فى الدين والعبادة ، فهو أفضل وأكمل . » ونحن هنا نرى ابن المقفع يصور لنا الفضيلة قمة صعبة المرتقى ، أو مثلا أعلى بعيد الحصول ، ثم يدعونا إلى محاولة الوصول إليه ، ولكن بعد أن وضع لنا حدا أدنى ، إن تجاوزناه كنا فى حدود الرذيلة .

ثم يقول : « وأصل الأمر فى صلاح الجسد أن لا تحمل عليه من المأكل والمشرب والباه إلا خفا . ثم إن قدرت على أن تعلم جميع منافع الجسد ومضاره والانتفاع بذلك كله فهو أفضل . »

« وأصل الأمر فى البأس والشجاعة ألا تحدث نفسك فى الإدبار وأصحابك مقبلون على عدوهم . ثم إن قدرت على أن تكون أول حامل وآخر منصرف

— من غير تضييع للحذر — فهو أفضل . » أجل من غير تضييع للحذر ، فهذا هو الوسط السعيد .

ويقول ص ١٥ — ١٧ : « لا تتركن مباشرة جسيم أمرك فيعود شأنك صغيرا ، ولا تلزمن نفسك مباشرة الصغير ، فيصير الكبير ضائعا » .

« واعلم أن مالك لا يغنى الناس كلهم فاخصص به أهل الحق ، وأن كرامتك لا تطيق العامة كلها ، فتوخ بها أهل الفضل ، وأن قلبك لا يتسع لكل شىء ففرغه للمهم ، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتك — وإن دأبت فيهما ، وأن ليس لك إلى إدامة الدأب فيهما سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه منهما — فأحسن قسمتهما بين عملك ودعتك » .

« واعلم أن ما شغلت من رأيك بغير المهم أزرى بك فى المهم ، وما صرفت من مالك فى الباطل فقدته حين تريده للحق ، وما عدلت به من كرامتك إلى أهل النقص أضر بك فى العجز عن أهل الفضل ، وما شغلت من ليلك ونهارك فى غير الحاجة أزرى بك عند الحاجة منك إليه » .

وإليكم ما يقول ابن المقفع صريحا فى البشاشة ص ٢٠ : « لا تكونن نزر الكلام والسلام ، ولا تبلغن بهما إفراط الهشاشة والبشاشة ، فان إحداهما من الكبر والأخرى من السخف » . ألم يذكر لنا هنا الوسط الحميد ، وطرفيه البغيضين ؟

ثم استمعوا إلى رأيه فى البشاشة فى موضع آخر ص٧٦ : « اعلم أن انقباضك عن الناس يكسبك العداوة ، وأن تقربك إليهم يكسبك صديق السوء » .

وها هو ذا يصور لك الأطراف فى صورها الذميمة ، إذ يقول ص١٠٦ — ١٠٧ « واعلم أنك إن جاوزت الغاية فى العبادة ، صرت إلى التقصير ؛ وإن جاوزتها فى حمل العلم ، لحقت بالجهال . وإن جاوزتها فى تكلف رضا الناس والخفة معهم فى حاجاتهم كنت المحسّر المضيع » .

وآخراً وليس أخيراً أنصت إليه حين يقول ص ١٠٧

« اعلم أن بعض العطية لؤم ، وبعض السلاطة غم ، وبعض البيان عى ، وبعض

الحلم جهل ، فان استطعت أن لا يكون عطاؤك جوراً ، ولا بيانك هذراً . ولا علمك وبالا ، فافعل . »

خاتمة :

ويمكننا أن نلخص رأينا بإيجاز فيما يأتى :

١ ـ أن فكرة الوسط وليدة العقل المتزن ، والرأى الحصيف منذ كان على الأرض فلسفة .

٢ ـ أن أرسطو هو صاحب الفضل ، لاينازعه فيه منازع ، فى ابتكار نظرية الوسط وتفريعها وتدوينها ، والسمو بها إلى تلك المرتبة العلمية الدقيقة .

٣ ـ أن ما جاء فى القرآن والحديث ، بل فى كلام كل من ثبت عدم اتصاله بفلسفة أرسطو ، ليس إلاصدى لوحى الفكر السامى ، والرأى السديد فى وجوب الأخذ بفكرة الاعتدال والتوسط .

٤ ـ من الثابت أن فلسفة أرسطو قد نقلت للمسلمين مع غيرها من فلسفة اليونان فى العصر العباسى ، وقد تتلمذ فلاسفة المسلمين على هذه الفلسفة ـ وفى كثير من الأحيان لم يزيدوا شيئا عليها . وكلامهم فى نظرية الوسط ، من غير شك . نقل وإعادة لما كتب أرسطو .

٥ ـ قد رأينا أن الغزالى أحسن الانتفاع برأى أرسطو ، ونسج حوله خيوطا من تعاليم الإسلام أظهرت له ديباجة جميلة .

٦ ـ أما ابن مسكويه فقد كان ناقلا غير متصرف .

٧ ـ وأما ابن المقفع فمن المحتمل أن يكون قد تأثر بالفلسفة اليونانية عن طريق لغته الفارسية ، كما أن من المحتمل أن يكون قد ردد ما ثقفه فى الإسلام . كما أن من المحتمل أن يكون مصدرا فى فكرة الوسط عن رأيه وعقله ، وهو ذو الفكر العميق ، والعقل العظيم ، أو لعله أن يكون لذلك كله أثر فى فلسفته ،

محمد مهدى علام

فلســفة ديكارت [١]

للدكتور على العنانى
أستاذ الفلسفة بدار العلوم

شكر واغتباط

أتشرف أيها السادة الأفاضل بأن أقدم عظيم شكرى لحضرة الأستاذ الكبير مدير الجامعة الأميركية فى القاهرة، على ماتكرم به من تهيئة هذه الفرصة العظيمة التى أتاحت لى المثول أمام حضراتكم، لأتحدث إليكم بإلمامة عجلى عن فلسفة ديكارت، جد الفلسفة الحديثة ومعلمها الأول العظيم.

وإنى أشكر لحضراتكم جميعا رغبتكم فى سماع هذا الحديث الفلسفى، وأعلن من فوق هذا المنبر، وفى هذه الدار المجيدة، عظيم اغتباطى بها وبمجهودها الثقافى بيننا، كما أعلن نفس هذا الاغتباط أيضا بحفلكم الزاخر، بهذه القاعة التذكارية الآن، تقديرا للنهوض العقلى فى مصر، وطلبا إلى معرفة مقدار الرقى فيه، ومايرمى إلى تحقيقه على جنبات النيل السعيد، وفى جميع ربوع البلاد العربية، وطننا الأكبر العام.

فخر القاهرة بجامعاتها الثلاث

سادتى الأجلاء! إذا افتخرت المدن الجامعية بجامعاتها فى جميع أنحاء العالم المتمدين، فلانجد واحـــدة منها تفاخر بأكثر من جامعة واحدة فيها. ومدينة المعز لدين الله الفاطمى تفاخر الآن كل هاتيك المدن الجامعية، بثلاث جامعات كبرى، آهلة بآلاف الطلاب من الشباب المصرى الناهض، وشباب البلاد العربية الشقيقة. وهذه الجامعات الثلاث هى الجامعة الأزهرية القديمة العظيمة، والجامعة المصرية الحديثة الناهضة، والجامعة الأميركية النبيلة المحسنة؛ ففيها جميعها تنمو اللغة

(١) محاضرة ألقاها الدكتور على العنانى بالجامعة الأميركية بالقاهرة

العربية وتقوى ، وتعظم الحياة العقلية المصرية وترقى ؛ وفيها يتعلم الشباب المصرى ويتثقف ، وإليها يسعى رواد المعارف من جميع الأقطار العربية . ويختلف هواة العلم والأدب والتهذيب إلى حجر الدراسة ، ويؤم قاعات محاضراتها جماهير المصريين النابهين .

ومن الواضح أيها السادة ! أنه بمقدار قوة الحركة العقلية فى بلادنا ، والانتاج الفكرى فيها . وإقبال الجماهير على دور العلم ومعاهد الثقافة العامة ، تكون الصورة الكلية للحياةالعقلية عندنا من جهة التكوين ومن حيث المقدار ـ فى درجة النهوض

وحضراتكم الآن باجتماعكم فى هذه الندوة العلمية تمنحون حياتنا العقلية فى مصر صورة راقية تفخر بها ، ولهذا فانى أكرر الأعراب عن اغتباطى آملا أن تصل مصر فى مدى قصير إلى اجتياز دور التقليد العلمى ، وأن تدخل قريبا فى دور الانتاج العقلى الخاص ، مع أولئكم المنتجين لمعارف القرن العشرين ومدنية الوقت الحديث .

عظمة مصر الخالدة

وإذا طمحت مصر إلى ذلك معاشر المصريين ! فانما تطمح إلى مجدها التالد الذى سبقت به جميع أمم المعمورة وأمدتها منه فى غضون آلاف السنين ، وأيضا إنما تطمح إلى مجد أثيل لايفاخر به المصرى الناس فى مواطن التفاخر المألوفة فى هذه الحياة الدنيا فحسب ، بل يفاخر به أيضا فى مواطن الانتقال من فضاء الوادى السعيد ، إلى رحاب السلام فى دار الخلد والملك الذى ليس له نفاد .

نعم إن المصرى ليفاخر بمجد بلاده فى هذا الموطن ، وقد فعل وخلد كلمات الفخار ! وإنه لفاعل ذلك أبدا ، وإنه لخلد على الدوام فى ذلك آيات الفخار(١) ! !

موضوع الحديث

أيها السادة الأفاضل ! نريد كما قلنا فى صدر هذا الحديث أن نتحدث عن ديكارت وفلسفة ديكارت . وإذا نحن حاولنا الحديث فى هذا الفيلسوف العظيم وفى حكمته السامية ، فانما نقصد إلى عرض إجمال مختار فى التعرف بحياته ، وشخصيته ،

(١) اذكر كلمات الشهيد عبد الحكم الجراحى حين أسلم الروح

وأساس مذهبه ، وأثره العظيم فى تاريخ الفلسفة الحديثة ، وقيمته فى تاريخ المذاهب الفلسفية فى العموم . وإنا سنحاول أن يكون هذا الأجمال فى كل ما تقدم معبراً عن الصورة الكلية لشخصية ديكارت وفلسفته ، تلك الصورة التى تتطلب فى إبرازها وتكوينها عشرات المحاضرات

العقل الإنسانى

وإذا نحن تحدثنا عن ديكارت وعن فلسفة ديكارت ، فانما نتحدث فى الواقع وفى العموم عن العقل الانسانى ومعارف الانسان . لذلك يجدر بنا هنا أن نقف هنيهة نسجل فيها ما لهذا العقل من كنه ، وما له من قيمة ومقدار .

وصف الحكماء قديما العقل الانسانى بأوصاف كاشفة مشيرة إلى كنهه ومعبرة عن قيمته ومكانته . وقد تدرجوا فى ذلك من درجة متواضعة ، إلى درجة سامية ، وسموا إلى درجة ثالثه هى اسمى مرحلة وضع فيها هؤلاء الحكماء عقل الانسان ، فقد قالوا « العقل زينة الانسان » ولا يعنون بذلك الاتزان والوقار فقط ، بل يريدون أيضا المعارف الانسانية التى تتفاوت قيم الناس وأقدارها بتفاوتها فى القيمة والمقدار . وهذا الوصف على مافيه من حقيقة وروعة جلال ، فانه متواضع بالنسبة إلى ما نعته به كثير من الحكماء فى قولهم « الانسان تاج الخليقة » أى أكمل كائنات الوجود العام وأسماها بالنسبة إلى ما أودع فيه من العقل وقوى الأدراك . وهذا النعت وإن سما بالعقل الانسانى إلى أسمى غاية فى الوجود فانه أيضاً متواضع بالنسبة إلى ما قالوه حاكمين على الانسان بأنه بعقله « هو الكون العام مصغرا » أو « الكون العام هو الانسان مكبرا » .

هنا وبهذا الحكم نذعن بأن القوة العاقلة الانسانية قد انبثت فى جميع كائنات الوجود واتحدت معها ، فالعقل الانسانى هو الوجود العام ، وهذا الوجود العام هو نفس عقل الأنسان .

ولا شك أن هذا أسمى ما وصل إليه الحكماء فى تقدير العقل الانسانى وتكييف مكانته والأشارة إلى كنهه وحقيقته .

وعندنا ، ونحن على حق ثابت ، أن العقل الانسانى جدير أيضا بأن يوضع

فى المراتب الثلاث الآتية ، فى مقابلة المراتب الثلاث المتقدمة ، اذ من الواضح الجلى أن العقل البشرى «وهو زينة الانسان ، هو أيضا وبالفعل، زينة الوجود العام »

نعم العقل الانسانى زينة الوجود العام ، لأنه لولاه ما أدرك كائن ما وجودا ولا عرف زينة ولافهم ابداعا ولا لمح شيئا مما فى الوجود من انسجام ونظام. ولا شك أن كل ما فى الوجود العام من جمال وزينة وإبداع ونظام وانسجام لامظهر له إلا فى عقل الأنسان ، فهو جمال الكون ، وهوزينته ، وهو كل ما فيه من إبداع وانسجام ونظام

والانسان مع أنه « تاج الخليقة » بعقله ، هو بذلك أيضاً « مرآة الوجود » الذى لا يبرز إلا فيها « ونور الوجود » الذى لا يظهر إلا فيه

والعقل الأنسانى أخيراً مع أنه « الكون العام مصغرا » وأنه بذلك ذات الوجود. فهو « مدد الحقيقة المقدسة الخالدة » أو « فيض العقل الأول ؛ وكائنات الوجود بأكمله هى فيض العقل الانسانى الفائض عن العقل الأول مبدأ الوجود»

وخلاصة كل ذلك أن « العقل الانسانى هو زينة الوجود العام ومرآته ونوره ، وهو فيض الحقيقة ، وعنه فاض الوجود كله » فليس فى الكون العام اسمى من العقل الانسانى إلا الوجود المطلق أو مبدأ الوجود .

أنواع الانتاج العقلى

ولهذا العقل الانسانى إنتاج متعدد الجهات والأنواع بتعدد نواحى الوجود العام وتنوع ظواهره البعيدة عن الحصر . ولكن من السهل على الملم بتاريخ الحركة العقلية الانسانية من بدء نشأتها حتى الآن، أن يحصر أنواع الانتاج الفكرى الانسانى فى أربعة أنواع شاملة أو دوائر عامة ، هى دائرة الدين ، والدائرة الفلسفية المتفرعة عنها ، ودائرة الأدب الناشئة عن الدين أيضا، ودائرة العلوم المتكونة فى النهاية من البحوث الفلسفية والآراء الأدبية قبل أن تأخذ طريقها الخاص

ولكل نوع من الأنواع الأربعة المتقدمة موضوع خاص به ، وطريقته فى البحث التى لا يتعداها إلى غيرها .

وموضوع الفلسفة هو الكون العام . وطريقة البحث الفلسفى فيه إنما ترجع إلى العقل الحر والنظر المستقل دون ارتكاز على وحى أو خيال .

ولقد نظرت الفلسفة منذ نشأتها عند قدماء المصريين وعند الفرس والهنود والصينيين بعد ذلك حتى القرن السادس قبل الميلاد - إلى الكون العام شارحة الحقيقة فيه وموضحة ظواهره الطبيعية بطريقتها الخاصة بها ، إلا أن أغلب ما أنتجته هذه الفلسفة فى تلك الغضون كان متفقا فى العموم مع مبادىء الدين وشارحاً لأحكامه اللاهوتية ؛ ولذلك كانت الفلسفة عند هذه الأمم الشرقية القديمة دينية فى اتجاهها العام .

ومنذ ابتداء القرن السادس قبل الميلاد سارت الفلسفة فى طريقها الخاص بها عند اليونان ، تشرح الوجود الكلى غير ملتقية مع ما يقوله الدين ، ولكنها عادت فى آخر عهدها اليونانى إلى سيرتها الأولى ، فصارت ممهدة للمسيحية ومؤيدة لها وخادمة إياها فى هيا كلها ، ولقد كان شأنها مع الاسلام كذلك عند الأمم العربية ، حتى عادت إلى أوربا ابتداء من القرن الثالث عشر بعد الميلاد .

هنا مرت الفلسفة بعهد الرنيسانس أو إحياء العلوم الاغريقية القديمة التى كانت ضمن الدائرة الفلسفية ، ولقد ابتدأت هذه العلوم تأخذ استقلالها وتعمل فى مواضيعها الخاصة بطرق البحث التى اختارتها متناسبة مع طبيعتها ، وقد اجتاز البحث العلمى التحرير من سلطان الكنيسة وانتصر فى دور الاصلاح الدينى ثم ألقى على الفلسفة نورا من بحوثه التجريبية قد غير وجه النظر الفلسفى تقريبا ، فاصطدمت الحقائق العلمية مع بعض النظريات الفلسفية . وأخضعت النتائجُ التجريبية الملموسة لسلطانها النظرَ الجامح فيما وراء الطبيعة وفى الغيب وأسرار الوجود .

فى غضون هذا المعترك الفكرى بين الفلسفة والعلم ظهر ديكارت الفيلسوف العظيم جد الفلسفة الحديثة . وقد عمد إلى حل هذه المشكلة الفكرية الكبرى حلا نهائيا بأن تناول الحقائق العلمية ، وأهمل النظر الفلسفى القديم مشيدا هيكله من جديد على أساس من الحقائق العلمية ، متدرجا فى طريقته من الشك إلى تقرير الواقع بحكم النتائج العلمية والجلاء والوضوح .

ديكارت

ولد ديكارت فى ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ فى مدينة لاهاى

أتم دروسه فى الكلية اليسوعية فى لافلاش ثم ذهب إلى باريس فى سنة ١٦١٣ فدرس بها العلوم الرياضية والحقوق ، وفى سنة ١٦١٦ نال إجازة الحقوق وكان عمره إذ ذاك عشرين سنة

انتظم بعد ذلك فى سلك الجندية فتمكن بذلك من رؤية أماكن كثيرة وفى هذه المدة كون أسلوبه المنطق .

وبعد أن خدم فى الجندية أربع سنوات تركها وعاد إلى الاشتغال بالعلم وتحصيله ، وقد كان اختط لنفسه خطة لا يتعداها فى طلب المعرفة، وهى البحث عنها فى نفسه وفى كتاب العالم ، ولذلك سافر كثيرا وشاهد كثيرا .

بق ديكارت إلى سنة ١٦٢٩ لا يصل الى رأى قاطع فى اختيار مهنة له ، ومن هذا التاريخ عقد النية على أن يشغل طوال حياته بالتهذيب العقلى والبحث بقدر الامكان عن الحقيقة . فمال إلى العزلة . واختار هولاندا دار مقام له ، ليتسنى له ما يريد من الحرية والعزلة . وبعد عشرين عاما دعته « كرستيانة » ملكة السويد إلى بلادها . فشخص إلى استوكهلم ، وقد عاجلته المنية بها بعد مرور عام من وصوله إليها فمات فى شهر فبراير سنة ١٦٥٠ وقد بلغ عمره أربعة وخمسين عاما

مؤلفاته

الأسلوب أو الطريقة ، أبحاث فى الفلسفة الأولى ، المبادىء الفلسفية ، الشهوات النفسية ، العالم والانسان ، ورسائل أخرى ، ومصنفات فى الرياضة والطبيعة

وفلسفة ديكارت تنحصر فى المواضيع الآتية :

(١) طريقة التفكير (٢) طرق المعرفة (٣) الطبيعة (٤) الانسان

يعتبر ديكارت المؤسس الأول للفلسفة الحديثة كما كان تاليس للفلسفة القديمة ، لأنه رفض كل مبادىء التفكير المعروفة إلى عهده ، وكون له دعامة جديدة ثابتة من اليقين الشخصى ، وجعل للحقيقة مقياسا خاصا هو الجلاء والوضوح ، واستخدم الأحكام الطبيعية المبنية على العلوم الرياضية والميكانيكية فى النظر الفلسفى

طريقة ديكارت أو أسلوبه

١ — حدود الشك . قال ديكارت : جميع الأشياء التى تظهر لنا عادة بمظهر الحق توجد أسباب تدعو إلى الشك فيها ، فالحواس تخطىء كثيرا والعقل قد يضل ، وإذا كان ذلك كذلك فلا بد للانسان من أن يقف موقف المرتاب . ولكن ليس للاستمرار عند الشك كما هو مذهب المتشككة ، بل للتغلب على هذا الشك وإزالته نهائيا . ثم قال :

وإذا كنت أشك فى كل شىء فانى لا أشك فى أنى أشك وفى أن الشك تفكير وفى أنى أفكر .

وإذا كنت غير موجود فلا يمكننى أن أفكر ، وحيث إنى أفكر فأنا موجود فمع الشك فى كل شىء ، وبالشك فى كل شىء بقيت حقيقة لا مراء فيها وهى : « أنا أفكر ، فأنا موجود »

هذه الجملة هى أساس كل فلسفة ديكارت ، كالنقطة فى أنها أساس كل نظر هندسى عند ارشميدس

(٢) مقياس الحقيقة .

استنتج ديكارت من هذه الجملة مقياس الحقيقة بأن قال : إنى لا أرتاب فى معنى هذه الجملة . فهى واضحة جلية ، لأنى تيقنت أنى أفكر . ويلزم من ذلك بالضرورة أنى موجود ، وينتج من هذا أن كل شىء يظهر لى بوضوح وجلاء مثل وضوح وجلاء هذه الجملة ، يكون حقا ، أى أن مقياس الحقيقة هو الوضوح والجلاء

(٣) وبناء على هذا المقياس يمكننا أن نصل إلى معرفة انيتنا ، وإلى معرفة كنه الرب ، وإلى معرفة الكون العام .

(ا) أنا أعرف أن الأنية المدركة هى عنصر غير مادى ، وأن كنهها فى الفكر ، فهى النفس ؛ ومعرفتها أسهل وأقرب من معرفة غيرها من الأشياء ، لأنها تدرك من التفكير مباشرة .

(ب) وإذا رجعت إلى نفسى مفكرا فانى أجد فى نفسى عدة تصورات من ضمنها المثل الأعلى للكائن الأبدى التام .

ذلك المثل الذى أسميه الرب ، فالرب موجود .

أنا موجود، وليس وجودى بنفسى . فأنا غير كامل . فاذن الكامل هو الذى أوجدنى ، فهو موجود ، والكامل هو الرب ، فالرب موجود

(ج) إن الرب موجود ، وهو حقيقة لا شك فيها ، وهو الكمال المطلق ، فهو صادق . وبصدقه تعرف الأشياء

إلى هنا ارتفع الشك تماما، وحل محله اليقين فى الشخص ، والإله ، والكون العام

المعرفة

الإدراك من طريق الحواس لا يوجد فى الانسان تصورا عقليا واجب الصدق لأن الحواس تدرك المواد مع ما فيها من نسب ، ومع ما لها من نفع أو ضر لنا لا مع حقائقها المجردة

ومنشأ التصور العقلى إنما هو الصور والفكر الطبيعية . مثل فكرة الأنية ، وفكرة الرب . وفكرة الوجود ، وفكرة العنصر ، ومثل فكر العلة والمعلول والعلة والسببية . ومعنى الفكر الطبيعية عند ديكارت هى المعانى الواصلة من الرب ، إلى النفس

فالمعرفة العقلية لابد لها من الفكر الطبيعية ، وإدراك الأشياء المادية ضرورى للمعرفة ضرورة السبب فى وجود مسببه

الطبيعة والانسان

ابتدأ ديكارت فى معرفة الطبيعة والانسان من نقطة الجوهر الذى عرفه بانه الموجود الذى لا يحتاج فى وجوده إلى موجود آخر ، وبناء على هذا التعريف فلا يوجد سوى جوهر واحد ، وهو الرب ، أما المخلوقات فانها جواهر نسبية فقط لاستغناء الواحد منها عن الآخر مع احتياجها فى وجودها إلى قدرة الخالق

وهذه الجواهر النسبية لا تعرف بدون واسطة ، بل بواسطة أعراضها ، وكل جوهر له عرض أصلى واحد فقط يعين وجوده . وما عداه من الأعراض فمميزات للنوع .

فاذا أراد الانسان معرفة جوهر بحث عن عرضه الأصلى المحدد لكنه وجوده

والجواهر كلها ترجع إلى روحية ومادية ، وعرض الجوهر العقلى التفكير ، والجوهر المادى الامتداد

اذا رفعت أى عرض من الأعراض الثانوية عن الجوهر المادى ، فان الجوهر لم يعدم وجوده، أما إذا رفعت عنه عرض الامتداد بطل وجوده

الأجسام تتجزأ إلى ما لا نهاية ، وقبل حدوثها كانت عبارة عن ذرات منحها الرب مقدارا من الحركة حفظت فيها بدون زيادة وبدون نقصان ، وبواسطة الحركة اتصلت بعض هذه الذرات بالبعض الآخر ، فتكونت عن هذا الاتصال الأجسام الفلكية المتحركة حول نفسها ، لدوام اتصال ذاتها

الجسم والنفس

أوجد ديكارت بين الجسم والنفس حدا فاصلا ، وكون الانسان منهما ، أما الجسم الانسانى فهو كأجسام الحيوانات فى أنها لاتدرك ولا تشعر ، وحياة الجسم (أى حركته) ناشئة عن حرارة الحياة الموجودة فى القلب ، وبواسطة هذه الحرارة تتكون القوة الغاذية والنمو . وبواسطتها أيضا تكون الحياة الروحية التى هى عبارة عن مادة سائلة تصعد إلى المخ ثم تفيض ثانية إلى الأعصاب

فى هذه الآلة الحية تسكن النفس متخذة مقرها فى الغدة الصنوبرية الكائنة فى وسط الدماغ للجسم

للجسم مظاهر الحيوية التى ترجع إلى حرارة الحياة بدون تأثير للنفس فيها ، غير أنها تدرك تطور هذه الحرارة وتؤثر على الجسم بتغير حركته بدون خلق حركة جديدة فيه

أرجع ديكارت الشهوات الانسانية إلى العلاقة التى بين النفس والجسم وهذه الشهوات ترجع إلى الست الآتيه :

الحب ، والكراهة ، والسرور ، والحزن ، والاستحسان . والرغبة ؛ وبآراء الانسان المستمدة من العقل يجب أن يتغلب على هذه الشهوة ليكون حرا

والخلاصة أن ديكارت لم يكن شاكا للشك ، ولم يكن مذهبه مذهب شك وجحود ، وإنما كان جازما بصدق القضايا العلمية والأحكام الثابتة فى الميكانيكا والرياضيات ، واتخذها أساسا فى بحثه الفلسفى ، وكان مذهبه مذهب يقين وإيمان جمع بين العلم والفلسفة والدين .

على العنانى

بومبي العظيم (١) Pompey The Great

تأليف جَنْ مِسْفِيلد John Masefisld

ترجمة محمد على مصطفى

المفتش بوزارة المعارف

٢

الفصل الثانى — المنظر الأول

خيمة القواد وأركان الحرب عند درازو ، وفيها منضد حوله بضعة كراسى يجلس عليها دوميتيس ولينتوس وثيوفانيس . آثار الحرب ظاهرة فى كل شىء .

دوميتيس : هكذا تمر الحوادث ، وتتقلب الأيام ، انظروا إلى « الخريطة » تروا أن مركزنا حرج للغاية ، فلقد خسرنا أسبانيا ، وحاصرنا قيصر من كل جهة حتى كأنا قطعان غنم سيقت إلى حظائرها . أليس لبومبي حماسة وحمية ؟ أو اعتراه السكر حتى لا يفيق ؟

ثيوفانيس: إن « فلاكس » يزحف على خط قيصر فى هذا الصباح ، وسيحمل عليه حملة ناجحة ، ويغير على جنده فى ثلاث نقط منصورا إن شاء الله !

دوميتيس: « فلاكس » صبى لم تؤدبه التجارب ، ولم تطل خبرته بالحرب ، ولقد أضعنا حولا كاملا ونصف العاهلية .

(هنا يدخل بومبي مسرعا فيحيونه)

بومبي : عموا صباحا ، لقد دعوتكم لأمر جلل فان جيشنا الذى كان بأسبانيا تحت

---

(١) راجع ما نشر من هذه الرواية فى العدد الثانى من السنة الثانية من صحيفة دار العلوم ص ١٤٤ — ١٦٤

قيادة « فلاكس » قد هزمه العدو شر هزيمة ومزقه إرْباً ولقد كانت رسائل « فلاكس » تبعث فينا الأمل فى الانتصار والفوز المبين . ولكن الحظ لم يشأ أن يتم لنا ذلك ، ونحن أعلم بالحرب وتقلبها ، وعار علينا أن نعزله ونختار للقيادة غيره فلسنا بالتجار

دوميتيس: لقد نزلنا عن إيطاليا ، وأضعنا أسبانيا ، واحتل العدو إفريقية ، وأخذ ميسيليا ، وتقهقرت جنودنا فى كل مكان ، ولقد يحق لنا أن نتساءل عن أسباب الهزيمة ، فانا لم نأت إلى هنا ليحاصرنا جيش قليل العدد والعدة.

پومپى : رحمك الله ياسلا : فلقد نطقت بالحكمة حين قلت : « إن على أن أحبب إلى الجنود بملاطفة الأفراد والكلام معهم فى الفينة بعد الفينة ، وليس فى مقدورى أن أحبب القواد فى أفكارى مهما أطنبت وأسهبت فى ذكر الحجج » . انتظروا فستعلمون نبأه بعد حين

لينتولس : پومپى ، أنا لا أحب الانتقاد ، ولكن الانتظار مدعاة إلى الفشل ، ومجلبة للخراب العاجل ، ولقد فر من حولنا حلفاؤنا ، وهاهى روما تخرج من أيدينا — روما التى تنظر إليك بعين ملؤها الأمل والرجاء فى القضاء على هذه الفتنة الشعواء ، ولكنك تركتها تشتعل ويتأجج لهيبها . ولقد رأيت أتباعنا يقتلون ويقطعون ، ومع هذا لم تحرك ساكنا ، واضيعة الأمل !

پومپى : مهلا .

دوميتيس: لقد انتظرنا حولا كاملا .

پومپى : وماذا عليكم لو صبرتم برهة أخرى ؟

لينتولس : وبينما نحن فى انتظار ، إذ يتغلب الرعاع على طبقة الأعيان فى جميع بقاع العالم ، حتى لا يتركوا لها من أثر (يقف)

پومپى : لينتولس ، اجلس ولا تعجل ، فان الحرب فى يدى .

دوميتيس: إنما يفوز بالحرب الجسور (يدفع الباب الصغير جانبا) ألا ترى إلى قمم الجبال بجانب هاتيك الأدغال فى تلك البقعة الحمراء الملتهبة ؟ هذا هو معسكر

قيصر . وأقسم لقد ذهبت إليه مرارا وقد أقبل الظلام ، وأرخى الليل سدوله ، فكنت أتلمس الطريق بين المتالع و الربى . أحيانا بين الصخور وآونة فوقها ، والأنجم الزهر ترشدنى ، حتى إنك لتجدنا على بينة تامة من ذلك المعسكر ، وليس بدعا إذا أخبرتك بأن فى استطاعتى أن أقود جيشا إليه معصوب العينين .

هذه « خريطة » (يفتح « خريطة ») هذه النقط الحمراء هى مواقع الحرس ، ولم أضع واحدة منها فى موضعها إلا بعد أن خاطرت بدم قلبى ، وكثيرا ما كنت أزحف على يدى ، والتصق بالأرض ، وأكتم أنفاسى ، وأرجو القمر أن يتوارى بالحجاب ، مخافة أن يرانى أحد من رجال الحرس الذين سمعتهم يخوضون فى أحاديث الشوق والغرام ، وقصص المحبين ، وأشهد لقد رأيت الضابط ذات ليلة يطوف على رجاله ، ويتعهد معسكره ومعه مصباح ، فغمضت عينى خشية أن ينما علىّ .

إن فى مقدرتى الاستيلاء على ذلك المعسكر بفرقتين فحسب فى ليلة حالكة الجلباب غدافية الإهاب ، لقد قسمت هذه الحرب الشعواء العالم قسمين ، إنك أرسلت « فلاكس » فى عدد من أشداء الرجال لأمر هين ومع هذا لم يتم له ما أراد ، هل لذلك من مبرر ؟ أخبرنى أولا ثم مرنى بالانتظار

پومپی : « فلاكس » فى الموقعة الفاصلة فى هذه الحرب

لنتولس : هذا لغو الكلام (يقف ثم يذهب)

دوميتيس : الفاصلة ؟ ألا أخبرك بالموقعة الفاصلة ؟ لقد كنت فى واحدة منذ ثلاثة أشهر فى ميليا . وعند نهاية الحصار لم يبق من المدينة الا أطلال بالية ، وباد السكان عن آخرهم ، الا نفرا أصابهم الوباء ، ورجالا لا يتجاوزون الأصابع عداً استولى عليهم الجنون من هول الفزع .

قذفتنا القلاع بالنيران ، والدبابات بالحجارة ، ولكن لم ينثن الجند عن تخريب المدينة وتدميرها ، فكنت ترى جيوشا جرارة كأنها قطع الليل

يكل دون غايتها الطرف ، تتنافس فى سبيل الغارة ؛ هذه هى الموقعة الفاصلة .

بومبي : دوميتيس ، حينما يفكر الانسان فى شيء خاص ، وتشتد رغبته فى الحصول عليه ، تغره الأمانى الكاذبة ، وتستولى عليه الوساوس ، ويصير شيطانا رجيما لاشفقة عنده ولا رحمة ، انك أخبث من الشيطان . لأنك إن لم تجد أعداء تحاربهم ناجزت أصدقاءك العداوة ، فان لم يتيسر ذلك أعلنت الحرب على نفسك ، فاذا هزمتها حاربت الأفكار ، لا لأنك تفهمها ، بل لأنك مجبول على حب القتال ، إنى أخافك يادوميتيس لان أصدقاء الرجل هم الذين يفهمون أفكاره وينشرونها بين الناس ، وأنت صديق قيصر

دوميتيس : (بتهيج) لقد قتلت أخى أيام كنت فى ريعان الشباب ، وزهرة العمر ، وأقسمت لآخذن بثأره وأمزقن قلبك تمزيقا . ألا تذكر يوم تناولنا الغداء معاً حينما وضعت يدى على كتفك ؟ ولكن أنى لك أن تذكر ذلك وقد مضى عليه نحو عشرين سنة ، لقد كان بيدى الأخرى سكين حاد أستطيع أن أطعنك به طعنة نجلاء تصل إلى سويداء قلبك ، ولكنى آثرتك على أخى حينما علمت أنك أصدق منه وطنية وأكثر إخلاصاً لبلادك ، وأنك البطل الذى تحتاج اليه روما (سكوت) (بشدة) إنك تخالف ضميرك اذا دعوتنى صديق قيصر ، مع علمك بأنه يخشى بأسى وترتعد فرائصه عند ذكرى .

بومبي : نعم انك صديق قيصر ، فضربات قلبيكما واحدة ، ولست تحقد على الا لأنى لا أسفك الدماء ، ولا ألطخ يدى بها كما يفعل قيصر ، وبينما أنت تنقم منى إذ يصلى فلا كس الأعداء نارا حامية ، فلا تفكر فى أمر الحرب فقد انتهت

(القواد يجتمعون فى جانب الخيمة ويتكلمون ناحية برهة)

يجب علينا أن نوجه كل عنايتنا إلى رومة ، وأن نذود عنها بكل مافينا من

قوة ، هذه هى الثورة السابعة للعامة منذ صباى ، سبع ثورات عامة يراد بها الانقلاب ؟ ألا يعلمكم ذلك شيئا ؟ لقد قدمت إلى قيصر إيطالية مفككة الأوصال ، وأسبانيا مملوءة بالاضطراب عديمة النفع ، فقبلهما ، ورميت اليه نصف الكرة الأرضية فأخذه . وساقه طمعه إلى الشرك الذى نصبته له ، إن الخيرات كثيرة عندنا ، ولدينا أساطيلنا تحمى البحار ، وتسيطر على الأمواج ، أما قيصر فان خنادقه مملوءة بالوحل ، وجنوده تأكل من جذور النبات ، هل تسمى ذلك حصارا ؟ إنه احتفر خندقا طوله ثلاثون ميلا ، ومع هذا رجاله لا يستطيعون الذود عن ثلثه ، فقد استولى عليهم التعب ، ونال منهم الجوع ، فهو وجنده طوع أمرى ورهن أشارتى ، فليس يقدر على مناجزتنا ، ولا الغارة علينا ، ولا على أن يرتد إلى رومة ، وإن طعنة صغيرة فى قلب جيشه تسوقه إلى الهزيمة والفناء العاجل .

(يدخل البريد يحمل رسالة ثم يقدمها إلى بومبي)

البريد : من تتس بلشيو

بومبي : حسن

البريد : أهناك أوامر يامولاى ؟

بومبي : لا ، ووصلت

(يخرج البريد محييا)

ثيوفانيس: أمهمةهذه الرسالة ؟

بومبي : اقرأها .

ثيوفانيس: (يقرأ) من بلشيو ضابط الكتيبة الخامسة ، الى مركز القيادة العام، إن الغارة التى دبرها فلاكس لم تنجح ، فقد ردنا العدو على أعقابنا ، بعد أن خسرنا خسارة فادحة فى الأنفس والأموال ، وتقهقرت البقية الباقية إلى الخطوط القديمة فى جنوب النهر ، ولا يزال القتال دائرا بين الطرفين .

أنا زاحف بمن معى من الجند . لأن العدو فى غاية القوة والمنعة ، ومركزنا يدعو الى اليأس

دوميتيس: هؤلاء الشبان الأغرار يحتاجون الى درس . كيف تبرر الآن عملك يابومبي ؟

پومبى : انتظر

دوميتيس: كيف ذلك وجناحنا الأيمن يطوى طياً ؟

پومبى : ان قيصر ليحتاج الى يومين ليحضر فيهما عددا من الجند يسحق بهم الجناح الأيمن

دوميتيس: حقا يجب عليك ان تكسر العدو

پومبى : ستأكل هذه القوة نفسها ، اذ ليس فى استطاعة قيصر أن يزيد فيها ولا أن يعوضها ؛ إنى احارب وروحة ملء قلبى ، ولن أرجع اليها فوق جثث الموتى وأصلابهم كما فعل سلا

دوميتيس: انك ستسير على جثث هؤلاء الأسرى الذين أخذتهم ليلة أمس فقد قتلتهم

پومبى : كيف قتلت هؤلاء الأسرى ؟

دوميتيس: إنهم خرجوا علينا ، فهم عصاة خونة فروا من جندنا

پومبى : لا بد أن يحاكم الخائنون وتثبت خيانتهم

دوميتيس: لقد فروا من فرقتى وليس لهم جزاء غير القتل .

پومبى : لا تتكلم . إنك تجر علينا العار ، وتجلب لنا الفضيحة (سكوت - تغير فى الصوت)

قد يكون لنا النصر أو سبة الأبد ، وسواء أكتب لنا الفوز أم لم يكتب إن جنودنا ستحارب بشرف ونفوس أبيـة ، لأنهم يجاهدون فى سبيل الوطن ويذودون عن الحق .

(يدخل ضابط كبير اسمه كوتا أعياه السفر وبانت عليه أمارات التعب)

كوتا : أنعى إليك يامولاى القائد ، فلاكس ،

بومبي : هل قتل ؟

كوتا : نعم يا مولاى .

دومتيس: هذا مايحصل فى المعارك الصغيرة ، يقتل فيها العظيم من الرجال ، ومع هذا لا نتيجه لها .

كوتا : لقد ردنا الأعداء على أعقابنا ولم يفلح هجومنا .

بومبي : كيف كان ذلك ؟

كوتا : تسورنا الجدران . وأخذنامعاقلهم . وأضرمنا النيران فى بعض قلاعهم، ولكنهم أحاطوا بنا من كل مكان ، وطلعت علينا كتيبتان حتى ظننا أن لا ملجأ من الموت ولا مفر منه .

بومبي : وماذا جرى لقائدكم ؟

كوتا : قتل فى حومة الوغى يامولاى . لأنهم ساقونا سوق الأنعام ، وردونا الى المعاقل ، وكانت نيرانها تتأجج ، ولهيبها يستعر ، فعمت المصيبة . واشتد الأمر ، وابلى القائدبلاء حسنا . فلقد رأيته مع بعض رجاله وقد انقضت عليهم كتيبة من الفرسان ، فنالوا منهم بالطعن والضرب .

قربت منه وحاولت نجاته ، ولم يمنعني سوى انفجار النيران ، وتراكم الدخان ، وكثرة العدد . أقبل العدو بخيله ورجله ، ورأيت رجالى يقتلون ويصلبون ، وتبعنى جماعة من حملة الرماح ، فقذفوا بى خلف السور ؛ وعند ذاك رأيت جسم القائدملتهبا يهوى فى الفضاء إلى مكامن النيران ؛ ولم يبق فينا من قوة نكر بها على الأعداء ، لأنهم مزقونا شر ممزق ، تشتت الجنود فى السهول كالوعول ، وقتلوا منا ثمانمائة محارب .

لينتولس : هذه هزيمة شنيعة .

دوميتيس: واضيعتاه ! أرواح بريئه أزهقت ، ودماء طاهرة أريقت .

بومبي : ماذا حصل بعد ؟

ساقونا إلى الخنادق القديمة بجانب النهر ، ثم إلى حفرة خلف السور

الخارجى (سكوت) هناك اشتد الزحام،وضاق بنا المكان،فكنا كقطعان الغنم سيقت إلى المذابح ، ثم اجتمعوا علينا من كل ناحية ، وتسلقوا السور زرافات زرافات ،وقذفونا بالأحجار،ورشقونا بالنبال،وأحاط بنا الموت من كل جانب ، وتراكمت جثث القتلى . وتفرقت أصلابهم ، واشتد الفزع ، وكاد الجزع يستولى على قلوب رجالنا ، ولقد زعمت أنهم سيفرون من وجه العدو ويولون الأدبار .

وجدت ثلمة فى الحائط فتسلقتها ، ونظرت فرأيت كتيبة من فرسان قيصر ملأت السهل والوعر ، تستحث الجنود وتردد صيحات دونها زئير الأسود ، وقد برقت أسنتهم ، ولمعت المعاول ، أعملوها فى الحائط أمامهم فتناثرت ، وعلا الغبار ، وأظلم الجو ، وقصد فريق الباب فحاولوا تحطيمه ، واستحضروا شجرة كبيرة ، وما زالوا يضربونه بها حتى تطاير منه بعض قطع ، ولكن كان وراءه ضابط يحميه ويزيد فى تحصينه ، ولما استعصى على الغالبين كسره . تسوروا الحائط وهم يتغنون بأناشيد الحرب، ورشقوا ذلك الضابط بالسهام ، ولكنها لم تصبه . ووقعت حوله حتى تطايرت الحجارة فى وجهه،ولم يكن مع ذلك الضابط سوى جندى واحد يؤازره ويعاونه على عمله . وكلما ضرب الأعداء الباب بالشجرة ، تحمس هذان وصاحا صيحة سرور ؛ ليوهما أنهما فى عدد كثير . وما زالا كذلك حتى كتب لهما الفوز .

فان جنودنا لما لم يكن لهم إلا الموت أو التسليم للعدو ، تسليما يلحق بهم عار الأبد ، استبسلوا فى القتال ، واستماتوا فى الدفاع عن مراكزهم وبلادهم ودمائهم ، وملأت الشجاعة قلوبهم ، وآثروا الموت مع الكرامة ، وحملوا على الأعداء حملة رجل واحد ، فبعثوا الحرب قدما متكاتفين ، فدارت رحاها ، وحمى وطيسها ، واستعر لظاها ؛ وفى تلك الساعة العصيبة سمعنا المزامير والغناء ، وأتت لنصرتنا الفرقة الخامسة على أكمل نظام ، وأتم تعبئة ، فكنت ترى جيشا كأنه بنيان مرصوص ، يموج به رحب

الفضاء ، فزاد حماسنا ، واتقدت الحمية فى قلوبنا . وصدقنا الحملة على رجال قيصر ، فسقناهم سوق الأنعام ، وضربناهم ضرب غرائب الابل ، وأحطنا بهم فى خندق هناك ، وأعملنا فيهم الرماح ، وأشرعنا نحوهم الأسنة ، وروّينا السيوف من دمائهم

فراحوا : فريق فى الإسار ، ومثله قتيل ، ومثل لاذ بالسهل هاربه

وكتب النصر لنا ، ورفرفت أعلامه على جيوشنا ، ولقد خسر قيصر ألف قتيل ، واستولى الفزع على بقية جنده . وخلعت قلوبهم من صدورهم ، وتفرقوا فى السهول ، وذهبت قوتهم فلا يقدرون على لقائنا أو لقاء غيرنا مرة ثانية .

بومبي : حسن جدا (تنفخ الأبواق)

كوتا : إنهم يرسلون الآن جسم القائد مع الاحتفال العسكرى يامولاى .

بومبي : نعم ، اجمع أسماء القتلى والجرحى من جندك وابعث إلى بها . أرح فرقتك ومر لهم بشراب ، وأخبرهم أنى سأتحدث إليهم بعد قليل

كوتا : شكراً لك يامولاى .

(يخرج محييا)

دوميتيس : كوتا ، انتظر لحظة

(يخرج وراءه)

نيوفانيس : إنى أسمع بوق قيصر فهل يريد منا السلام ؟

لينتولس : لم يطلب الينا الصلح بعد معركة صغيرة كهذه .

بومبي : لقد أصابت قلب جيشه ، ولذا تراه يتقدم الينا بطلب الصلح ، فان أجبته كان ذلك مدعاة للحرب مرة ثانية ، وان رفضت استمر الخراب والتدمير وضاع كثير من الأنفس والأموال

نيوفانيس : هل تأذن لمبعوث قيصر بالدخول عليك ؟

(يدخل دوميتيس)

دوميتيس: لقد تقهقر قيصر وتفرق جنوده فى كل ناحية . وفروا من الخنادق وتركوا الأسوار الجنوبية

بومبي : ذلك خير درس له . يجب عليه أن يدفع اليهم ثمن النفوس الطيبة التى ضحوا بها فى سبيله ؛ ولكن أنى له ذلك وكل مافى جهده أن يخلصهم من مصيبة أوقعهم فيها جنونه ؟

تيوفانيس : فى وسعه أن يتقهقر

بومبي : كيف ذلك . والى أى مكان يذهب وأساطيلى تحمى البحار ، وفى الشمال قبائل متوحشة ، وفى الجنوب حصون تموج بالجند، وأنا هنا فى الغرب مع جيش ، والى الشرق متيلس مع جيش آخر ، فليس هناك من وسيلة لنجاته . فهو مضطر الى طلب الصلح .

دوميتيس: هل تقابل مبعوث قيصر ؟

بومبي : نعم ، يجب أن يرفرف علم السلام على روما اذا سلم قيصر وجيشه . . .

دوميتيس: لا فائدة فى تسليمه .

تيوفانيس: يجب القضاء عليه .

لينتولس : وكيف تدير شئون روما وقيصر على قيد الحياة ؟

بومبي : استمرت الحرب زمنا طويلا حتى سئمتها النفوس ، ولم ينجح أحد من كبار القواد فى وضع حد لها ، ولذا لا أرى من مبرر لاتباع طرائقهم ، ان روما يجب أن تمتع بسلام دائم

دوميتيس: اذا لم تضرب قيصر ضربة قاضية ، وتنكل به أشد تنكيل، وتذقه العذاب ألوانا ـ فانك خائن لوطنك .

بومبي : لقد وضعت لنفسى خطة حربية ، ووطنت العزم على اتباعها وعدم التزحزح عنها قيد شعرة ، فاذهب إلى مكانك ولا تسمعنى شكايتك مرة ثانية

(صوت فى الخارج ونفخ أبواق)

الصوت : استعداد ! سلاح ! سلام !

بومبي : ليس للحياة قيمة فى ذاتها وانما قيمتها بالأعمال ادخل

كوتا : (يدخل) الجثة يامولاى ، وهذا مبعوث قيصر

(هنا يدخل حاملو الجثة . وتنفخ الأبواق احتفاء ، بها ويحييها الحاضرون. يدخل ماركس اسيليس مع ضابطين . معصوب العينين . يخرج كوتا والضابطان وحملة الجثة ثم تزاح العصابة)

أسيليس : بومبي قد أحضرت جثة قائدك

بومبي : ماذا تحمل إلينا من الأخبار؟

اسيليس : إنى موفد من قبل قيصر

بومبي : وماذا يطلب ؟

أسيليس : يطلب منك أن تضع حداً لهذه الفتن الشعواء ، فان مآل الحرب الخراب والدمار . إن الآلهة قد أعطتكما نصرا متكافئا . فلكل منكما الآن نصف المملكة ونصف العالم ، وهذه أحسن فرصة لطلب صلح عادل ، أما إذا ساعد الحظ أحدكما غدا فستأخذه نشوة النصر ويشتط فى الطلب ، ويطمع فى امتلاك العالم كله ، حتى لا يبقى للصلح مجال عنده (سكوت) لهذا يتقدم اليك قيصر بطلب الصلح ، ان كان لك فيه رغبة ، وانه ليأخذ عهدا أكيدا على نفسه على ملأ من الناس ، أن يجرد جيشه من السلاح ويسرحه ، فى مدة لا تتجاوز ثلاثة أيام . هذا هو اقتراحه

بومبي : منذ نحو سنة أصدر السناتو أمره إلى قيصر بأن يجرد جنده ، ولكنه لم ينفذ ذلك القرار إلى الآن ، فهو خارج على الحكومة ، ولهذا أرى أنه لابد أن يخضع للسناتو وينفذ أمره ويكون تحت رحمته .

أسيليس : هذه حرب شخصية بينك وبين قيصر .

بومبي : كلا فإنى أمثل السناتو .

أسيليس : إن حزبنا لا يعترف بحزبك ، ولا يرى للسناتو عليه أى سلطة شرعية .

بومبي : أصغ إلى ، لقد حارب قيصر الحكم الجمهورى فلم يفلح . وسأجعل من شروط المعاهدة أن يعترف بتلك السلطة الجمهورية .

اسيليس : إن قيصر لم ينكر هذه السلطة ، ولا يريد القضاء عليها ، وإن وجودى فى هذا المحل ، ومثولى بين يديك لأطلب الصلح إليك ، لاعتراف صريح منه بها ، ولـكنه يحارب أولئك الذين أســـاءوا استعمالها ، وشوهوا وجهها ، وحطوا من كرامتها . وأنزلوها منزلة لا تليق بها .

أستودعك الله . (عند الباب) ستقبل الصلح إذا خضع قيصر ، وركع لك وسجد ، وأتى إليك صاغرا ، هذا حسن – إنه سيفعل ذلك على ملأ من الرومان ، وبمرأى منهم ومسمع . وسيكون لهم حق الحكم عليه أوله . إن حقوق رومة — حقوق الوطن المقدس — أولى بالمراعاة من الشرف الشخصى . ألا يكفى ذلك ؟

پومپى : أرى أن لا دخل للشعب فى هذا الأمر ، وسأعلمهم الخضوع لحكامهم ، وطاعة أولى الأمر منهم ، وإن قيصر ليس ينجيه منا سوى خضوعه للسناتو .

اسيليس : أما وقد أبيت الا حربا ، فأنت المسئول بين يدى الأمة عن الأرواح الطاهرة ، والدماء البريئة التى تراق فى هذا السبيل . (يذهب)

پومپى : يكفينى أن يأتى قيصر إلى صاغرا أمام الجيش ، وأن يرى الشعب منه عملا يدل على الخضوع والاستكانة ، حتى لا يزعموا أنه أرغمنا على قبول شروطه ، بعد أن أخذ إيطاليا منا عنوة .

اسيليس : هل أخبره أنك ترفض الصلح ، (بصوت منخفض) خوفا من ظن العالم بك ، وسوء رأى الناس فيك ؟

پومپى : أتستهين بذلك وتعده قليلا ؟ انما نحارب لتكون لنا السيطرة على الأفكار — لنمتلك قلوب الناس وعقولهم . إنى لا أود السيادة ، ولولا أنى أعرف ما يتطلع اليه قيصر لما ناجزته العداوة ، إنه يرغب فى أن يكون ملكا واسع السلطان ، وأن يحلى رأسه بالتاج . حتى لقد استهوى العامة ، واستمال قلوبهم بما نثر عليهم من الدراهم والدنانير .

على قدر عقل المرء وبعد نظره ، يكون فوزه ؛ فيجب علينا أن نحسب حساب المستقبل ، حتى لا نقع فى الشر . إنى أرى رومة

ملطخة بالدماء ، تئن تحت مظالم القياصرة بعده ، وهى تمد إلى يدا للأخذ بناصرها . أنا شيخ كبير مارست الحرب وجربتها طول حياتى ، فهى متنفة للعباد . ذهابة بالطارف والتلاد . وسأقضى عليها قضاء لا تتنفس بعده أبدا . لقد سمعت الشروط (يضرب الجرس)

(سكوت — يدخل ضابط)

هل تقبلها أو ترفضها ؟ لا تعجل ففى العجلة الندامة .

اسيليس : أرفضها !

بومبي : (للضابط) خذ فرقة من الجيش وأغِر بها على طلائع قيصر ، وأضرم النار فى معاقله .

(يخرج الضابط)

أسيليس : ليس هناك إذن مجال للصلح ، ولا بد من قطع المفاوضة . فان لنا نفوسا تأبى الذل . وتفضل الموت مع الكرامة ، فلا تقبل تلك الشروط المهينة . لقد أديت الواجب ، فهل لك أن تصغى إلى نصيحة اختصك بها؟

بومبي : نعم . (للقواد) اتركونا برهة

(يخرج القواد)

اختصر ، فخير الكلام ما قل ودل (يخاطب بهذه العبارة أسيليس)

أسيليس : لقد تزوجتَ والدتى منذ زمن بعيد ، على الرغم من والدى ، لأنك أردت أن تكون عوناً لك على الانتخاب ، ولكنها ماتت كسيرة القلب حسرة وندامة . وهى فى فراشك وتحت رعايتك ، وأراك الآن تلجأ إلى شر الوسائل وهم الأشراف ، لأنهم يريدون القضاء على الديموقراطية باسمك ، ليتوسلوا بذلك الى التحكم فى رقاب الناس ودمائهم وأموالهم زمنا . وحينما يتم لهم ما يريدون وتنتهى الحرب . . .

بومبي : لا طاقة لى بسماع مثل هذا الكلام (يحاول دق الجرس)

أسيليس : لا يسعك إلا أن تدخل الإصلاح الذى يحارب قيصر فى سبيله . إنك تريد أن تشل سلطة الأشراف ولكنك ستجد منهم أشد معارضة .

دوميتيس يكرهك . ميتلس يخافك . لينتولس قد ملئ قلبه غيرة منك ، وهم يدبرون طريقة للخلاص منك الآن (سكوت)

تخلص منهم أنت ، وباعد بينك وبينهم ، واتخذ قيصر صديقا لك ، وضع حدا لهذه الحرب الضروس .

بومبي : وبعد ذلك ؟

أسيليس : تكون رومه أطوع لك من بنانك ؛

(بومبي يدق الجرس — يدخل القواد)

بومبي : ثم ماذا ؟ (سكوت) يخضع حزبك لحزبي ، (يكتب بعض الكلمات) بلغ هذه لقيصر (يعطيه ما كتب) اسمحوا لهذا الرجل بالمرور آمنا .

أسيليس : إني ذاهب الآن وأظن أني لا أراك مرة ثانية .

(يخرج تيوفانيس)

بومبي : (يحول وجهه) ماذا تريد ؟

أسيليس : دع الكبر جانبا . ألا تعتبر بما ترى حولك من آثار الموت ؛ إنك اليوم عظيم ، يؤدي إليك الجزية ويحمل لك الإتاوة عدد من الملوك ، وربما صرت غدا جسدا هامدا ، كهذه الجثة (يشير إلى جثة فلاكس) تثني عليك الحشرات ، ويأكلك الدود .

بومبي : لقد ذكرت الموت وقربه ، وقلة أشياعي عليه ، ولكني أتمتع الآن بالحياة ، ومع هذا ، مرحبا بالمنون ، (يدخل كوتا والضابط وتيوفانيس ويحيون)

لست أعبأ بما يئول إليه أمري بعد . فلربما صرت جيفة . يأكلها الطير ، وتنال منها السباع ، ولكن ما دمت حيا أحمل بين جوانبي مبدأ طاهرا ، فلا بد من الدفاع عنه بكل ما أوتيت من قوة وسلطان ، اصحبوا هذا الرجل حتى يمر آمنا على نفسه .

(كوتا والضابط يخرجان الرسول معصوب العينين ـ أبواق . ضوضاء . هتاف .)

(ينظر القواد إلى بومبي وهو يمشي نحو الجثة ليراها) بعيد مداه

مسكين أنت ! فارقت هـذه الحياة ، ورحلت إلى عالم آخر . إنك حينما ولدت التف حولك النساء وقبلنك ، وراقبنك فى مهدك ، وقد ملأ النوم أجفانك ، وسألن الله لك السلامة وطول البقاء ، جريا على عادتهن ، ولما تعلمت الكلام مدحنك ، وابتسمن فى وجهك ، وامتلأت قلوبهن شفقة ورحمة عليك ، وتظاهرن بالسرور حتى لو كان الألم ملء أفئدتهن . أما الليلة فإنى أراك وحيدا لا أنيس لك ، ولا سبيل الى محبتك ؛ لا تسمع صوتا ، ولا تجيب داعيا ، ولا تشعر بهم من هموم هذا العالم . وا أسفا لوحدة الموتى ووحشة القبر !

دوميتيس: (يمشى إلى الأمام ثم ينظر إلى الجثة) إن الحزن لا يجدى ، وقد جرى ذلك فى علم الله.

بومبي : أريد أن أصارحك القول . إنى أعترف لك ببعض الفضل فيما فعلت ، لو اتبعت مشورتى لكان خيرا . حقا نتيجة الحرب الخراب ؛ وهذه آثاره بادية ولكن لا راد لما كان ، ففكر فى رومه ، وكيف ترجع اليها ولم تنل النصر المبين؟

لينتولس : إنهم يقولون جهارا فى رومة : إن قيصر هزمنا شر هزيمة

تيوفانيس : وغُلبنا فى كل موقعة

بومبي : ماهذه الضوضاء (صياح : « النصر » تصفيق . أبواق . نداء : «استعداد» قعقعة الرماح ، (يدخل لوسيس فى ملابس مدنية)

لينتولس : لوسيس !
تيوفانيس : لوسيس !
} معا

(لوسيس ينظر إليهما ساكنا يحيي الجثة ويتقدم ببطء)

لوسيس : أحييك يابومبي ، لقد أتيت من رومه

بومبي : ما وراءك من الأخبار ؟

لوسيس : أخبار انتصارك ، فان جيش قيصر تحت قيادة كيوريو قد هزم هزيمة شنعاء وقتل قائده وردت الينا افريقية بعد احتلالها (يأخذ قوس النصر

ويقدمه له بكل احترام) لقد بعثنى اليك الرومانيون بهذا الشعار .

پومپي : (يتناول قوس النصر ويضعه على رأس القائد فلاكس) منذ زمن بعيد لعبت معك مرة فى كابيو بجانب بحيرات السمك الذهبي ، فكانت أبصارنا غارقة فيه ، نرقبه فى حركاته وسكناته ؛ وفى ذلك اليوم الجميل سألتنى أن أمنحك عباءتى (يضع العباءة على الجثة) فى ذمة الله ايها الراحل ، نم هادئا فلك جميع ماتتمنى الآن : إن الكلمة ربما كانت كنجم لامع فى السماء ، أو سيف شديد المضاء ، يظهر لى أن هذا يوم الفوز والنصر على الأعداء ، (ويسمع صوت الأبواق من بعيد مرة ثانية)

تيوفانيس: إن الأبواق تنفخ الآن .

پومپي : إنها بنغمة محزنة كأنها نغمة الموت .

دوميتيس: هذا نداء رومانى فى معسكر قيصر (يزحزح بيده جزءا من الخيمة جانبا) هـذا هو ضرب الاستعداد للرحيل ، إن قيصر يتقهقر بجنوده ، وقد اشتعلت النيران فى خيامه ، وإنى أرى جيشه الآن يعبر المضيق . ويكفى لإبادته عدد من الرجال لا يتجاوز الألفين .

پومپي : لست أود إبادتهم ، ومع هذا سيهلكون أنفسهم ؛ فإنهم يتيهون فى أرض موحشة ، لا نبات بها ولا ماء بعد أن ذهبت آمالهم ، واستولى عليهم الفزع ، وخلعت قلوبهم من صدورهم — وارحمتاه لجيش تردد أبواقه نغمات الموت الذى ملأ قلوب الرجال وتمثل فيها ! سنتبعهم . ادع لنا رؤساء الضباط

(تيوفانيس يذهب إلى الحارس فى الخارج ليبلغه الأمر)

لنا النصر (يذهب إلى الجثة) سنغادر الليلة هذه الأرض القاحلة مقتفين أثر قيصر . وملبين نداء الأبواق تحت سماء زينتها نجومها ، تتغنى فى أثناء المسير وقد تزودنا لسفرنا ، فليت شعرى ما زادك لبعد طريقك ؟ . سأضع حدا لهذه الحرب الطاحنة ، بالقضاء على الثورة وأسبابها . لا بقتل هؤلاء الرمانيين .

(يدخل كبار الضباط)

انفخوا الأبواق ، واطووا الخيام . واستعدوا للمسير ، (يخرج ضابط فينادى : احملوا هذه الجثة)

الضابط الأول :

عليك سلام من أمير ، وباركت يد الله فى ذاك الأديم الممزق
فمن يجر أو يركب جناحى نعامة ليدرك ما قدمت بالأمس يسبق

الضابط الثانى :

سأبكيك ما فاضت دموعى فان تفض فحسبك منى ما تكن الجوانح
كأن لم يمت حى سواك ولم تقم على أحد إلا عليك النوائح
لئن حسنت فيك المراثى وذكرها لقد حسنت من قبل فيك المدائح
فما أنا من رزء ، وإن جل ، جازع ولا بسرور بعد موتك فارح

الضابط الثالث :

حرام على الأجفان أن ترد الكرى أجل ، مالها إلا التسهد مورد
هو الدهر يرمينا بأسهم صرفه فيصمى الرمايا حين يرمى ويقصد
فلا جمع إلا والزمان مفرق ولا شمل إلا بالخطوب مبدد
جرت عادة الدنيا بكل الذى ترى وليس لها ترك لما تتعود
فصبرا ، وتسليما لكل ملمة إذا لم يكن يوما على الدهر منجد

الضابط الرابع :

أحسن بالواجد من وجده صبر يعيد النار فى زنده
ومن أبى فى الرزء غير الأسى كان بكاه منتهى جهده
سلم إلى الله فكل الذى ساءك أو سرك من عنده

(يحملون الجثة ثم يخرجون . ووراءهم بومبي ولا يبقى سوى دوميتيس وتيوفانيس وليتولس ولوسيس) .

تنفخ الأبواق ويرن صداها ويذهب بعيداً . وتردد النغمات فى جهات متعددة ؛ حتى يمتلىء الهواء بصداها ورنينها .

تنزل الستارة

المنظر الثانى

فى خيمة پومپي وقد انفجر الفجر ، وجلس پومپي يكتب بعض المذكرات

(يدخل لوسيس)

لوسيس : ألست نائما ؟

پومپي : لقد تواردت على الأحلام ؛ أحلام الشر . هل كنت تطوف على على المعسكر وتتفقد حاله ؟

لوسيس : نعم لقد رأيت فى أثناء طوافى بالقرب من معسكر قيصر ، نورا ينبعث فى كل الجهات. ويظهر أنهم يحرقون جثث موتاهم . وقد أخذت كشافتنا اثنين من فرسان العدو وهما يقولان إن رجال قيصر يموتون جوعا وإن الحمى منتشرة بينهم .

پومپي : إذن يجب عليه أن يخضع فى بضع أيام . أتظنهم يضرمون النار فى موتاهم ؟ أمامنا الآن رومة فيجب علينا أن نفكر فى شأنها ونقرر مصيرها ونطمئن أفكار الناس فيها . (سكوت) اعترانى الأرق وأقض على المضجع وسبح الفكر فى ملكوت السموات والأرض ما شاء . أناشدك الله ماهو الإنسان ؟ وهل تعرف له من غاية ؟

لوسيس : خلق الإنسان من تراب وغايته الموت .

پومپي : كلا . إن له روحا لا تفنى وقد استأثر الله بعلمها . لقد رأيت رجلا مجنونا أيام كنت فى مصر : يصوب عينيه نحو الشمس ، حتى نال وهجها من بصره ؛ ولما دنوت منه سمعته يقول : إن الأفكار تخرج من الشرق كالجراد ، فتهبط فى ممرها على بعض الأمم ، وتنفخ فيها روح الحياة ، فاذا أخذت البلاد زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، اذن الله بذهاب تلك الأفكار ، فغادرت مستقرها وهامت فى الصحارى والقفار ؛ حتى يأتيها أجلها ، وتموت وتقبر فى كهف كان

يأوى إليه الانسان المتوحش. وطالما خطر ببالى أن هذا رجل ألهمه الله الحكمة وأطلعه على بعض أسراره فى خلقه فتظاهر بالجنون، إنى أرى طائفة من الافكار الجديدة قد هبطت رومة فتمخضت عن حياة جديدة وعصر جديد، لقد زعمت منذ سنة أن رومة كانت تتطلب رجوع الملوك وعودة الحكم الشخصى، ولكنى أرى الآن انها ترفع الصوت يدوى فى الفضاء وتتلمس جبارا طاغية يقضى على الحياة القديمة؛ حتى لا يتوارى منها شىء.

لقد تغيرت رومة فصارت فى الحقيقة مثلا للقوة (الديموقراطية) تحاول القضاء على كل القوانين القديمة التى أكل الدهر عليها وشرب، واتسعت مسافة الخلف بينها وبين الحياة. أما فى الظاهر فلا تزال كما كانت قبلا- مدينة لا تكافئ سوى نفر قليل من العظماء، وسوقا يبيع العامة فيها أرواحهم، رغبة الحصول على قوت يومهم؛ واجسامهم طمعا فيما قد يصيبون من السلب والنهب والمغانم الكثيرة. لابد ان يمنح الشعب سلطة كبيرة.

لوسيس: (بدهشة) لقد سلخت اربعين عاما من عمرك فى القضاء على الديموقراطية، فلا معنى اذن لمنح الشعب مايريد من القوة والسيطرة.

بومبي: نجحت فى قمع الثورات ولا بدمن إزالة أسبابها الآن وحدوث تغيير عظيم وإصلاح كبير.

(يدخل ميتلس ودوميتيس ولنتولس)

لوسيس: (يقدم ورقة) هذا هو تقريرى (يحيى ثم يذهب ويقف عند الباب قليلا ناظرا إلى الخارج) إنهم يموتون كالذباب، والجثث لا تزال تحترق (يختفى)

(يجلس القواد أمام بومبي وجها لوجه)

ميتلس: اختصنى قيصر برسالة يرجونى فيها أن أسألك عن شروط الصلح، فرددتها إليه من غير تعليق عليها، انتهت الحرب غير أنا لسنا آمنين

على أنفسنا إلى الآن ؛ لهذا يجب علينا أن نملأ الحصون والثكنات في كل الجهات برجال نوليهم ثقتنا ونعتمد عليهم في الدفاع عنا ، ولقد اتفقنا فيما بيننا على من يتولى أمر أسبانيا وبلاد الغال ، ولكن الوظائف الثانوية لم نتفق فيها على شيء الى الآن انتظارا لمشورتك ، ولعلك تعنى بأمر تيوديتانس الذى فكرت فى إرساله نائبا عنى فى آسيا

پومپي : أذلك هو الرجل الجندى الذى أبلى بلاء حسناً تحت قيادتك ؟ (يخاطب دوميتيس)

دوميتس : لا . هو ابن أخيه

ميتلس : هو ضابط حدث فى أركان الحرب .

پومپي : أتراه كفئا لهذا المنصب ؟ وهل تسمح له تربيته وتؤهله لأن يكون رئيس القضاة ؟

ميتلس : لا ، إذا تكلمنا من الجهة الفنية ، ولكنه كان من أنفع الناس لى فى آسيا ، وهو ذو مقدرة عملية

پومپي : كيف نفعك ؟ وبأى وسيلة ؟

ميتلس : فى جباية الخراج ، حينما أراد العامة أن يماطلوا ، وان يخرجوا من تحت أيدينا ، حتى يأتى اليهم قيصر ، ولولا ما اظهر من حسن التصرف والحزم ، لخلت خزائننا من المال ،

پومپي : هذا حسن ، ولكن رئيس القضاة يمثل روما ، ويحمل تبعة كبرى ويحكم بين الخصمين ، ويسوى بينهما فى مجلسه ، ويحافظ على القانون ويقيم العدل بين الناس ويجب ان يتعلم مهام وظيفته ، ولكن قل لى ماذا فعل فضلا عن جميع الضرائب حتى نضرب بالقانون عرض الحائط ، ونعينه رئيس القضاة ؟

ميتلس : إن والده قد ضحى بكثير فى سبيلنا ، وهو شاب ذكى الفؤاد ، مملوء بالإخلاص ، ويجب علينا أن نساعده فى أمره ، وإنى أوصيك به خيراً

پومپي : إن حسن رأيك فيه سيكون خير مساعد له ، هل أظهر كفاية فى

الإدارة ، ودهاء فى القيادة ، وصبراً جميلا فى ميادين القتال ؟

دوميتيس : كان فى فرقة الفرسان مدة من الزمن .

پومپي : ولكن أنى لك أن تثق به وتحسن رأيك فيه ؟

ميتاس : لاتبحث فى هذا ؛ لأنى أسير على مقتضى القاعدة ، وهى أن أصدقاءنا يجب أن يكافئوا .

پومپي : رئيس القضاة عظيم السلطان ، ولابد أن يتعلم واجبه قبل استحقاق مركزه .

لينتولس : هل لك فى أن تراه قبل ان ترده خائباً . ان ميتلس ودوميتيس لا يمدحانه إلا لسبب خطير .

پومپي : لابد من سبب معقول ، وإلا كان عملنا محاباة لا تتفق مع القانون وربما كان من نتائجها حصول حرب وثورة على الحدود . لا يسعنى أن أعينه رئيس القضاة .

ميتاس : بومبي ، ينبغى أن تذكر أنه أحد الأفرادالذين يحق لهم أن ينتظروا منا الوظائف

پومپي : إن السلم سيظهر مقدرتهم وكفايتهم ، وهناك آخرون مع قيصر ، يحق لهم كذلك أن يتقلدوا بعض المناصب (ينظر القواد بعضهم إلى بعض ويتنفسون الصعداء)

دوميتيس: هناك شيء آخر ، إنا ذاهبون إلى روما وهى فى حالة اضطراب وثورة ويجب أن نأمن على أنفسنا من خطر الأعداء ، ولذلك أسألك محاكمة كل رجل له بين الناس منزلة فى روما ولو بقى على الحياد ، لأن الثائرين إن أذنبوا بالخروج عن السلطة ، فان المحايدين قد أهملوها ولم يعبئوا بها ، وكلا الفريقين يجب أن يناله منا العقاب ، حتى نستأصل جذور الثورة (يعطيه قائمة)

فى هذه أسماء أربعمائة رجل ممن ساعدوا على إشعال نار الثورة ، وليس هناك مجال لمحاكمتهم ، ومناقشتهم الحساب ، بل يجب أن يقتلوا

پومپي : كلا ، إن الحرب تنتهى حينما يخضع قيصر ، ولا أسمح لأحد ما بالانتقام إن روما يجب أن تكون ساكنة هادئة مطمئنة

لينتولس : هل لك فى أن تبين لنا الخطة التى ستسير عليها فى حكم روما حينما ترجع ؟

ميتلس : (بهدوء) سيكون هناك عفو عام عن جميع الجرائم التى ارتكبت ؟

پومپي : نعم

دوميتيس: أتعفو عن هؤلاء الثائرين ؟

پومپي : إذا خضعوا

لينتولس : هل تسمح لهم بمساعدتنا فى الإصلاح ؟

پومپي : إن السلطة محصورة فى عدد قليل من الأيدى ، ويجب أن يحدث تغيير فى روما وطرائق حكمها . وإنى أوثر أن يكون هؤلاء الأربعمائة ، الذين تسميهم عصاة ثائرين ـ من أعضاء السناتو حتى يساعدونا على إدخال الإصلاح مع الحزم والحكمة .

دوميتيس: هناك طريق واحد لا غير فى جعل روما هادئة مطمئنة ، ذلك بأن يقبض الإنسان عليها بيد من حديد .

لينتولس : إن العفو عن هؤلاء العصاة سيحلنا محلنا الأول الذى كنا فيه قبل الحرب ، وسيبغضنا العامة ويسخرون منا ، ونكون فى خطر منهم ، وعرضة لضياع أملاكنا ، وفقد امتيازاتنا تدريجاً ، وإنى أتقدم اليك أن تفكر فى هذه الاقتراحات ، وتنظر فيها بعين الحكمة والحزم ، وترى أثرها ونتائجها فى حزب الأشراف ومستقبل البلاد

پومپي : أى مستقبل تنتظر بعد مذبحة كهذه ، ثورة عامة فى جميع الجهات سأرجع إلى روما وعلم السلام بيدى ، يرفرف على كل رجل من أعدائنا وأصدقائنا على السواء .

لينتولس : قبل أن ترجع بسلام يجب أن تضع حدا للحرب ، وقد وصل إلى رسائل من روما وصوت الشعب هناك ينادى جهرة بأن الحرب قد طالت مدتها ، وإنا نخاف قيصر وجنوده ، ونخشى الغلب إذا عجلنا

بالموقعة، وهذه روح خطرة فى مدينة تتولى حكمها بعد قليل . هذه الروح لا يذهبها إلا نجاحنا نجاحا باهراً فى هذه الحرب، يجب أن نرجع منصورين ، ولهذا أتقدم اليك بأن تأمر بموقعة يكون فيها لنا النصر .

ميتلس : لقد سألنا ذلك من قبل فلم نلق منك آذانا صاغية ، ولكنا نكرر السؤال ونعيده عليك الآن . إن جميع ما فى خزانتنا من المال قد قرب أن ينفد ، وليس هناك من طريق للحصول على الذهب والفضة ، فالبلاد فى فقر مدقع ، وحالة الناس تستدعى الأسى ، وطريقتك السلبية ـ طريقة الانتظار والتأجيل ـ أنزلت من قيمتنا لدى العامة . ليس فى استطاعتنا البقاء فى الميدان شهراً آخر ، فيجب أن ننادى فى الجند : « الغارة الغارة »

بومبي : قيصر لا يستطيع البقاء فى الميدان أسبوعا .

دوميتيس : سيستمر قيصر يوما بعد يوم ، حتى ينضج القمح الذى بدا صلاحه وسيحصد بعد أيام قلائل ، وعندئذ يجمع رجاله الذخيرة والزاد ، ويتمكنون من المقاومة والبقاء فى ميادين الوغى زمنا طويلا ، مع أن فى استطاعتى الآن القضاء على جيوش هذا الخارج بطائفة من الفرسان

بومبي : يمكننى أن أحطم قوته من غير مخاطرة برجل واحد ، ولا إلقاء بنفس إلى تهلكة . أنا لا أبتدىء الحرب ، وينبغى أن تشكروا الله على أن هيأ لنا أسباب القضاء على هذه الفتنة الشعواء من غير سفك للدماء .

(يقف القواد)

دوميتيس: أنت اكبرنا سنا يالينتولس

لينتولس : ولكنك محبوب لدى العامة ، فلم لا تصارحه القول ؟

ميتلس : سأفعل ذلك ، وأكفيكما مئونة الكلام ، ولى من حسبى وصلتى به خير شفيع .

بومبي : فيم تريدون الكلام ؟

ميتلس : إنك مغرم بالسيطرة ، مولع بحب الرياسة ، وليس أدل على ذلك من إهمالك فى الحرب ، وعدم وضع حد لها . وها هى ذى قد انتهت وانقضت معها قيادتك ، إنك تحاول الآن أن تكون لك القيادة دائما ، وأن تحمل السناتو على النزول عند إرادتك . والخضوع لإشارتك ، ولا شك أن ذلك خطر كبير يتهدد الجمهورية ، ولهذا اضطررنا لدعوة السناتو للاجتماع حتى يتناقش الأعضاء فيما ينبغى اتباعه فى الظروف الحاضرة ، ولقد وافق على تعيين تيوديتانس وعلى هذا الكشف وأصدر أمره لك بمحاربة قيصر ومناجزته الغارة (يعطيه ورقة . يمشى بومبي قليلا ثم يقف بجانب منضد ويواجه القواد)

پومپي : ماذا تنتظرون منى أيها الآباء المجندون ؟ أتنتظرون أن أرفض هذه الأوامر ؟ إن فى استطاعتى ذلك ، ولو كنت قيصر أو واحدا منكم لفعلت ، ولجأت إلى القوة ، وحملت الجند على الانتقام من السناتو ، الذى أهاننى ، ونال من شرفى ، وحط من كرامتى عند الشعب ، ولكن العهود العسكرية التى أخذتها على نفسى تمنع پومپي الكبير من ذلك : إن الموت مع الكرامة أهون لدى من فقدان الذمة ، على أنى لو مت فان روما ستقع فريسة لطائفة من الرجال الذين لا عهد لهم ، ولا يتقيدون بقانون ، ولا يثبتون على مبدأ . لم يبق لروما من أمل فى ذلك المستقبل الذى كانت تنشده وتتطلع إليه . لقد انتهت عظمتها ، وستتوالى عليها المصائب .

وما منعكم عن أن تنزلوا منزل الذلة والخضوع والاستكانة بباب قيصر إلا پومپي هذا ، الذى خرجتم عليه ، وكدتم له فى الخفاء ، بعد أن خلص روما ، ونجاها من قيصر وجنوده ، وها هى ذى تمد إليكم يدا للأخذ بناصرها ، وانتشالها من مخالب الخراب العاجل ، الذى دفعتم بها إليـه ، وجعلتمونى وسيلة له ، وما أولا كم بأن تحاربوا فى

سبيلها أولا ، وتخاطروا بحياتكم على أن تختفى ذنوبكم وتلبسوا ثوبا من الكرامة لدى العامة (يدق الجرس)

(يدخل « ياوره » الخاص)

أعط الأمر بالتحفز للموقعة

(يخرج)

الآن تم لكم ماتريدون ، وعما قليل تنتهى الحرب ، ولكن هل دار بخلدكم أنكم بعملكم هذا تخربون روما ، مع مااشتملت عليه من آثار الآباء والأجداد ، روما مهبط الحضارة ، ومستقر العدل .

إن روما لا تزن عندكم جناح بعوضة ؛ فقد عميت قلوبكم ، وعلت الغشاوة أبصاركم ، واستسلمتم لما اشتملت عليه نفوسكم من العداوة والبغضاء والطمع والكبرياء .

كانت روما منذ زمن قليل سوقا تجارية ، يحكمها نفر من الزارعين ولكن أوروبا الآن تدين لها وتخضع لحكمها .

استمرت الحرب الأهلية أربعين عاما ، وعم القلق ، وساد الاضطراب ، وجاهد الشعب فى سبيل الحرية

(ضوضاء فى الخارج وأصوات الضباط يلقون الأوامر على فرقهم بالاستعداد للسير ، ومناجزة قيصر الحرب . تنفخ الأبواق)

منذ خمس دقائق كان مستقبل روما فى يدى . أصوره كيف شئت وكنت عقدت العزيمة على خلاصها من يد كل جبار عنيد .

هذا هو وقت خلاصها ، فحاربوا فى سبيلها وفكوا أغلالها ، وحلوا قيودها ، واجعلوا لها بين السماكين منزلة ، حتى ينسى الناس ذكر أثينا ، وما شاده اليونان قبلكم ،

أنكم تضنون عليها بذلك ، وستتبعون شهواتكم ومطامعكم ، وترجعون بها القهقرى ، وتؤخرونها ثلاثمائة سنة

استمروا فى أعمالكم وخربوها أو تموتوا ، وسواء عليكم أغلبتم أم

نال منكم عدوكم ، إن روما قد انتهت « سكوت »

« أوامر عسكرية تلقى فى الخارج . وقع أقدام الجند فى سيرهم »

دوميتيس : هل عندك أوامر أخرى ؟

پومپي : طالما تمنيتم لو حاربتم هذه الموقعة ، وهاهى ذى الحرب قد جدّت بكم فجدوا ، وأحرقوا بنارها هذه الحيوانات الضارية — لقد كان فى استطاعتى أن أقتلهم جوعا كما تموت الوحوش .

(يخرج القواد بهدوء أما بومپي فيقف بجانب المنضدة ويدخل فيلب فلا ينظر إليه . تسمع نغمات المزامير أمام الجند تشجعهم على المسير)

فيلب : هل من حاجة يامولاى ؟

پومپي : (يلتفت) هل تغنى يافيلب ؟

فيلب : أغنى يامولاى ؟

پومپي : نعم . ألا تذكر تلك الأغنية التى غنيتها ذات ليلة فى الحروب الأسيوية حينما تم لنا النصر ؟ لقد كانت تدور حول الفناء ، ونهاية جميع الأشياء

فيلب : (شاكا) لست أدرى إن كنت أستطيع ذلك يامولاى ؟

پومپي : غن يافيليب

فيلب : سمعا وطاعة يامولاى

ينشد

ياليل قد نام الشجى ولم ينم   جنح الدجنة نجمها المسهار

إن كانت الخضراء روضا ناضراً   فلعل زهر نجومها أزهار

والناس مثل النبت يظهره الحيا   ويكون أول هلكه الأظهار

والجهل أغلب غير علم أننا   نفنى ويبقى الواحد القهار

« تنزل الستارة »

« يتبع »

شِكْسبير وقُسُّ بن سَاعِدَةَ الإِيَادِى

بقلم طه عبد الفتاح

المدرس الأول للغة العربية بينها الثانوية

كنت أجيل النظر فى كتاب « الكنز الذهبى » Golden Treasury ، وهو كتاب إنجليزى ، جامع لطائفة كبيرة من المختارات الشعرية الإنجليزية ، التى انتخبت من كلام فطاحل الشعراء فى عصور الأدب المختلفة ؛ فعثرت على قصيدة من قصائد شكسبير ، وقف عندها النظر ، لا وقفة الاستحسان والإعجاب بها ؛ فإن ذلك الاستحسان كان موجوداً ، ولكن لم يكن هو الذى أوقف نظرى . بل الذى أوقف نظرى أنى شعرت كأنى فى سوق عكاظ أصغى إلى قس بن ساعدة الإيادى وهو على بعيره الأورق ينشد القوم أبياته المشهورة ، التى أنشأها فى ختام خطبته المعروفة ، تلك الخطبة التى نظر فيها إلى مشاهد الكون نظرة اعتبار وموعظة . أذكرتنى قصيدةُ شكسبير أبيات الإيادىّ ، لأنه نهج طريق أسلوبه ، وإن اختلف اللسانان . فأحببت أن أترجم للسادة الكرام القارئين قصيدة شكسبير ، وأن أنظم الترجمة شعراً ؛ وآثرت أن أصوغها فى البحر والقافية اللذين آثرهما الإيادىّ ؛ لأزيد التشابه بين الشعرين قوة وجلاء .

وسأعرض قصيدة شكسبير مترجمة ، بعد عرض أبيات قس ؛ ثم أتبع ذلك بقليل من الموازنة بين الكلامين والشاعرين .

قطعة قس بن ساعدة

فى الذاهبين الأوّلـــين من القرون لنا بَصَائِرْ
لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصـــادرْ
ورأيت قومى نحـــوها تمضى : الأكابر والأصاغرْ

لايرجع الماضى إلـىَّ ولا من الباقين غابرْ (١)
أيقنت أنى لا محَا لَةَ حيث صار القوم صائرْ

قصيدة شكسبير

الدهر والحبّ (٢)

— ١ —

لما رأيت الدّهر طاحَ بما بَنَى العُصُرُ الغوَابِرْ
بيَدٍ مُدَمِّرَةٍ لما قد شيّدَتهُ من المفاخرْ
دكَّ البروج الشامخا ت فأصْبَحَتْ دِمَناً دواثرْ
وأهاب بالعادىّ من شبَهٍ فلبّى وهْو صاغرْ (٣)

٭٭٭

ورأيت جيش اللجّ يفتكُ بالْجَدَالَةَ وهْو ثائرْ (٤)
يبتزّ من جنَبَاتها غُنماً ويبسُطُ حُكمَ ظافرْ
والأرضَ دائبةً لها فى صَوْلها جَهْدُ المثابرْ
تسطو على اللجّىّ محْـرزَةً لربح منه وافِرْ
إن يَغْتَنمْ تَغْرَمْ ، وإن تُصِبِ المكاسب فهْو خاسرْ

٭٭٭

(١) بمعنى باق . وقد تأتى بمعنى ماض

(٢) العنوان بالإنجليزية : Zime Ans Love وكلمة love تطلق على الحب بضم الحاء وهو المحبة والعشق ، وعلى الحب بكسر الحاء وهو المحبوب ، وسياق القصيدة صالح لإرادة أى معنى منهما .

(٣) الشبه والشبهان : النحاس الأصفر ، والظاهر أن التمثيل به دون سائر المعادن لأن بعض الغابرين استعمله فيما خلف من آثار ، لطول تحمله وبقائه .

(٤) الجدالة الأرض

ورأيت زهرة دولة ترنو لبهجتها النواظِرْ
لَبِثَتْ تدَاوَلُ بين ذى حظٍّ وذى نحس مغادرْ
ولرُبما وَهَنَت فدا رت بالْبِلَى فيها الدوائرْ

٭٭٭

ألقَى الدَّمَارُ عليّ در ساً أنْ أفكّرَ فى المصايرْ
وعلمت أنْ سيَمُدُّ جا رحة تروّع من تبادرْ (١)
فتبزّ ني حبّى وذا ماصرت من دهرى أحاذرْ
وعلمت أنّ يد البِلَى كالموت يخطف من يُسَاوِرْ
لا يَنْتَقِى أحداً فَيَجْـتَاح الأكابر والأصاغرْ

— ٢ —

دانت له صُمُّ الصَّفَا وعنَا له يَبَسٌ وزاخرْ (٢)
وأطاعه الشَّبْهانُ لَيْـسَ على توقّيه بقادرْ
أنّى يقاوِمُـهُ الْجَمَا لُ إذاً فتَعْدُوهُ المخاطرْ
والحُسْنُ ليس بفاضـل فى بأسه غضَّ الأزاهِرْ ؟

٭٭٭

أنّى لمعسـول النّسِيـ مِ وقد سَرَى حُلْوَ المناشرْ
أنْ يبتغى سُبُلَ السَّلا مة والزمان له محاصِرْ
حفّتْه بالْهَلَكَاتِ أيّـ امٌ مدمّرة قواسِرْ
أعيتْ جليد الصخر وَهْـوَ كعهده صلب المكاسرْ
وسَمَتْ على الفولاذ فَهْـو إزاءها فى البأس خائرْ ؟

٭٭٭

(١) الجارحة اليد
(٢) صم الصفا : الحجارة الصلبة . عنا : خضع . زاخر : بحر

وَيْلِى ! فتلك هواجس تسرى فترتاع الخواطرْ
آه ! فأين عَنِ الزما ن وكَنْزُهُ بالدّر عامرْ
تَكْتَنُّ لؤلؤة يَرَا ها عنده أسنَى الذخائر ؟
بَلْ مَنْ له فى الناس كـ فـّ بأسها فى القبض قاهرْ
تَعْتَاقُ رِجْلَ الدهر وهـْ وَ بها إلى التدمير باكرْ ؟
بل من يصون الحسن عن فَتَكَاتِ أيديه الجوائرْ ؟

٭٭٭

ياحَسْرتَا ! ما فى الورى أحد لِصَرْف الدهر حاظِرْ
لو كان فى المعقول أوْ فى مُكْنَةِ الأمر المياسرْ
أن يستمرّ الحبُّ يشْـ رِق وهو بالأنوار زاهرْ
فى حين يغمره من النّـ ـقْسِ اليَلَنْجُوجىّ غامرْ (١)
لعددت فى إمكاننا أن نتّقى شَرّ الأداهرْ

٭٭٭

أليس ذلك عجبا ؟ وكيف لا يعجب من يرى الضدين يجتمعان فيأتلفان ؟ رجلان امتزج شعورهما ، وعقلهما ، ومنطقهما ؛ حتى كأنهما نفس واحدة ، ذات شعور واحد ، وعقل واحد ، وتفكير واحد ؛ على الرغم من سعة البون ، وتشعب وجوه الاختلاف بينهما . أما قس فهو سامى الجنس . عربى الشعب ، من القاطنين بالأصقاع الحارة الصحراوية ، ذات الجو اللافح ، والشمس المشرقة المحرقة ، والسماء الصافية ، كان يعيش فى القرن السادس الميلادى ؛ فى بلاد بدوية ، يسيطر عليها نظام القبيلة ، ولا أثر فيها للحضارة والمدنية ، ولا لدراسة العلوم وبث الثقافة ، فلم تكن له مدرسة يلقن فيها علمه إلا حوادث الدهر تصقل قلبه ، ومشاهد الكون تبهر لبه ، بما زانها به البارىء المصور ، من جمال فائق ، ونظام رائع ، وحكمة مبصرة .

(١) النقس اليلنجوجى : الحبر الأسود .

وأما شكسبير فهو آرى انجليزى من القاطنين بالجهات التى يغلب عليها البرد القارس ، وتعلوها السماء الكدرة المكسوة بالغمام ، كان يعيش فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وقد تمتع بما لم يتمتع بمثله قس من الحياة فى ظل حضارة نامية ، وثقافة واسعة ، ودولة قوية منتظمة .

ولكن ذلك ليس بعجيب ، إذا نظرنا إلى أن الطبيعة البشرية لا يختلف الناس فى جوهرها ، وإن اختلفوا فيما يصطبغ به ذلك الجوهر من ألوان تصطنعها المؤثرات الخارجية المتباينة . فللنفوس الإنسانية صفات تشترك فيها ، كما تشترك الأجسام فى كثير من صفاتها الجسمية ، فالشعور المطلق مشترك ، والمنطق العقلى مشترك وأسلوب التعبير عن ذلك المنطق مشترك ، فإذا سلمت النفوس من العلل التى تؤثر فى تلك الصفات رأيت مظاهرها متشاكلة متشابهة .

فاتفاق هذين الشاعرين فى شعورهما وتفكيرهما وأسلوبهما إن هو إلا مظهر من مظاهر تلك الفطرة الأنسانية الجوهرية المشتركة التى صار بها الأنسان إنسانا مميزا مما عداه .

أحب قس أن يعرف مصير حياته التى يحرص عليها ، ويشغف بها ، وأحب شكسبير أن يعرف مصير محبوبه ، ومآل ما أولع به فؤاده ، وما ملك لبه من الحياة والجمال ، فكان ذلك مظهر التشابه فى الأحساس .

وكما اتفق الشاعران فى الإحساس اتفقا فى التفكير وطريقته : فقد سار كل منهما من المحس المشاهد إلى النتيجة التى استنبطها ؛ سالكا فى ذلك سبيل التتبع والاستقراء .

واتفقا فى تلك النتيجة ، وحكم كل منهما بأن مصير من تعلق به وحرص عليه الفناء .

واتفقا فى أسلوب التعبير عند ما أرادا أن يبرزا ماعرفا من الحكم ومقدماته فى صورة من الكلام . فإذا أغفلت البيت الأول من كلمة قس رأيت هذه القطعة لا تزيد على جملة شرطية بدأها الشاعر بأداة الشرط (لمّا) ، وعطف على فعل الشرط ما أراد إلى أن انتهى دور الاستقراء فأنهى العطف بذكر الجواب . وكذلك

سار شكسبير فى النبذ الأول من قصيدته ، كأنما كان ينظر إلى مارسم قس ويحاكيه فى الأسلوب محاكاة دقيقة .

ويمتاز قس بالسبق إلى الفكرة وإلباسها هذا اللباس المنطقى . فى صورة شعرية رائعة ، تلتصق بشعور كل إنسان ، وتتصل بمواطن التفكير فيه . وهنا تعرض للعقل فكرة لا يمكنه مقاومتها سواء أكانت صائبة أم طائشة . فمن ذا الذى يحول بين العقل وبين أن يقول : إن شكسبير متأخر فى الزمن عن الايادى ، فربما وصل إليه شىء من الأدب العربى مترجما إلى الانجليزية : إما عن العربية بوساطة من أخذ العلم والأدب عن عرب الأندلس من الانجليز ، وإما عن لغات أخرى كالايطالية وغيرها من اللغات الأوربية التى رحل أبناؤها إلى الأندلس أيام ازدهار دولة العرب بها . قد يكون ذلك الخاطر صادقا فيضاف بذلك إلى قس فضل جديد : وهو فضل أستاذيته لشكسبير . وقد يكون وهما محضا ، فيخص قس بفضل السبق ، وتكون مشاركة شكسبير له فى الفكرة وتصويرها صورة عجيبة من صور توارد الخواطر .

ويجمل أن نشير إلى مبلغ تأثير البيئات المختلفة فى كلام الشاعرين ، متوخين فى ذلك سبيل الايجاز والاختصار ، والاكتفاء بالمثل القليلة .

حين نقرأ فى قطعة الايادى : المصادر ، الموارد ، قومى . يسرع إلى أذهاننا كثير من صفات الخصائص البدوية الصحراوية ، كورود الابل الى الآبار ، وصدورها عنها بعد الشرب ، وكنظام القبيلة الذى يقسم الأمة الواحدة الى أقوام تنسى الأفراد صلتهم العامة بأمتهم ، وتقوى فى نفوسهم ذكر الصلة الخاصة بالقوم ، حتى إن قسا لم يكد يتجاوز استقراؤه أبناء قومه .

أما شكسبير فترى فى دقة معانيه ، وفى ترتيب فكره ، وتنسيق خياله ، صورة ناطقة للحصافة العقلية التى كانت من جهةٍ مظهر العبقرية الخاصة ، ومن جهة أخرى ثمرة الثقافة القويمة المنتجة .

وترى فى ذكر البروج وعفائها ، وسبائك الشبه ودثورها ، آية التأثر بما فى البلاد المدنية التى تحوى من وسائل القوة والذكرى مالا يراه الايادى فى بلاده البدوية .

وتشاهد فى ذلك وفى حديثه عن العصر الخوالى ما يدل على تأثره بدراسة التاريخ، كما ترى فى تصوير التنازع بين البحر والبر أثر ما تعلم من علم الجغرافية الطبعية. أما تأثره بالحياة السياسية فيبدو جليا واضحا عند ما عرض لذكر الدولة وتعاقب الحاكمين عليها، وأنها قد يسطو عليها الضعف فيسرع إليها الانحلال والفناء.

ثم انظر إليه لا يقف عند ما وقف عنده الإيادى من معرفة المصير الذى يصير إليه، بل يتجاوز ذلك إلى الحكم بأن هذا المصير هو الغاية الحتمية لكل مخلوق.

وبعد أن رسخ ذلك الحكم فى نفسه رسوخا لا مرية فيه أخذ يتحدث عن مبلغ تأثر المخلوقات المختلفة بعبث الدهر: جاعلا نواة ذلك البحث محبوبه الذى أغرم به غراماً شديدا، ولعل محبوب شكسبير فى القصيدة لم يكن سوى الجمال؛ فان شكسبير لم يعين محبوبه فى القصيدة تعيينا واضحا، بل جعل الكلام صالحا للانطباق على كل ما يسمى محبوبا، وذلك شأن العبقريين من الحكماء الذين تنزع عقولهم إلى الكليات العامة. ذكر شكسبير الجمال، وأن مقاومته للدهر الذى يتغلب على الأحجار والمعادن والبر والبحر لا بد أن تكون ضعيفة لا تزيد على مقاومة الزهرة الناضرة، وذكر النسيم العليل، وان مقاومته لما تحاصره به الأيام من تحطيم وتدمير لا تكاد تذكر إذا كانت الصخور على قوتها والفولاذ على متانته تخضع لسطوة الأيام فتدمرها تدميرا.

ثم يشكو شكسبير نزوع نفسه إلى ذلك التفكير المؤلم، ثم يسأل عن القوى التى تستطيع مدافعة الدهر ورد صولته، ثم يجيب عما سأل فيقول: إن ذلك ليس فى وسع مخلوق، وان اتقاء فتكات الزمان لا يمكن ولا يصح فى حكم العقول إلا إذا صح أن يظل حبه وهو فى المداد الأسحم الحالك مضيئا مشرقا كما كان مشرقا مضيئا من قبل.

إن جل ذلك ما كان ليمر بخاطر قس الايادى، لأن ظروف حياته البدوية لم تكن لتعينه على ذلك. ولو كان قد قسم له أن يحيا مثل حياة شكسبير لربما جاراه فى المضمار، وربما حاز قصب السبق.

طه طه عبد الفتاح

من الأدب الغربي

الشاعر المحتضر

للامارتين شاعر الحب والجمال

تقـــدمة :

الفونس لامارتين شاعر فرنسى عاش فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وقد عرف فى حياته بالرأى الجمهورى فكتب كثيرا فى نقد النظم الاجتماعية وأساليب الحكم مما أدى الى الأخذ برأيه فقامت فى فرنسا الحكومة الموقتة عقب انهيار امبراطورية نابليون الثالث وكان هو عضوا فيها فأدى لفرنسا أجل الخدمات .

ويعده الفرنسيون سياسيا محنكا ، وشاعرا عظيما عرف بالتحليل النفسى العميق الذى ضمنه مؤلفاته العدة شعرا ونثرا ، وكان مشغوفا بتتبع التاريخ فى انجلترا حتى اعتقد أنه مدرسة لإعداد كبار الساسة فى العالم . كما كان متصلا بتاريخ الأدب فيها فنقد الطريقه « الكلاسيكية » التى عنيت بالطبقة الظاهرة من الانسان ولم تتعد هيئته الشكلية ، وأوجد الطريقة « الرومانتيكية » التى بحثت فى الانسان وحللت غرائزه وميوله ، وصورت نزعاته النفسية ، ودرست مواهبه فى صور فلسفية دقيقة .

وفى قصيدته « الشاعر المحتضر » التى ننشر طرفا منها فى هذا العدد ، يرى القارىء فيها تجمع الشاعر على نفسه وتصوير حساسيته نحو مظاهر الكون فى لحظاته الأخيره ، وللأستاذ الجليل أحمد حسن الزيات الفضل فى ترجمتها . هذا الفضل ساعد الشاعر على الانتفاع بها كقصيدة شعرية جديرة بالدراسة والتأمل !

الشاعر المحتضر (١)

للامارتين شاعر الحب والجمال

بقلم فايد العمروسى

حَطَمَ الدهرُ كأسَ عمرى سريعا وهى ملآى بأمنيات الشّباب
فحياتى تصرّمتْ زفرات بين يأسٍ وحسرةٍ واكتئاب
دَقّ ناقوسُ ساعتى فى بكاءٍ بجَناحِ الفَناء يبغى طلابى
ليت شعرى، أأصطَلى فى نُواحى امْ أغنّى، ولستُ أدرى مآبى

٭٭٭

سأغَنّى إذا الأناملُ ظَلّتْ بحنايا القيثار تشدُو بلحنِى
انّ ريبَ المنونِ يلهم نفسِى أغنياتٍ وهبتُها سرّ فَنّى ؟
أغنياتٌ هى الثّوانى البواقى فى حياتى، وهنّ آخر لحنى
أغنيات، كَبَجعَةٍ، الجوّ تُرْمى فتُوالى أنينَهَا فى تَأنّ
وإذا النفسُ لم تكن غيرَ حُبّ وعَذابٍ تَنَالُ يُمناهُ منّى
فجدير بها كريمُ وَدَاعٍ قُدُسىّ يزفّ لحنَ التّغَنّى

٭٭٭

حينَ يعرُو القيثار أصداءُ كسرٍ يبعث اللّحنَ فى جميل الغناء
أو خبا فى الصباح لمعُ شعاعٍ يرسلُ النور فى بَهىّ الضّياء
وإذا الطير شيّع الروحَ قسراً أرسَلَ الطرف فى فضاء السماء
غيرَ أنّ الانسان حين يوفى نزهةَ العمرِ فى ظلالِ الرّخاء
يرجع الطرف باكيا ما تقضّى من نعيم، وما مضى من رجاء

٭٭٭

(١) موافقة لترجمة الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة

أى شىء نرومه من حياةٍ شغلتنا فى يقظة ومنام
تشرق الشمس ساعة ثم يطوى ذلك الضوء تحت ستر القَتام
لحظة تنقضى وأخرى توافى وهى مثل التى مَضَتْ فى المقامِ
صوَر تجتلى ، فذاك جهاد سوف يُتلى براحة وسلام
بينما نحن فى عذاب أليم فاذا نحن فى مُنَى الأحلام
ذاك يوم الحياة يظهر حيناً ثم يطويهِ ليلُه فى الظلام

***

يا حياةً يبكيك من كان يهفو لك حرصاً وللحطامِ حبيبَا
ثم ضاعتْ آماله وتولّى لم يصادف من الأمانى نصيبَا
لستُ أبكى على الحياة إذا ما راعنى الموتُ فاحتوانى غريبا
إننى أترك الحياة رضاء وسروراً ، منَعّماً وطروبا
إن جذرى فى الترب منها ضعيف كجذور النباتِ رخوا رطيباً
كلما هبَّ نحوها ريح ليلٍ قلعتْها وصيَّرتها هَبوباً

***

يشبه الشاعرُ الطيورَ الهوافى لا تقيم الاعشاش فوق الغصون
أو ترود البحارَ حول ضفافٍ وهىَ ملأى بناظرات العيون
حظّها فى الوجود ان تتهادى فى فسيح الفضاء فوق الحزون
تنشد اللحن من بعيدٍ فيسرى فى نواحى الآفاق حلوَ الرنين
ليس يدرى الأنام ما تحتويه غير سجع من لحنها المحزون

***

لم تُدَربْ يدىَّ فى عزف لحنى يدُ مخلوقٍ تحتوى لحنَ نفسِى
إن هذى الألحان من فيض رَبى كيف أرسلتها بِصَنعةِ إنسِ
فمجارى الحياة تجرى سراعا فى مِهادِ التراب من غير لمسِ
وطيور الفضاء لم تتعلم أن تشق الهواءَ صبحاً وأمسِ
وكذا النحلُ لم يعلمه علم كيف يجنِى الشفاءَ من روض أنسِ

***

ورنينُ الناقوس فى يوم بُشرَى كرنين الناقوس فى يوم حزنِ
فتراه ينوح آناً ، وآناً يرسلُ الشدوَ فى غناءٍ ولحنِ
أنا ذاك الناقوس شدوا ولحناً انا منه فى لحنه وَهْوَ منِّى
طهّرَتنى الآلام حتى كأنى كُنْتُهُ إذ براه لفحُ التَّشَنّى
وتهيجُ الأوتارُ أوتارَ قلبى فأغنّى بلحنِها ، واُغَنّى
كل حسٌ له غناءٌ بنفسِى آهة الحزن غيرُ لحنِ التجنّى

٭ ٭ ٭

أنا قيثارة تبيتُ تغنّى فى دُجى الليل تحت عزف النسيم
تمزج اللحن بالخرير فيسرى ذلك اللحنُ فى حنانٍ رخيم
شدّ ما يدهش السميعُ فيرنو واقفاً فى تحيرٍ ووجوم
معجباً فى تمايل وانتشاء كانتشاء النهى ببنت الكروم
ليس يدرى ، أذلك الصوتُ لحن أم نواح من الفؤاد الكليم

٭ ٭ ٭

ذاك لحنى قد أخضلته دموعى ودموع الجفون للمرء صحب
ان دمع الجفون للقلب طهر كدموع السحاب للأرض خصب
ما رأينا القلوب تحنو فتسمو حيث ماء العيون قفر وجدبُ
فعصير الكروم فى الكأس يسرى ان دهى الكأس من صدى الكسر عطب
ونبات الريحان ان جفّ وجها وعراه من الكآبة خطب
فشذاه يفوح ان وطِئتْهُ قدم السارى فى الثّرَى ويهبُّ

٭ ٭ ٭

خلت نفسى نغمة من لهيب عجبا للاقدار تأتى عجيبا
من يرمها ليتقى فى حماها أحرقتهُ وصيرته لهيبا
انا أحببت مسرفا فى غرامى ولذا مت من غرامى طروبا

لها بقية

فايد العمروسى

نشـــيد قومى

مصرنا مصرنا

مهـد المعارف والحكم

شعبنـــا شعبنـــا شعب السماحة والكرم

مجـــدنا مجـــدنا مجد قـديم فى الأمم

جيشـــنا جيشـــنا فخر الغـزاة الفاتحين

أرضـــنا أرضـــنا أرض النفائس والذهب

وكنوزها فيهـا العجب

من صنع خوفو والعرب

أوحت لنـا السحر المبين

هـذا تراث جـدودنا

يبـقى لنـــا بجهودنا

ومن انتصار جنودنا

بين الجنـــود الغالبين

مصرنا مصرنا ... ...

خالد الشامى

فى الجزيرة

قف بالجزيرة ساعةً بين المزارع والحقول
والشمس تبدو للعيو ن كأنها ذهب صقيل
والروض زاه ضاحك والماء عذبٌ سلسبيل
كم منظر مستعذبٍ يشفى من المرض العليل
ولكم شهدت ملاعبا ورأيت ثَمَّةَ من فصول
لله ما أزهى بمصرٍ روضة حُفَّت بنيل

المرآة

كشَّافَةُ العيوبِ للنَّاظِرِ اللبيب
لكم جَلَوْتُ نفسِى فى نورها المشبوب
وكم رأيت منها نصح الأخ الأريب
وكم لها من فضلٍ فى حسنىَ المجلوبِ
وكم نضحت وجهى أمامها بالطيبِ
وكم فرحت فيها بثوبي القشيب

عيناى تبصرانى من جسمىَ المكذوب
فأهتدى لعيبى وأبتغى تهذيبي
حُيِّيت يا مرآتى يا حَبَّةَ القلوب

حمامُ الزاجِل

أنا حمام الزاجـل وبهجة المنـازل
وطائـر رحالهْ أبلـغ الرسالهْ
ولا أخاف بأسا ولو قتلت النفسا
فعلت فى الحروب فعل الفتى اللبيب
وباختراع الطائرهْ دارت على الدائرهْ
لـكن لى فى المجـد والرشدِ أقصى حدّ

العـــلم

حىِّ العـلم ، حىِّ العـلم وابغ الحياة ولا تنَمْ
فى كل مصر راية عنوان مجـد للأممْ

وإذا العـدو تقـدما وبغى الجـلادَ وصمَّمَا
ورفعت رايات الحمى لم تَلقَ إلا ضيغَمَا

أعلاَمنا بكِ نحتمى مثـل المقـام وزمزم
ونرود غايات العـلا ونفـل عـزم الأنجم

قم يا فتى أذكِ الهمم واصعد بمصر إلى القمم
قل إن رأيت بنـودها فوق السها : عاش العـلمْ

محمد عبد المنعم سالم
مدرسة سعيد الأول الابتدائية بالاسكندرية

النهــــر

أرأيت النهر يجرى وسط الوادى الخصيب
ورأيت الفلك فيـه فى شمال وجنوب
تحمل الأثقال فيها من متاع وحبوب
نزهة فى النهر عصرا حينما يدنو الغروب
ويهب الريح (١) رخوا ويغنى العندليب
تـكسب الجسم نشاطا وتنجى من كروب
أنت يا نهر جميل وغـذاء للقلوب

أحمد أبو النجا
المدرس بالمطمير بالاسكندرية

(١) الريح مؤنثة ، وقد تذكر على معنى الهواء

المكتبة العربية

كتاب الفن الإسلامى فى مصر

للدكتور زكى محمد حسن

ظهر فى عالم المطبوعات الجزء الأول من كتاب الفن الإسلامى فى مصر للدكتور زكى حسن، الأمين العلمى بدار الآثار العربية والمنتدب لتدريس الآداب بالجامعة المصرية. ويعتبر هذا الكتاب باكورة الكتب العربية فى نوعه. فان من كتب عن الآثار العربية لم يعد تعدادها وتاريخ إنشائها ومساحتها وذكر منشئيها والدافع لهم إلى إنشائها، إلى غير ذلك من الأشياء التي لا نسب بينها وبين الفن فى ذاته. ولكن هذا الكتاب تناول مناحى الفن الأسلامى فبحث فى أصولها وما طرأ عليها من تغيير أو ابتكار، وتكلم عن حظ مصر من هذا الفن، وعلاقة مابها بما فى سواها من الأقطار الأسلامية، وبين أثر أذواق كل قطر فيما سرى لديه من فنون وما ابتكر أو حسنت أوضاعه.

وإذا ذكر أثراً بعينه جعل ذلك كتطبيق للأصول الفنية السائدة فى عصره، بل لا نبالغ إن قلنا إن الدرس العام الذى يحويه عن الفنون الأسلامية يساعدك إذا رأيت أثراً أو نقشاً على جدار أو خزف أو آنية على أن ترجعه إلى عصره.

والدكتور زكى مثل فذ للشباب النابه علما وعقلا، فما كاد يتم دراسته فى نواحى أوربا حتى عكف على الدرس المستقل والانتاج المتواصل، فقد أخرج من قبل كتابا عن الفنون باللغة الفرنسية، وكتابه هذا الذى نتحدث عنه. وسيطالعنا منه قريبا إن شاء الله سفر طريف عن التصوير لدى الفرس. بارك الله فى همته وفى صحته، فهى مطية الجهاد العلمى، ووفق شبابنا المتعلم إلى الاقتداء به فى الدرس والنفع.

لطفى حمزة
بنيابة الاستئناف

سلسلة

القصص المدرسية

بقلم

سعيد العريان أمين دويدار محمود زهران
خريجي دار العلوم

إنا نريد التلميذ على القراءة إرادة ، ونرغمه إرغاما ، وندفعه إليها دفعاً ، لأن الرغبة عنده منقطعة . والرضى غير متصل ، لأن موضوع مايقرؤه جاف ليس فيه ما يعلق به القلب وتهفو إليه النفس .

مساكين أبناؤنا وتلاميذنا . ينصرفون من مدارسهم ولن تحدث واحدا منهم نفسه بأن يمد يده إلى كتاب ، أو يحاول أن يتفهم موضوعا من الموضوعات تبعاً لهواه وطواعية لرغبته ، لأن لغتنا على غناها فقيرة من هذا النوع القصصي الشائق الذى يفتنّ فى الحوادث الخيالية أو الحقيقية فيصورها تصويراً دقيقاً ويخلع عليها ثوباً من الرواء يتنقل بين الحوادث المختلفة وكل حادثة تتصل بالأخرى اتصالا وثيقا عن قرب أو بعد فتتفرغ النفس لها وتتشوف إلى غايتها فيمعن القارىء فى القراءة ويستمر فيها ويسترسل استرسالا لايصرف نفسه عنها حديث ، ولا رغبة فى لعب ، ولا ميل إلى طعام . ولقد حز فى نفسى أنى شاهدت بعض تلاميذ مصريين بمدرسة فرنسية فى يوم راحتهم ، منكبين على القراءة انكبابا ، ذاهبين فى الاسترسال فيها إلى حد بعيد ، فوقع هذا الميل منهم عندى موقعا قد يكون غريبا إلى حد ما ، فأنا أعلم انصراف تلاميذنا عن القراءة وإعراضهم عنها . ولقد تبينت من محادثتهم أن مدرستهم تعيرهم يوم الراحة قصصاً يقرءونها راغبين لاراهبين ، راضين لا مرغمين ، فتمنيت — وكنت أظن بعدما تمنيت — أن تتاح لتلاميذنا — وبخاصة صغارهم — قصص باللغة العربية السهلة

لا بالمبتذلة الساقطة ، ولا بالجيدة العالية . تبل أوامهم وتنقع غلتهم ، وتجبر نقصاطالما تحدثنا فيه وروّينا فى القضاء عليه ، حتى طلعت علينا القصص المدرسية فكانت الأمانى.

ظهر من هذه السلسلة إلى الآن خمس قصص عرض منشئوها فى كل قصة إلى ناحية من نواحى حياتنا المصرية بِنَهْج حللها تحليلا دقيقاً ، وتابع استقصاءها ؛ وتأثر عللها وأسبابها ، وجلى فى الكشف عن أدوائها ، ينث فى ثناياها الحكمة الغالية ويبث فى تضاعيفها الرجولة الحقة ، والوطنية الصادقه ؛ والمثل الصالحة لكرم الأخلاق ، وجميل الخصال ، كل ذلك بعبارة سهلة رقيقة وأسلوب قصصى ممتع ، قد روعى فيه مقتضى الحال كما يقول البلاغيون ، فهم يكتبون للطفل ، وللطفل المصرى الذى أخذ أخلاقه ولغته من بيئته المصرية فتعمدوا ألا يغربوا وألا يختاروا الألفاظ الجزلة التى يتهالك الكتاب فى استعمالها والتى يغترف من بحرها أيضا منشئو هذه القصص فى حينها .

وإنما تعمدوا أن تكون قصصهم للأطفال ، وأن تكون بلغة الأطفال ، ولغة الأطفال العامية . ولا سبيل إليها فى تأليف يخرج للناس وتتداوله الأيدى .

وإنه لمن الصعب على الكاتب البليغ الذى نشىء فى دار العلوم أن يتدلى إلى عقلية الطفل فى تأليفه ، ويتدلى إليه فى لغته وأسلوبه ، ولكن الطبيعة الخصبة ، لمؤلفى القصص ، والسجية اللينة ، والنحيزة السهلة ، قد جعلت منهم على الرغم من تنشئتهم فى بيئات عربية خالصة عميقة ، قُصَّاصَ أطفال فأتوا بالعجب العاجب الذى تقف عنده نهية كل راغب . فكتبوا للأطفال بلغتهم ولكنهم ما تنزلوا إلى نث العامية ؛ ولا ارتفعوا إلى صفوة الفصحى ، بل أخذوا ما صح لفظه وخف جرسه . أخذوا ما يتناوله الطفل فى حديثه . فى لعبه . فى بيته . فى حواره ولكن ما استعملوه حتى تبينوا صحته ، وتعرفوا عربيته . ولقد استقصيت كثيرا من الألفاظ فى المعاجم فما وجدت كلمة واحدة غير صحيحة ، ومع ذلك لم يحرم الطفل من متخير الألفاظ ومنتخل الأساليب وإنه ليتناول القصة فيقرؤها من غير مئونة ولا كد ذهن ، ولا جهد فكر ولا إعنات روية ولا إرهاق خاطر فأشكر الله لهم على هذا التوفيق .

ولقد حاول كثير من غير أبناء دار العلوم أن يحاكوا الغرب فى القصة فترجموا وألفوا ولكن ما بلغت قصصهم من نفس الطفل مابلغت قصصنا ولولا الخروج عن الموضوع لمايلتها بمايلة وعقدت بينهما موازنة .

وهنا يصح أن أعلن فى ثقة أنه عمل إلى الآن منقطع النظير ، وليتأكد كذلك أيها القارىء أنى لا أقول ذلك مجاملة لزميل أو محاباة لصديق فاسمع ما أقصه عليك :

١ — هذا نادى دار العلوم مفتح الأبواب : مضاء الثريات وبعض أعضائه فى الردهة جلوس وإذا قادم يستأذن للدخول وإذا به يقدم نفسه بأنه أحد الدليلى للسياح وإذا به يطلب الأذن لسائح مستشرق لزيارة النادى ، فنهضنا واستوينا وقوفا ، واستقبلناوأحسنا الاستقبال ، ورحبنا وأحسناالترحيب ، وجاملناألطف مجاملة وكنا على عادة المصريين كرماء لضيوفنا فإذا بالسائح يبتدر السؤال عن مؤلفى القصص المدرسية ويعلن فى إعجاب وتقدير أنها الأولى من نوعها الجديد فى اللغة العربية ، وكان حديث مع أحد المؤلفين انتهى بأن قدمها له هدية ووعده بمتابعة إرسالها إليه فشكره وانصرف .

٢ — وهذا تلميذ فى السنة الأولى الابتدائية يدخل على والده غاضبا حانقا مكفهر الوجه مقطب الجبين يعلن فى شدة وعنف شكواه المرة من تعدى التاجر (كمبريان) على عاطف (الزعيم الصغير) فى القصة الخامسة ويستعدى والده على (كمبريان) انتصارا لعاطف ، وأخذ بعد ذلك يرى فى كل أجنبى (كمبريان) ، وأصبح يشترى حلواه ولعبه من المصريين .

٣ — وتلك فتاة تقرأ وتعجب وتستطيب القصص فتنىء المؤلفين بإعجابها وتقديرها إلا أنها تعتب عليهم إغفال الفتيات فشكروا لها مدحها كما شكروا لها عتبها وكانت عروس البغاء القصة الثالثة

٤ — ثم هؤلاء مدرسون مصريون للغة الانجليزية فى مدرسة ابتدائية يبدون إعجابهم ويراسلون المؤلفين طالبين السماح لهم بترجمتها إلى اللغة الانجليزية ليتيسر لهم الانتفاع بها فى مادتهم .

فليس بعد ما قدمت زيادة لمستزيد فقد حفل بهـا الفتى والفتاة ، والطفل والشيخ . والأجنبى والمصرى .

القصة الأولى

دار فيها الحديث على تلميذين صديقين أحدهما ابن موظف والثانى ابن تاجر وقصِدَ فى تصرّف الحياة بهما إلى تمكين الميل إلى الأعمال الحرة ، وقطع الرغبة فى الوظائف ، فقد صُوِّر ابن الموظف وقد تنكرت له الأيام بفقد أبيه الذى كان لا يدخر من مرتبه شيئاً ، فانقطع عن المدرسة وأصبح خلق الثياب ، زرى الهيئة مغضن الوجه ، يلح فى طلب عمل ، ويمعن فى طرق الأبواب : عله يجد مايقوم بأوده ومعونة إخوته فيلقى شر ما يلقاه طالب ، ويتعرض لأشدمايتعرض إليه محروم ، وبعد لأى يجد العمل فيفرغ له نفسه وجهده . ويمنحه إخلاصه واستقامته فيقطع عليه الدس الطريق فيشعر بالضيق والحرج فيحدث عن نفسه فى القصة « وشعرت أن الوظيفة ذل ، وأن الموظف عبد ذليل ، عليه أن يطيع كل أمر فإذا خالف طردمنوظيفته ؛ وأدركت أننى كنت مخطئا حين فرحت بالوظيفة وأننى بعت حريتى بهذه الجنيهات التى أقبضها فى كل شهر : فاستقلت من وظيفتى من غير أن أفكر فى مستقبلى » (ص ٤١) وفى لباقة هيأت له القصة عملا حرا مثمراً .

هذا إلى الحكم المنثورة فى ثناياها وإليك منها (ص ٣٠) « وكان سعد مشتاقا إلى الفول من زمان ، لكنه كان يعرف القواعد الصحية فلم يملأ بطنه » وأيضا حيث يقول (ص ٣١) « فردسعد : وإن ذلك يسرنى أكثر ، فهل تسمح أن نتقابل يوم الأحد؟ فأجاب الشاب : بل يوم الجمعة — إن سمحت — فهو اليوم الذى اخترته لراحتى »

ولقد ساروا فى جميعها على هذا الدرب فعرضوا فى الثانية للصحراء والسودان والآثار مما تنقطع معرفته عند كبارنا بله صغارنا .

وأما الثالثة (عروس الببغاء) فقد ضربوا فيها مثلاً درساً قاسياً لفتاة العصر الحاضر المغرورة ، فلاهى ربة منزل نافعة ، ولا هى بمتعلمة ناهضة . وقد صوروا الأب حاذقا والزوج حازما فأتيا بأطيب الثمرات .

أما القصة الرابعة (النهر الذهبى) فقد صورت أثر اقتصاد التلميذ فى حياته المستقبلة فانتهى تلميذ التبذير إلى أشنع ماينتهى إليه مبذر ، وانتهى تلميذ الاقتصاد

إلى أحسن ما ينتهى إليه مقتصد . أما الخامسة (الزعيم الصغير) فقد تحدثت عن مركز الأجانب بيننا وابتزازهم لأموالنا فى غير هوادة ولا رحمة ؛ حتى أصبحنا كما يقولون (غرباء فى بلادنا) ثم جردت من عاطف زعيماً قوياً ، وخطيبا وطنياً وكان على يديه أن دالت دولة (كمبريان)

هذا وقد لحظت أن الفوال استأذن من ربان الباخرة أياما للاستراحة فى لندن فأذن له ، فكان عليه حين وفق إلى عمل آخر أن يخطره ويستأذن فى إخلائه جزاء وفاقاً على ما قدم له من معونة ومساعدة ، حتى يظهر طفل قصتنا بمظهر اللباقة والكياسة .

وفى (الصياد التائه) رسمت صورة الوحش وليس برجليه الجمازة التى تحدثت عنها القصة بأنها علقت برجليه حين هوى إلى الحضيض .

وإن لى رغبة فى أن يكون فى ثناياها نكات وحوادث مضحكة متداخل بعضها فى بعض؛ ترويحاً للنفس وأن تشمل حوادث تحتاج إلى فتق الفكر وإعمال الروية فى استنباط حيل للتخلص من بعض مآزق حرجة ، فتكون بعض الحوادث بعيدة الغور ، وتظهر فيها قوة الحيلة ولباقة التصرف وحدة الذهن ؛ وبعد فإنى أهنئ المؤلفين ، راجيا من الله لهم اطراد التوفيق وحسن المستقبل .

محمود الطنبولى
المدرس بمدرسة الأميرة فوزية الثانوية

استـــدراك

فى حفلة تكريم الأستاذ صالح هاشم عطية

فاتنا فى العدد السابق ونحن نصف حفلة تكريم الأستاذ صالح هاشم عطية بمناسبة اختياره مربيا لحضرة صاحب السمو الملكى أمير الصعيد وسفره فى حاشيته أن نذكر أن من بين البرقيات التى وصلت إلى لجنة الاحتفال وتليت برقية رقيقة من حضرة الأستاذ مصطفى حسن فهمى مفتش منطقة الاسكندرية يشارك فيها هو وحضرات المفتشين الذين فى منطقته اللجنة فى تكريم الزميل الفاضل .

صحيفة دار العلوم

فهرس الجزء الثالث من السنة الثانية